



محمد مفيد الشوباشي

طلائع الأحرار

قصة مصرية واقعية

قبل عام ١٩١٩

ملتزم الطبع والنشر

مطبعة الصاوي الحديثة بشارع السلطان حسين ٨٩ بعابدين

الاهداء . .

الى زوجتي . . .

طلائع الأحرار

قصة مصرية واقعية

الفصل الاول

اجتاز عبد المنعم أبو السعد ردهة نظارة الداخليـة متجهاً إلى غرفة مكتبه ، وما اقترب من بابها حتى صاح :

ـ يا حسين ! ! حسين ! ! أين أنت أيها الساعي المهمل ؟ ! .

كان يرتدي معطفاً أسـود سميكا ، ويحمل مظلة صيفية بيضاء . ولم يكف عن النظر مغيظاً إلى سرواله وحذائه الملوثين برشاش الطين . كان فخوراً بذلك السروال الأوربي الرمادي ، والحذاء الأصفر الفاقع . ولكن مطر ذلك اليوم الشاتي لم يرحم أناقته .

وخرج من الغرفة على صوت صياحه موظف تقدم اليه مرتبكا وقال :

ـــ سيعود حالا . . . ذهب ليحضر لي فنجان قهوة . . . لا تؤاخذني .

ورأى الغضب مرتسما على وجهه فأردف .

ـــ أأستطيع أن أقوم بتأدية طلبك ؟ . ولـكـن .. ها هو ذا مقبل ... أسرع ياعم حسين . . ناولني قدح القهوة . عبد المنعم افنـدي يطلبك .

ودفع عبد المنعم المظلة المبتلة إلى الساعي وقال عابساً :

ـــ انشرها في الشمس ، وأحضر خرقة لتمسح هذه الأوحال . .

ودخل الغرفة يتبعـه ذلك الموظف حاملا قدح القهوة . وما هم بخلع معطفه حتى أسرع اليه الموظف بعد أن وضع القدح على أقرب مكتبه ، وخلع له المعطف ، وحمله عنه إلى المشجب . .

اكفهر جو ذلك اليوم ، وهو من أيام فبراير سنة ١٩٠٤ ، منذ الصباح الباكر . ثم هطل مطر قلما جادت السماء بمثله على أهل القاهرة . وتوارى عبد المنعم قبل الخروج من بيته مدة خلف الباب منتظراً أن يتحسن الجو . ولما طال انتظاره وخشي أن يطول تأخره عن العمل ، تناول المظلة البيضاء التي لم يجد واقياً من المطر غيرها ، واستقبل بها الوابل المدرار ، وخاض في الطين وبرك الماء التي سدت عليه الطريق ، ووصل إلى النظارة على الحال التي شاهدناه عليها . كان أكثر ماضايقه من اتساخ ملبسه أنه رقى في الأيام الأخيرة وكيلا لقلم المستخدمين ، فحرص منذ ذلك الحين على العناية بهندامه ، وبحسن مظهره حتى يكبر في أعين رؤسائه ومرؤوسيه على السواء .

كانت غرفة مكتبه فسيحة ذات نافذتين وثلاثة أبواب ، ولم يكس أرضها الخشبية غطاء . بل إنها كانت خالية جرداء إلا من خمسة مكاتب يقع أكبرها في صدر الغرفة بين النافذتين ، ويحيط به مكتبان إلى اليمين ، والمكتبان الآخران إلى الشمال . ومن الواضح أن عبد المنعم هو الذي يحتل المكتب الكبير. وكان يجلس إلى يمينه عثمان صبري ، وهو الموظف الذي استقبله وخلع له معطفه . ويجاوره من الناحية الأخري فتى في نحو العشرين من عمره يدعى سامي منصور . أما الموظفان الباقيان فلم يكن يشعر بوجودهما أحد .

جلس عبد المنعم في كرسيه متأففاً . وتناول ملفاً من الملفات المرصوصة أمامه ، ونظر فيه وقلب بعض أوراقه ، ثم زحزحه عنه وعاد ينظر إلى حذائه الملوث . وبحث بيده عن زر الجرس الكهربائي العالق بذراع كرسيه ، وضغطه في عنف متمتماً .

— أفّ له من ساع بليد !!

وكان المطر ينقر دون انقطاع على زجاج النافذة ، وتسيل قطراته عليه مسرعة متسابقة . وأخذت أنفاس عبد المنعم تتردد كعادتها بطيئة ثقيلة، يعلو صوتها المنبعث من أنفه الغليظ على صوت المطر مشابهاً فحيح الأفاعي . وكان هذا الصوت يزعج سامي ، ويصيبه بضيق التنفس ، ويزيده نفوراً من جاره .

وصاح عبد المنعم أخيراً :

— الحمد لله على السلامة !!

وأسرع عم حسين إليه متعثراً ، وجلس القرفصاء إلى جانب حذائه وعكف على مسحه بأنامل مرتجفة ، متوقعاً بين لحظة وأخرى أن ينهره الرئيس المتعجرف . . . ودوّى الرعد على حين فجأة فكاد يقفز ، ووقعت الخرقة من يده . ولم يمهله عبد المنعم :

— ألا تصلح حتى لمسح الحذاء يا خائب ؟ !

وكان سامي ينفرد دون زملائه باظهار عدم الارتياح لغلظة عبد المنعم. ولكن إظهار عدم ارتياحه كان يقتصر دائماً على حركة أو إشارة أو بسمة ساخرة ، أو زفرة حارة . أما نبيه الشاذلي ولبيب مرقص ، وهما الموظفان الآخران اللذان لم نذكرهما بعد ، فكانا يلتزمان الصمت المطبق طوال النهار ، على عكس عثمان صبري الذي كان يملأ الغرفة ضجيجاً لا يكاد ينقطع .

على أن حركات عثمان كانت تنمّ ، هذا الصباح ، عن غيظ مكبوت . كان يفتح درج مكتبه ويغلقه بعنف ، ويغمس قلمه في المحبرة مرات متتالية ، ويضغطه أثناء الكتابة ، ثم ينظر في خطه ويلقيه في سخط ويتناول غيره ، ويكاد يمزق أوراقه وهو يقلبها . ويصوّب إلى سامي

بين حين وحين نظراته الغاضبة ، فهو لم يغفل عن بسمات سامي الساخرة التي رشقه بها حين دخل وراء عبد المنعم وخلع له معطفه . ولم يطل احتماله لسخطه المكتوم ، فانفجر في النهاية . وصاح على حين فجأة بصوت عال خارج من حنجرته ، شبيه بخوار عجل .

— عبد المنعم افندي ! . . .

— مالك ياعثمان ؟ . . .

— تأخر سامي اليوم كعادته ، فحضر بعد نصف ساعة من الميعاد .

ورفع عبد المنعم نظره إلى سامي ، وسأله بصوت خشن ممزوج بلكنة انجليزية .

— وما حجتك اليوم ياسامي ؟ . . ما الحجة التي أعددتها ؟

وافترت شفتاه الغليظتان السمراوان عن ابتسامة ساخرة غاظت سامي فأجاب .

— إني حضرت قبلك على أية حال .

وساد الوجوم . وتحولت بسمة عبد المنعم الساخرة إلى تجهم . وفكر قليلا قبل أن يقول .

— أتقيس نفسك بي ؟؟ . ألا تفرق بين مركزك ومركزي ؟ ! .

— مركزك ! ! . مركزك الذي تدين به لصديقك المفتش الانجليزي ؟!

وفوجيء عبد المنعم بهذا الرد ، وقال مرتبكا :

— أنا الملوم . أنا أطمعتك في حلمي . ولكن الصلة التي تربطني بك ...

وقطع عليه كلامه دخول حاجب المفتش الانجليزي . فتحول نظره إليه بغتة ، وذهل عن مشادته مع سامي . وأرهف أذنيه للحاجب الذي قال :

— جناب المستر ميكر يطلبك .

— أجاء جناب المفتش ؟ كيف هذا ؟ ! . ومتى وصل ؟ . .

— منذ ربع ساعة .

وأطاشت هذه الاجابة صوابه ، فقفز من مقعده ، وركل ساعيه بقدمه فكاد يلقيه على ظهره ، وصاح في وجهه .

— كيف لم تنبئني بقدوم جناب المفتش ؟ . . . ألم أنبهك مراراً إلى ضرورة إحاطتي بخبر مقدمه وانصرافه فور حدوثهما ؟ . .

وغادر الغرفة وراء حاجب المفتش مسرعاً مشيعاً بنظرات سامي . وقام الساعي يتأوه ويقلب نظراته الحسيرة بين الحاضرين . وخاطبهم بصوت فيه رنة البكاء .

— أكان في مقدوري التنبؤ بمقدم المفتش وأنا أنظف له حذاءه ؟! أيركلني بعد أن بلغت هذه السن في خدمتكم وخدمة الحكومة ؟ ! أيرضيكم هذا الظلم ؟ ؟ . .

واستمع اليه الجالسون مطرقين ، ولكن سامي لم يلبث أن نظر اليه مغرورق العينين وقال :

— لا تحزن ياعم حسين ، فهو يعاملك كما يعامله سادته . . . اصبر فلكل شيء نهاية.

وانفرج ثغر عثمان عن أسنانه الصفر الغليظة وسأل .

— نهاية من ؟ . .

— نهاية من سودوا مثل عبد المنعم علينا .

وسد عثمان فمه بأصابعه مصطنعاً الانزعاج . ثم رفعها وقال بصوت شبيه بالهمس .

— خفض من صوتك . . . سيجر علينا طيشك الويلات . إن لنا

أطفالا يحتاجون الينا .

والتفت الى الساعي الذي كان يقف وسط الغرفة مصغياً ونهره .

— ماذا تنتظر ؟ أتريد أن تشاركنا في الحديث ؟

وخرج الساعي مطأطئاً . واستأنف عثمان قوله لسامى .

— لماذا لا تصون لسانك ؟ إن للحيطان آذانا ، وقد يكون الساعي الذي تشفق عليه جاسوساً عليك .

وعجب سامى لجرأته على الحقائق ، وغمزه بقوله .

— أنا أعلم أن الجواسيس موجودون . . . في كل مكان .. .

وتظاهر عثمان بالغفلة واستطرد .

— لماذا تتحدّي الأقوياء الذين لا قبل لك بمقاومتهم ؟ أنت صغير السن قليل التجربة ، فلماذا لا تنصت إلى نصيحة من يكبرونك سنا ؟ . أنا مشفق عليك . . .

ونظر إليه سامي متعجباً .

— مشفق علىّ حقاً !! . هذا ظاهر كالشمس .

وافترّ ثغر عثمان السكريه ثانية.

— أتأخذ علىّ ما قلته لعبد المنعم أفندي عن تأخرك ؟ أقسم أنى لم أقصد إحراجك ، ولكنى قصدت تأدية الواجب .

— طبعاً . . . طبعاً ، فان تملق الرؤساء واجب مفروض .

وارتفع صوت عثمان الخارج من حنجرته .

— أنا لا أتملق أحداً . ولكنى أشفق على المصلحة العامة . ومصلحتك أنت أيضاً .

— طبعاً ... فأنت تنكر ذاتك دائماً ، ولا تفكر إلا في مصلحة غيرك .

— أنامخطيء إذن؟ . . .أليس هذا ما تقصده ؟
ودار بعينيه بين زميليه الجامدين ، وازداد صوته الكريه ارتفاعاً .
— أأنا مخطيء ياإخواني ؟ ؟ . . أأنا مخطيء ؟ ! . .
ولم يجبه أحد . فهز كتفيه ، وأمسك بقلمه ، واستغرق في الكتابة . .
وأخذ سامي يتأمل هذا الأهوج الضخم الجسم ، القليل الادراك . .
هذا الطموح الضيق الحيلة . . . هـذا الذي يحاول محاكاة عبد المنعم فيخطئه التوفيق ، ويعرّضه الفشل لسخرية الساخرين . كان طويل القامة ، ضخم الجسم ، مجاجل الصوت . ولكن ضخامته وجاجاة صوته لم تمكنه من إحراز النجاح الذي أحرزه الوصوليّ الآخر القصير البدين الذي طوى المفتش الانجليزي ، وأصبح وكيلا لقلم المستخدمين قبل مرور ثلاث سنوات على توظيفه .
ومما كان ينفر سامي من عثمان أسنانه الصفر المهشمة البارزة من خلال شفتيه المنفرجتين ، ورأسه الصغير الذي يعلو كتفيه العريضتين . رأس الصبي المكوّر الوجنتين . كان هذا التنافر بين جسم المملاق ووجه الصبي وأسنان الكهل يستثير نفور الناظر إليه . تأمله سامي وعجب كيف يتجرأ هذا الطويل التافه عليه ، ويتهمه بالطيش والغرور ! !
دخل عبدالمنعم مطبق الفم ، صارم الوجه . فابتدره عثمان بالسؤال :
— خيراً إن شاء الله ؟
وتلكأ في الاجابة ، وأعاد النظر في الملف المفتوح أمامه ثم قال :
— جناب المفتش ينبهكم إلى ضرورة المحافظة على مواعيد الحضور ، فهو لن يسمح أن يعبث بها أحد منكم بعد اليوم . . .
وحدق في وجه سامي ، واستأنف كلامه .

— وقد خوّلني جنابه سلطة توقيع الجزاء دون الرجوع إليه .

وشعر سامى بأن مكثه بين أولئك القوم يخدش عزة نفسه، فقد كان يضيق بتلك الغرفة ، ويرى الدنيا من خلال من فيها مليئة بالدنايا والسخافات . وأكثر ما كان يحز فى نفسه اضطراره إلى كتمان مشاعره المضطرمة ...

كفّ المطر عن الهطول ، وارتفع فى السكون الطارىء تنفس عبدالمنعم ، فعاد سامى إلى الشعور بالاختناق . وتملكته رغبة عنيفة تلح عليه بأن يجهر بمقته للوصوليّ الناجح ، واحتقاره للوصولى الفاشل . وأن يخرج إلى الساعى المسكين ويعتذر اليه عن إهانة الرئيس المغرور ...

ونفذت من خلال النافذة أصوات متصاعدة من الشارع . نداء الباعة ، وأصوات الصهيل والنهيق ، واصطدام حوافر الدواب وعجلات المركبات بالبلاط المرصوف . وانتقل سامى بخياله إلى الفضاء الرحب والهواء الطلق بعيداً عن الغرفة الخانقة .وأخذ يغبط الرائحين الغادين هناك مستمتعين بالحرية ، .أخذ يغبط كل من يعيش بعيداً عن سجنه .

الفصل الثانى

خرج سامى فى ميعاد انصراف الموظفين إلى الشارع الفسيح ، فرطب الجو المنعش أنفاسه الحارة . كانت الشمس التى توارت منذ اليوم السابق وراء سحب كثيفة ، تسطع متهادية فى صفحة سماء صافية زرقاء ، وتحنو بدفئها على الحفاة المعوزين من سكان عروس الشرق . وبدت الدكاكين والدور وبلاط الشارع والأرصفة التى غسلتها سيول الأمطار نظيفة لا يكدر خطوطها الواضحة المشرقة غبار جبل المقطم . وما خطا فى الشارع بضع خطوات حتى شعر بذراع تتأبطه . فالتفت فرأى نبيه

الشاذلى ، زميله الصامت الغامض الذى يجاوره فى الغرفة البغيضة . . وآه يبتسم ابتسامة عذبة لم يعهدها ، وسمعه يقول :

— تعال بنا إلى الجانب الآخر من الشارع . . . فى ظل البيوت .

فحاول سامى أن يتخلص من ذراعه ، وقال .

— اذهب أنت حيث شئت ، فأنا أفضل دفء الشمس .

— دفء الشمس وأنت تلبس هذا المعطف ؟! . ولكن لا بأس .

ومال على أذنه واستطرد هامسا :

— لنبتعد عن الزحام ، فلى كلمة أريد أن أسرّها إليك .

وعجب سامى ، وثارفيه الفضول . فأى كلمة يحاول هذا الصنم الجامد أن يسرها اليه !؟ هـذا المستخف بمايدور حوله ، غير المعنىّ إلا بتنفيذ أوامر عبد المنعم . هذا الذى لا يرفع عينه عن أوراقه ، ولا يكاد يتخلى عن قلمه ، ولا يستثيره مايدور فى الغرفة اللعينة ! ! ولكن هذا المتفانى فى إرضاء رئيسه لم يفز برضاه ، فان عبد المنعم لم يكن يعنى به ، أو يلتفت اليه إلا إذا جدت أعمال تتطلب الجهد الشاق فحينذاك كان ينظر إليه مبتسما ويقول:

— ليس لهذه المهام سواك يا نبيه .

على أن شكل نبيه لم يكن يدل على همة أو نشاط . كان منطفىء العينين، غائر الخدين ، معروق اليدين ، يخاله الناظر إليه مريضاً . ولكنه كان مع ذلك سريع الحركة خفيفها ، لايمل العمل أبداً .

غرق الزميلان فى الزحام الذى اشتد فى الشارع بتدفق الموظفين الخارجين من مكاتبهم . وجذب نبيه رفيقه من ذراعه ، وقال .

— لماذا لم تسرع فى خطاك ؟ تعال نسلك هذا الزقاق .

وهرع جمع من الموظفين الى الافريز المقابل لباب النظارة حيث

تقف عربات سوارس فى الانتظار . ولم يدخل الرفيقان الزقاق لتراكم الأوحال فيه . وتمهلا فى السير حتى تخلفا عن الجموع الحاشدة . وقال نبيه خافض الصوت .

— لمَ تصر على إغضاب عبد المنعم وأنت أدرى بقوة نفوذه ؟ ! .

— أهذا هو السر الخطير ؟ هلا أرحتنى من هذه السيرة ؟ ألا يكفى ما أحتمله طوال الصباح ؟ .

— لا تستخف بهذه الأمور . إنه يتطلع الى رياسة القلم . سيظل نجمه فى صعود ، فلم تغضبه ؟ لم تعرض نفسك لانتقامه ؟ .

وانتقل ذهن سامى فجأة الى عبد المنعم ، فذكر مساعيه فى سبيل الحصول على ترقية جديدة قبل أن يمر شهر على ترقيته السابقة . . . ذكر دسه لرئيس القلم المصري عند المفتش الانجليزي ، وذهابه خلسة الى مكتب ذلك الرئيس المصري بعد انصرافه ، ومراجعة أوراقه وملفاته ، وإحصاء أخطائه ونقلها إلى صديقه الأحمر الوجه . . . ذكر هذا وغيره من دسائسه لرؤسائه ، وتنكيله بزملائه ، فانتفض وصاح :

— كيف أستطيع احتمال هذا الرجل ؟ . كيف أستطيع احترامه ؟ ! .

وأجاب نبيه فى هدوء :

— أنا لا أطلب إليك احترامه ، ولكنى أرى ألا تحتك به . أرى أن تهمله .

— أتعنى أن أصبح مثلك ؟ . . ولكننا مختلفان .

كانا يتجهان حينذاك صوب عابدين ، ويتخيران من الطرق أنظفها . ولم يعد للموظفين المنصرفين الى دورهم أثر . وخلا طريقهما إلا من جلساء المقاهى ، ومن أفراد مختلفى الهيئة ، يقبل بعضهم بين حين وحين عاري القدمين ، يتضقض فى أسماله الرقيقة ، ويدبر بعضهم مستوياً على

ظهر دابته ، أو مزهوا في عربة فخمة .

ومرت فترة صمت قطعها نبيه :

— أنا لا أتطفل . . . فليس التطفل من طبعي كما تعلم . ولكني أقدر خصالك ، ولا أحب أن تتعرض للأذى . . . إني أود . . .

وسارع سامي إلى القول دون أن يمهل رفيقه :

— إن كنت تقدرني كما تقول ، فأعفني من هذا الحديث . إني لا أطيق سيرة الوظيفة والموظفين .

— ولكنك تعيش بينهم ، فعليك أن تفهمهم على حقيقتهم . إنهم يسعون كسائر الناس إلى تحسين حالهم . وهل شغل الناس منذ القدم بغير هذا ؟

— أتحسب الناس جميعهم يكذبون ويموهون ويتملقون ويدسون ، ويخطو بعضهم فوق رقاب بعض لتحقيق الأغراض التافهة ؟ .

— نعم . ما دام الصراع على الرزق بغير ضابط .

— والخيانة ؟ ! كيف تبرر خيانة أصدقائك ؟ كيف تبرر ممالأتهم لحكامنا الجدد ، ومعاونتهم على حكم البلاد ؟.

— الانجليز هم المسئولون عن الخيانة . فهم يملكون أرزاقنا ، ويتوصلون بها إلى إفساد الضمائر .

— الذنب ذنب من يبيعون ضمائرهم. آه لو نستطيع الخلاص منهم ! .

— لواستطعنا ذلك لما عجز الانجليز عن إفساد غيرهم .

— ولكننا إذا استطعنا أن نجعل منهم عبرة ، انكمش غيرهم .

— العبرة محدودة الأثر . والناس واقعون تحت تأثير مطالبهم الدنيوية .

كان من طبع سامي الهدوء ، ولكنه كان يحتدم إذا استثير ، ويندفع في ثورته على غير انتظار . كان يتيم الأب ، تخلى عنه الأقارب

والأصدقاء بعد موت أبيه ، فلم يعرف من الدنيا في صباه غير بيته ومدرسته . لم يعرف الناس فنشأ حييا هيوباً . على أنه كان أشبه بالسماء التي يعيش تحتها . سماء القاهرة ... هذه السماء التي لا تجهل العواصف . ولكن عواصفها التي تثور فجأة ، سرعان ما تنقشع عن الزرقـــة الصافية ، والشمس الساطعة .

قال وقد أخذت سورة الغضب تستحوذ عليه :

— أنا لا أستطيع مناقشة من يضع لقمة العيش فوق سائر القيم .

— أنا لا أضع شيئاً فوق شيء ولكني أرى مطالب الحياة وقيمها متصلا بعضها ببعض .

— نحن غير متفقين ، فما فائدة هذه المناقشة ؟؟

— وإذا كنا متفقين فما الداعي إليها ؟ ليتك تصبر عليّ ، فلو استمعت إلى ما أودّ قوله وتدبرته لعلمت أنك لم تضيع وقتك سدى . أنا أطلب إليك أن تملك زمام نفسك ، وتتحكم في مشاعرك فلا تظهرها ، ولا يعلم بسرها أحد ، أمن العقل أن تتصدى وحدك لعدو لا قبل لك به ؟؟ .

— أتريد أن أكتم بغضي له ؟ . ألم يبلغك ما يذيعه الانجليز عنا من أكاذيب ؟؟ . إنهم يزعمون للأمم كافة أنهم انتشلونا من وهدة الشقاء ، فقدرنا لهم هذا الجميل ، واغتبطنا بإقامتهم بيننا . فكيف تطلب أن نكتم بغضنا لهم ولصنائعهم ؟ أليس في كتمانه تأييد لهـــذه الدعوى الباطلة ؟

العالم لا يهتم برأي حفنة من المثقفين أمثالنا ، ولكنه يهتم برأي الجموع الحاشدة . إني مسلم بضرورة هبوب الشعب في وجه المحتلين . والجمهور يعد أنه لهم ، وعلى مثلك ومثلي أن يوقظه ويعده لذلك .

— مثلك أنت !! .

واستطرد نبيه في غير اكتراث .

— نعم . . فعلينا أن نوقظ الشعب ، ونبصره بحقه ، ونحفزه الى الكفاح في سبيله ، ونقوده حتى نمكنه من حكم نفسه بنفسه .

— من يقوده ! . إن الشعب لا يكترث بمن يعمل في الظلام . إنه يحتاج الى قادة يخرجون معه الى الميدان ، ويتعرضون قبله للهلاك ، ويصيرون له قدوة .

— مهلا ياصديقي ان القدوة لا تختلف عن العبرة التي قلت لك رأيي فيها ، أنها وسيلة جزئيـة تأثيرها محدود موقوت . . . وليس اعلان السخط الا نزعة ذاتية . . . انه اعلان عن النفس . . . انه بطولة جوفاء . لا تغضب واستمع الي حتى أفرغ من حديثي . انك تكشف عن نفسك للاستعمار ومشايعيه باظهار هذا السخط الذي لا يفيد ، ولن تلبث أن تجد نفسك محاطاً بعيونه وأرصاده ، مكبلا بقيوده الثقيلة ، عاجزاً عن الوصول الى غرضك . . . أتظن شرف الوطنيـة مقصوراً عليك وحدك ؟ ؟ فكم من أناس غيرك يتطلعون الى نفس هدفك ، ولكنهم يتوسلون الى تحقيقه بالكتمان . . . كتمان مسعاهم عن الأعداء وجواسيسهم . وقد هممت أن أطلعك على مسعى بعض هؤلاء ، وأن أصحبك الى مجتمعهم السري .

وصاح سامي غير مصدق .

— مجتمعهم السري ؟ ! . . اصدقني بالله عليك . أفي مصر جماعة سرية تسعى لانقاذ البلاد من المستعمر ؟ ! ! . . .

— نعم . وقد فكرت في ضمك الى صفوفنا بعد أن تحققت من اخلاصك .

— صفوفكم ؟ ! . . أأنت منهم ؟ ! . أحقا ما أسمع ؟ ؟ ! ! .

— نعم ! ولكن عجزك عن ضبط نفسك، وكتمان عواطفك حملني على التردد.

وتوقف سامي عن السير، ودار فواجه رفيقه، وأمسك به من ذراعيه، وتوسل إليه مرتجف الصوت.

— خذني اليهم . بالله لا تتردد . أتوسل إليك . ومن هؤلاء ؟ وكيف يكونون ؟ ! . هل أعرف أحداً منهم ؟ .

— نعم .

— من ؟ ! . من يكون ؟

— زميلنا في الغرفة البغيضة .

وشهق سامي شهقة عالية، وشخص بصره كأنه رأى عجباً وصاح .

— لا تقل إنه عثمان !

— لا، طبعاً . بل لبيب مرقص .

— ذلك الصامت الصارم الوجه ؟ ! انى لم أسمع صوته طوال هذا العام .

— إنه رجل يعرف كيف يعمل في صمت .

— أعدك أن أصبح مثله . ولكن . خذني إليهم .

— سأجربك أولا .

— أعدك أن أصبح جامداً كالصنم، بارداً كالثلج . ولكن عدني .

— ابدأ مذ الآن فتمالك جأشك .

— كيف أهدأ قبل أن تعدني ؟

— لقد تحدثت إلى زملائي عنك، وقبلوا انضمامك اليهم .

ودارت الأرض بسامي من شدة الانفعال، ورفع عينيه إلى نبيه، فرآه على غير ما تعود أن يراه . رأى وجهه مشرقاً، ونظراته حلوة، ووجهه جذاباً، وأحس بميل شديد اليه، فشد قبضة يديه على ذراعيه،

وتمنى لو استطاع أن يعانقه ويقبله فى الطريق العام . وكانا حينئذ فى شارع الخليج المصري . واستأنفا السير وهما على مقربة من دار سامى الذي أخذ يتلكأ فى مشيته بعد أن كان يرهق صاحبه باسراعه ، وقال وهو لا يزال ينتفض تأثراً :

— على مهلك . حدثنى عن أصحابك الأخيار ، حدثنى عن آرائهم وخططهم ، حدثنى .

وابتسم نبيه وقال :

— ألم أطلب إليك ضبط أعصابك ، والتذرع بالصبر ؟ .

— سأفعل ما تشير به علىّ ، ولكنى لا أستطيع الصبر عن لقائهم حدثنى عنهم .

— ماذا تريد أن أقول ؟ لقد أوشكنا أن نصل إلى دارك .

— لا أريد أن أدخل الدار ، ليس لى رغبة فى راحة أو طعام ، حدثنى .

ووصلا وقتئذ إلى شارع الخليج المصري فعرجا إلى الشمال .

— نحن نؤمن بحيوية شعبنا ، وتطلعه إلى الحرية ، ولهفته عليها . ولكنه أصيب بخيبة أمل مريرة . إنه يكاد يتردى الى هوة القنوط ، فعلينا أن تنعش آماله . هو لا يدرك غبن الاحتلال له ، وهضمه لحقوقه ... علينا أن نبصره بالحقائق ، ونحفزه إلى الكفاح .

واستدرك سامى ، وقد أخذت حماسته تفتر قليلا .

— ولكن هذه المهمة يضطلع بها الوطنيون جهراً . ألا يدعو « مصطفى كامل » الى هذا علناً ؟ !..

— مصطفى كامل يقصر دعوته على المثقفين ويكتفى باستثارة مشاعرهم ، ولكن قوة البلاد الحقيقية تكمن بين جموع الشعب الحاشدة ... . انظر

حولك الآن فاذا ترى ؟ ! ألا ترى دكاكين خاوية ؟ ومقاهى يربو عددها على عدد الدكاكين المفتوحة ؟ إنى أكبرك بعشر سنوات . لقد رأيت هذا الشارع يعج بدكاكين الحدادين والمقادين والسباكين وغيرهم من أصحاب الحرف والصناعات . فما الذي جر الخراب على هؤلاء بعد اليسر ؟ إنه الاستعمار الذي غمر الأسواق بمنتجاته ، وكاد يقضى على صناعاتنا القضاء المبرم ، ويجعل الأمة ضعيفة عاجزة ، لا تستطيع الفكاك منه . وقد أصبحت حال الفلاحين بعد وقوعهم فى حبائل المرابين الأجانب أسوأ من حال أهل المدن .. هذه الحقائق لايدركها الشعب حق الادراك . فاذا كشفنا له عنها ، وأطلعناه على الخطر الذى يتهدد رزقه ، هب مدافعاً عن كيانه ، واستمات فى مكافحة الاستعمار ، وحينئذ نخرج من مكامننا ونقوده فى كفاحه .

وأطرق سامي قليلا ، ثم قال :

— لقد بدأت أدرك مقاصدكم وأقدر أهميتها . ولكن ماهى وسائلكم ؟

— ادخل الآن دارك هادىء الأعصاب ، ولا يعلم أحد شيئاً مما أطلعتك عليه ، وستقف على كل ما تود الوقوف عليه فى اجتماعنا السرى القادم .

الفصل الثالث

— ما ذا يصدك عن الطعام يا سامى ؟ ! .

— لاشيء يا أمى . فها أنذا أتناوله .

وحمل نفسه على طعام غدائه إرضاء لأمه زكية هانم . كان يشعر بما تعانيه فى هذه الأيام من ضيق وقلق ، فحرص على مرضاتها حتى لا يضيف إلى أسباب عنائها سبباً جديداً . كانت هذه الأسرة قلما داخلها مرح . فلم

يبق اليوم منها غير سامي . وعلى الرغم من أن أختها تقطن الطابق السفلي ضمن نفس الدار ، أختها فاطمة التي اعتادت قبلا مضى أن تصعد إليها كل يوم، فاذا تأخرت عن الصعود نزلت هي إليها . على الرغم من هذه الألفة الوثيقة بين الأختين ، فان حائلا يحول اليوم دون لقائهما . فهناك رجل كريه يحتل منزل أختها فاطمة. رجل تعده مسئولا عن تحطم البقية الباقية من آمالها .

لم يكن يؤنس وحشتها أثناء غياب سامي الذي كثيراً ما كان يتغيب النهار بطوله غير خادم صغيرة بلهاء لا تفقه ما يقال لها . كانت سيدتها تلجأ إليها حين تمل الوحدة، فتحدثها عن ابنها الغائب ، وعن سامي وعمن فقدتهم . وتقلب الماضي فتروي ذكرياتها القديمة ، وتزجي الوقت بالتحدث إلى تلك الدمية ولم يكن لها صاحبات تخرج لزيارتهن ، ولم تسمح تقاليد أسرتها أن تخرج وحدها للنزهة ، فظلت حبيسة الدار ، لا ترى الدنيا إلا من خلال نافذتها . وأية دنيا كانت تبدو أمامها ! ! . . بناء مغلق النوافذ في أسفله ثلاثة دكاكين يتسكع أمامها المشترون ، ومقهى يتصاعد منه الصياح فيزعجها بالنهار ، ويؤرقها إلى ساعة متأخرة من الليل . ثم أرض فضاء إلى يمين البناء ، وأخرى إلى يساره ، تتكوم عليهما الأحجار والأوساخ .

في هذا المسكن الموحش كان سامي يعيش إلى جوار أمه .

توفي زوج زكية منذ ستة أعوام فوجدت بعض العزاء في أولادها الثلاثة، كامل وفائقة وسامي . ولم تلبث الأيام أن ابتسمت لها بعد مصابها في زوجها ، وحققت لها أمنية تتمناها أم لابنتها . فحل اليوم الذي طالما تمنت حلوله ، إذ طرق بابها الزائر المنتظر الذي جاء يخطب فائقة .

لم يكن فطين حسين الذي جاء يخطب ابنتها غريباً عنها ، فقد كان يمت إليها بصلة قرابة . كان شائق الحديث ، حاضر النكتة ، فأشاع

مبهجه فى البيت ، واجتذب قلوب من فيه حتى ودوا لو طالت الخطبة .
كان موظفاً بمصلحة السكك الحديدية . وقد استطاع أن يسدى يداً لأسرة خطيبته بتوفيقه إلى إلحاق كامل ابن زكية الأكبر ، بوظيفة فى المصلحة التى يعمل بها ، فازداد فى أعين أفراد الأسرة قدراً ومكانة .

وتوالت على زكية أسباب السعادة ، فأحست فى يوم زفاف ابنتها كأنها تخطر فوق السحائب . ثم جاءت ابنتها تزورها بعد الزفاف بشهرين ، رافلة فى « حبرة » حريرية ، « وبيشة » شفافة . وزفت اليها بشرى جديدة . بشرتها بأنها ستصبح عما قريب جدة . وحل اليوم الموعود بعد طول ترقب وانتظار ، واستقبل المولود نور الوجود ، وشنف أذنى جدته زكية ببكائه الموسيقى . . . وكان هذا اليوم نهاية أيام زكية السعيدة . . فقد ماتت ابنتها بعد أيام على إثر إصابتها بحمى النفاس . وتوالت النكبات فلحق المولود بأمه ، وتزوج فطين حسين قبل مرور شهر على وفاة الفقيدة الغالية . . . ثم نقل كامل إلى الاسكندرية . . . وكان لهذه النكبات المتوالية أثرها فى نفس سامى ، ولم يزل يذكره بها ثوب أمه الأسود ، ووجهها الحزين .

ولاذت زكية بأختها ، وازدادت صلتها بها توثقاً ، إذ لم يعد لها أحد سواها يؤنس وحدتها طوال النهار . وبثتها همومها ومخاوفها وشفاقها على سامى الذي برح به حزنه على شقيقته المحبوبة . وأزجيا الوقت باستعادة الذكريات الأليمة . وتحدثا عن فطين حسين ، ذلك الماجن الهازل الذى تزوج قبل أن يبرد دم زوجته المتوفاة فى عروقها . ومرت الأيام وكادت تنسيهما فطين حسين ، وخيانته لرفات زوجته ، ونيله من كرامة الأسرة .

ولكنه ظهر فجأة بعد طول غيابه وانقطاع أخباره . فبمدحوالى عام

قرار فاطمة هائم على غير انتظار ، وعرض عليها عرضاً أثار ضجة كبيرة ، وأضرم النار في صدر زكية ، وفي عروقها التي كادت تجف . . . وانتهت الزوبعة بدخول الرجل الغريب السكير بيت أختها وإقامته به .

أنبأ فطين قريبته فاطمة بأنه موفد من قبل رجل ثري يدعى محمد بك أبو السعد يود الاقتران بها ليسعد بمصاهرة أسرتها . وفوجئت الأرملة الساذجة بهذا العرض . واعتذرت وهي ترخي أهدابها ، وتحني رأسها حياء بأنها جاوزت سن الشباب ، فلا يليق بمثلها أن تتزوج . ولاسيما أن ابنتها سنية أصبحت في سن الزواج ، فأولى بها أن تفكر في تزويج ابنتها بدل أن تفكر في نفسها .

وما كاد فطين ينصرف ، ويصل نبأ مهمته إلى زكية حتى نزلت مهرولة إلى أختها فوجدتها مشرقة الوجه ، مؤتلقة العينين ، فسألتها متعطبة :

— أحقاً ما سمعت ؟

وأجابتها فاطمة مرتبكة

— نعم . . .

— وما رأيك ؟

— أنا لست في سن الزواج يا أختي .

ولم يكن تهدج صوتها ليعيد الطمأنينة إلى شقيقتها التي اندفعت تقول :

— كيف يجرؤ هذا الوقح على التقدم بذلك العرض ؟ هذه إهانة لا يجوز أن تغتفريها له . لا يجوز أن تسمحي له بدخول بيتك . إن هذا الوغد يسعى إلى تلويث سمعة أسرتنا . فكري في ابنتك سنية ، وفي مستقبلها . أين هي ؟ . آه ، إنها في المدرسة . . . كيف تكون الحال إذا وقفت على ما جرى ؟ كيف تطيق الحياة إلى جوار رجل غريب عنها ؟ .

— ولكني رفضت الخطبة يا أختي .

كانت زكية تريد أن تستأثر بأختها فلا يشاركها فيها أحد ، ولكنها لم تقر بذلك حتى لنفسها ، فأخذت تتعلل بسمعة الأسرة ، والفضيحة التي تهددها ، ومستقبل سنية . ولم يكن في مقدور المسكينة أن تعلم بما تخبئه الأيام من مفاجآت ستضاعف همومها ، فلو استطاعت التنبؤ بها لاستماتت في مقاومة مساعي ذلك الزواج دفاعاً عن هناءة ولدها .

ووالى فطين زياراته ، وأمعن في إلحاحه . وحدث فاطمة عن علو مكانة محمد أبو السعد ، وضخامة ثروته . ثم تحدث عن ابنه عبد المنعم الموظف بوزارة الداخلية ، وعن المستقبل الزاهر الذي يبسم له . وبعد أن فرغ من إطرائه قال لها إن استجابتها لرغبة أبو السعد قد تؤدي إلى إسعاد ابنتها سنية بزفافها إلى ابنه عبد المنعم .

وارتاحت فاطمة لإلحاح فطين ، وتعللت بالتراجع عن موقفها . ولم تلبث أن لانت بعد الدلال ، واستسلمت بعد التمنع . وتم الزواج رغم معارضة المعارضين .

وعرف سامي نهاية علاقته بسنية ، عرف أن عبد المنعم سيغلبه على أمره ، ويفوز بها من دونه . وعرفت زكية هذه الحقيقة المؤلمة أيضاً ، فإن عين الأم لا تغفل عن ابنها أبداً . لاحظت عليه ، بعد موت أخته ميله إلى العزلة ، وعزوفه عن متاع الدنيا ، وضيقه بأمور لا تستحق الاهتمام .. لم تغفل أمه عن شيء من هذا ، ثم طرأ عليه منذ عامين تغير جديد لم تغفل عنه أيضاً . فقد رأى ابنة خالته ذات صباح على نحو لم يعهده من قبل .. رآها فتاة تكاملت فيها مفاتن الأنوثة الفتية ، فاستيقظت فيه رغبات الرجل . خيل إليه أنه يراها لأول مرة حتى كأنها لم تسكن قبل ذلك

الصباح فتاة وسيمة ، تحاول بابتسامها وتلطفها أن توقظ قلبه الخافق .
ارتاحت الأم لهذه العلاقة التي حولت حزن ابنها العميق الى حب يخلق في حياته الأمل والاستبشار . حب جدير بأن يوفر لابنها السعادة ويوثق الرابطة بين الأسرة . ولكن محمد أبوالسعد حطم تلك الآمال ، فجاء ابنه عبد المنعم ينافس سامي في حبه . وظهرت بوادر خضوع فاطمة لزوجها ، فلم يبق شك في أنها ستذعن لأول إشارة منه ، وترغم ابنتها على قبول عبد المنعم زوجاً .

* * *

سألت زكية ابنها وهما لا يزالان على مائدة الطعام :
— ما الذي يشغل بالك يا سامي ؟
— لا شيء يا أمي .
— أتخفي عني همومك ياولدي ؟ .
— لست أخفي عنك شيئا ، ولكنها مشادة وقعت اليوم بيني وبين عبد المنعم
واضطربت الملعقة في يدها ، وتوقفت عن الأكل !
— مشادة ؟ . . أتطاول الوغد عليك ؟ ! .
— بل هي مشادة لا أهمية لها . . وقد رددت إهانته بمثلها .
— إهانته !! . . أيهينك بعد أن خفيت أقدام أبيه سعياً إلى مصاهرتنا ؟ ! .
لن أسكت على هذا . سأنزل اليوم الى فاطمة . لن أسكت .
وشعر سامي بالندم على فلتة لسانه !
— لا تقلقي ياأمي ، فأنا لم أعد أهتم بعبد المنعم . فهناك أمور أهم تشغل بالي .
وتأملت زكية ابنها مشفقة ، ولم تسأله عن تلك الأمور الهامة ، لأنها

لم تصدق شيئاً مما قال . وتنهدت منطوية على همومها مستسلمة لتصرفات الأقدار .

واستلقى سامى على فراشه بعد أن فرغ من تناول طعامه ، وأوى إلى غرفة نومه . . واستغرق فى التفكير ، واستعاد ما دار بينه وبين نبيه من حديث . وأحس أن حياته لم تعد فارغة كما كانت ، وأن فى الدنيا مهام جليلة هى التى تكسبها جلالها وأهميتها . واستسلم لخواطر سعيدة وآمال واسعة تهز كيان من كان فى مثل سنه .

الفصل الرابع

ترجع معرفة سامى لعبد المنعم إلى عهد الدراســــة . فقد كان عبد المنعم الذي يكبره بأربع سنوات ، تلميذاً فى فرقة متقدمة على فرقته بمدرسة الخديوية بدرب الجماميز ، ولا يزال سامى يذكر إلى اليوم المضايقات التي عاناها فى تلك المدرسة بسبب ملاحقة عبد المنعم له ، وتقربه منه ، وتودده إليه رغم مقابلته ذلك التودد والتقرب بالإستخفاف والتباعد .

ولم تكن طلعة عبد المنعم المثيرة هى وحدها سبب النفور منه ، بل كان هناك سبب آخر أعمق غوراً حمل سامى على التشبث بمقاطعته . فقد فطن إلى سر ذلك الاهتمام وتلك الملاحقة . ولم يكن كشف ذلك السر يحتاج إلى كبير فطنة ، فان اهتمام عبد المنعم به بدأ منذ شاهد سنية جالسة معه تحت شجرة التوت فى فناء دارهما عصر أحد الأيام .

لم يكن سامى يخشي حينذاك منافسة عبد المنعم . لم يكن يغار منه ، ولكنه كان يزدريه . ولم يرجع ازدراؤه له الى تطلع عبد المنعم لسنية فحسب ، ولكن سامى كان يضيق بسلوكه . فقد شاهده فى أحد الأيام يحتك بفتاة صغيرة خارجة من مدرستها ، ويتبعها وهو يكاد يلتهمها بنظراته

الجاثمة ، وسمعه يضايقها بكلمات لم يتبينها . • واشتد تقززه، منذ ذلك اليوم، من جفنيه الضيقين ، وأنفه الكبير ، وشفتيه الغليظتين ، ومزاحه البذيء ، وفكاهاته المفحشة . كان يتبين فى قسمات وجهه وملامحه ونكاته وإشاراته أثر النزعات الملتوية ، فأنف أن يتطاول فيتطلع إلى ابنة خالته .

واندفع عبد المنعم فى مطاردته غير متخاذل ، فأخذ يوطد صلته بأصدقاء سامي ، ويسألهم أن يستميلوه إليه ، ولم يتوان عن نصرته ودفع أذى التلاميذ الأشرار عنه . وتمادي فى تملقه وإطرائه فى حضوره وغيبته على السواء . وكثيراً ما كان يجترىء على الانضمام إلى مجلسه وهو بين رفقائه فى فناء المدرسة ، فيتمادي فى هزله ، ويروي نوادره وطرفه ، مقلداً مدرسيه ، مستعيناً بالاشارات الغريبة على إضحاك الحاضرين ، آملا أن يفوز ببسمة واحدة يفتر عنها ذلك الثغر المطبق ، ولم يقنطه أن يقطع سامي عليه الحديث ، ويغادر المجلس غير آبه .

وفض سامي ذات يوم رسالة وردت إليه ، وأدهشه أن يرى توقيع عبد المنعم فى ذيلها . ودفعه الفضول الى قراءة الأسطر التالية :

عزيزي

بقوة الاستنتاج أقول إنك خرجت أمس فى صحبة فتاة من أفراد أسرتك إلى فناء دارك ، وجلست الى جانبها تحت شجرة التوت تحدثها عن الشيخ محمد حسنين ، أستاذ اللغة العربية . وجعلت تحاكى صوته الخشن المبحوح ، وتمد أواخر الجمل مثله ، وأنت تعيد على مسامعها عبارته المأثورة « المقرر طويل . والوقت قصير . والتلاميذ كسالى والعياذ بالله تعالى » ، ولعلك تذكر أنى أنا الذي يختص بتقليد ذلك الأستاذ الخفيف الظل . ولكنى لا أؤاخذك على استباحة تقليدى ، وتوسلك به إلى إدخال

السهود على قلب فتاتك

ولم يطل مجلسكما . فقد أطلت إحدى قريباتك من النافذة ، وطلبت إليكما دخول الدار خوفاً عليكما من البرد .

وفي تمام الساعة التاسعة مساء ، صعدت إلى غرفتك في الطابق العلوي ، وأويت إلى فراشك في تمام الساعة العاشرة .

لا تعجب . فأنا مطلع على كل شيء ؟ المخلص

عبد المنعم

ومزق سامي الخطاب ، وألقى قصاصاته في عنف . وهز كتفيه استخفافاً بذلك المجترىء وبقوة استنتاجه . فأنباؤه لم تكن لتستعصي على من يتلصص ويتسمع ويراقب أضواء النوافذ . ولكن عبد المنعم أرغمه بعد ذلك على أن يفغر فاه عجباً ، فقد واظب على الكتابة إليه مضمناً رسائله أنباء تعد من أسرار الأسرة ، وأحاديث جرت بين جدران الغرف المقفلة . واشتدت حيرة المسكين ، وذهبت به الظنون مذاهب شتى . فلا بد أن يكون في الدار من ينقل إليه الأخبار ، فمن يكون ؟ أهي تلك الخادم الصغيرة ؟ تلك الدمية البلهاء ؟! . أم هي طاهية خالته ؟ تلك العانس المطبقة الفم ، الحبيسه في مطبخها ؟! .. وعذبه الشك ، وكاد يزعزع ثقته في أعز أقربائه ، وزاده هذا العذاب كراهية لذلك الفضولي السمج .

وتكدست الخطابات الغريبة المتدفقة . وطالت الدعابة الممجوجة المرذولة . ويأس سامي من أن يتوصل إلى كشف السر الخفي . ولكن السر الخفي انكشف من حيث لم يتوقع . انكشف في المطبخ .. في مطبخ خالته فاطمة . فقد مر به ذات مساء وهو في طريقه إلى دورة المياه ، فسمع حديثاً يجري فيه . سمع لأول مرة صوت الطاهية المعقودة اللسان ، ولكن صوت

محدثها لم يكن غريباً عنه .

دخل المطبخ ، ووقعت عيناه على متسوّل يجلس القرفصاء ، ويتناول الطعام . فعرفه لأول وهلة . عرفه رغم لحيته وشاربه المستعارين . وغلى الدم في عروقه ، وتحركت كفاه إلى صفعه . وأدهشه أن يعمد ذلك المقتحم المجوّج إلى العبث بلحيته والابتسام . لم يبتسم خزياً ، ولكنه حاول أن يقلب الجد هزلا ، والقحة دعابة ، ويحمل سامي على استلطاف مجونه .

ونظر سامي إليه مليا ، ثم لوى شفته احتقاراً ، ودار إلى الطاهية وقال :

— ألم تسمعي عن حادث حي السيدة ؟ لقد سمحت خادمة لمتسوّل كهذا أن يتردد على منزل مخدوميها دون علمهم . فانتهز فرصة وجودها بمفردها ، فقتلها وسرق مصاغها ، وما استطاع حمله من متاع المنزل . . .

وتركت الطاهية تشهق وتضرب صدرها بيدها ، وخرج عابساً . .

لم ينقطع ورود خطابات التنجيم رغم افتضاح سرها . ولكن سامي كان يردها بطريق البريد دون أن يفضها ، فلم تثن هذه الاهانة عبد المنعم عن موالاة إرسالها . ولم يقلع عن ذلك إلا حين اهتدى إلى الوسيلة التي حقق بها بغيته ، فاستطاع أن يدخل منزل فاطمة هانم جهاراً ، وأن يجلس إلى جانب سنية على مرأى من سامي ، وأن يحادثها و يداعبها على مسمع منه . تلك الوسيلة التي وقف القارىء على مضمونها ، دون تفاصيلها .

ما كاد عبد المنعم يفوز بشهادة التجهيزية ، حتى وفق بمواظبته على السعي والالحاح ، إلى الالتحاق بوظيفة كتابية في وزارة الداخلية . وحرص على المرتب الذي يتناوله كل شهر فلم ينفق منه شيئاً . وأغراه المال المتجمع بمواصلة الادخار . وفتحت له الجنيهات القليلة المدخرة في بحر بضعة شهور باب الآمال الواسعة ، فراح يحلم بالغنى والجاه ، ويصمم

على الوصول إليها مهما كانت طريقها وعرة شاقة .

وخطر له أن يستثمر المبلغ الوحيد المدخر في التجارة ، فاتخذ أباه مطية لتحقيق مقصده . كان لأبيه دكان بقالة يقوم على ناصية بشارع خيرت ، ويعلوه مسكنه الفسيح المطل على ذلك الشارع . فرأى ابنه أن تنتقل الأسرة إلى مسكن أكثر تواضعا ، وأزهد إيجاراً ، وأن تنتقل التجارة إلى دكان أفخم مظهرا ، وأروج صقعا . ولم تلبث الأسرة أن نقلت متاعها صاغرة إلى بيت مظلم متوار في زقاق من الأزقة المجاورة ؛ ونقل الأب بضاعته إلى شارع الموسكي ، وكدس المحل الجديد بالبضائع الغالية التي اشتراها ودفع بعض ثمنها من مال ابنه المدخر ، ومما حصله عليه من رهن حلى ابنته نعمات . وتعهد بدفع الباقي على أقساط آجلة .

ورأى سكان شارع خيرت دكان عم محمد أبو السعد مغلق الأبواب ، وشاهدوا الأسرة تنتقل إلى المسكن الضيق في الزقاق المظلم ، فشاع بينهم أن الرجل قد أفلس ، فامتلأت قلوبهم إشفاقا عليه وحسرة . . . ولكنهم لم يلبثوا أن رأوه يركب في غدوه ورواحه عربه فخمة يجرها جواد ضخم ، فعادوا وقالوا إنه عثر على كنز في البيت المظلم الذي انتقل إليه . وكان هناك كنز حقا لم يعثر عليه عم محمد بل عثر عليه ابنه عبدالمنعم . كان الكنز هو بيكر المفتش الانجليزي الذي استطاع ذلك الفتى الطموح النهاز أن يفوز بثقته . وكانت هذه الثقة مفتاح الفرج ، فسرعان ما توصل أبوه إلى التعاقد مع قيادة الجيش المحتل على توريد ما تحتاجه حامية القاهرة من مواد غذائية .

وأخذ البقال المحظوظ يغترف المال من خزانة جيش الاحتلال ، فإذا هو بعد مدة وجيزة تاجر ثرى بحق . . . وخطر حينذاك لعبد المنعم ذلك

الخاطر الذى مكنه من الفوز بما تمنى . . كان مطلعاً على أسرار أسرة سامى ؛ فرأى أن يغزو القلعة من أضعف مداخلها . رأى أن يستغل أنوثة فاطمة التى لم تشعر بكر السنين ، وتقدم العمر . فاستمسكت بأحلام الشباب وآماله ، وتاقت إلى حماقاته ، وتشبثت بقية الصبا ودلاله .

وخلع عم محمد أبو السعد السروال المغربى الفضفاض ، والعمامة ذات الزر الأخضر ، واستبدل بهما السروال الأوربي الأنيق ، والطربوش الفاقع اللون ذا الزر الأسود . وأصبح جديراً بيد فاطمة هانم رفعت .

وقد أثارت غزوة عبد المنعم الموفقة لدار أسرة سامى عاصفة فى طابقيها العلوى والسفلى تخللتها الزفرات والعبرات . فبكت زكية على ماضاع من حصانة أختها ، ومن سمعة الأسرة . وذكرت سنية أباها المسكين الراحل فبكت عليه . وارتفع عويل فاطمة حسرة على حظها العاثر الذى صرف قلوب أفراد أسرتها عنها ، فلم يعد أحد من أقرب الناس إليها يهتم بها ويشفق عليها . . وبكى قلب سامى غما وغيظاً لانتصار خصمه البغيض ، وحسرة على أمله الضائع . . ولكن قلبه هدأ الآن ، فلم يعد للماضى ، بعد حديثه مع نبيه ، تلك الأهمية التى كانت له من قبل .

الفصل الخامس

استحوذ الضيق والقلق والسخط على فاطمة طوال هذا اليوم الذى بدأت فيه حوادث قصتنا . فهو يوم منحوس كما تقول . يكاد شؤمه يفقدها زوجها وابنتها معاً ، ويقضى على هناءتها الزوجية والمنزلية ؛ فقد اقترح عليها زوجها منذ يومين الخروج مع ولديهما فى نزهة نيلية إلى القناطر . وارتجف قلبها اضطراباً ولهفة ، فهي لم تعرف من الدنيا الواسعة غير

بينها والأماكن المحيطة به . . لم تركب في حياتها قاربا . بل لم تر عينيها لم تقعا قط على نهر النيل العجيب ! فشاقها المجهول الغريب وأخافها.

ولكن فرحتها ولهفتها لم تطولا ، فقد أثار الاقتراح مشكلة شغلت بالها . إذ رفضت ابنتها دعوة الداعي في إصرار .. وأصر زوجها كذلك على استصحاب الفتاة نزولا على رغبة ابنه عبد المنعم ، واتهم زوجته بالضعف والعجز في سياسة ابنتها . فعليها هي أيضا أن تنزل على رغبته ورغبة عبد المنعم . وعبثا حاولت أن تثنى ابنتها عن عزمها ، واحتد بينهما النقاش ، واتهمت الأم ابنتها بالعناد والعصيان ، ونسبت الابنة إليها الاستسلام لإرادة زوجها دون الاهتمام بشعور أقرب الناس إليها . وتعالى عويل الأم وانحدرت دموع الابنة . . . .

جلست فاطمة عصر ذلك اليوم في الردهة إلى جانب باب البيت . وبدا عليها أنها ترقب أمراً تتوقع حدوثه وسمعت وقع أقدام تنزل في الدرج من الطابق العلوى ، وأسرعت إلى الباب تفتحه لتستقبل ابن أختها سامي.

وكان سامي لا يزور خالته في الأيام الأخيرة إلا زيارات قصيرة متباعدة . ولكنه اعتزم في ذلك اليوم بالذات ، بعد أن اطمأنت نفسه ، أن ينزل إليها . . وجذبته من يده ، وسارت به إلى غرفتها الخاصة . وقالت متنهدة :

— ابنتي ! . . يا خيبة أملي فيها ! . . . لم تعد تطيعني . . . لم ينلني منها إلا الشقاء . . أرجو أن تعينني عليها .

— أنا ! . .

— نعم أنت . فهي لا تتأثر إلا برأيك . . . ولا تطيع غيرك .

— أنت تتوهمين . .

وتلاحق تنهدها .

— لاتخذلني . لم يعد أحد يهتم بي . أنا في نار . وأنا أحترق بها يالمطلي العاثر ! ! . ياحسرتي على ولد يثلج صدري ، ويسليني على متاعبها . لم حرمتني الولد ياربي ورزقتني هذه الابنة العاقة ! . . هذه الابنة التي نغصت على حياتي ! !

— ماذا جرى ياخالتي ؟ ! . . ماذا حصل ؟

— سنخرج في نزهة الى القناطر نزهة اقترحها محمد بك . . لماذا لاتخرج معنا ؟ ستكون نزهة ممتعة . . ولكن هذه الفتاة العنيدة ترفض إجابة الدعوة . . . دعوة محمد بك . . .

— وأى ضير في ذلك ؟

— أى ضير ! ! هذا ما توقعته ، فأنت تمالئها . . . أنت لا تختلف عن الآخرين . ليس هناك من يهتم بأمرى .

— لماذا لاتهدئي ياخالتي . . .

— أهدأ ! . وكيف أهدأ ؟ . . فهذه ابنتي تتحداني ، وتتحدى زوجي ، وتستثيره على . وأنت تنحاز اليها . أنت الذى اتخذته ولداً بعد أن حرمني ربي الولد .

— أسيذهب عبد المنعم معكم ؟ . . .

— طبعاً . . . أليس عبد المنعم ابنه ؟ . . وأى ضير في ذلك؟ سنذهب جميعاً وستكون أنت معنا ، أليس كذلك ؟ .

وأطرق قليلا ، ثم رفع عينيه الى خالته ، فرأى القلق يفترسها ، فغلبه الاشفاق .

— سأحاول إقناعها ياخالتي .

وزال ارتباكها في سرعة غير متوقعة ، وغمرها الارتياح . وقامت الى

سامى تقبله .

— أشكرك يابنى ؛ لقد أنقذتنى . فهى لاتخالف لك رأياً . تعال إلى غرفة الاستقبال . . سنية ؟ أين أنت ؟ تعالى ، فهذا سامى يسأل عنك .

ولكن ابنتها لم تحضر ، فالتفتت الى سامى وقالت مبتسمة :

— اذهب اليها وأحضرها ، فهى لاترفض لك طلباً .

وتردد قليلا فى مقعده ، ثم قام متمهلا ، وما كاد يخرج من الغرفة حتى جرت الهانم الى الباب متجسسة ، وأطلت برأسها إلى الردهة متلصصة . ورأته ينقر على باب غرفة ابنتها ، ثم يتوارى داخلها . وسمعت صوتهما ، وأرهفت أذنيها ، ولكنها لم تتبين الحديث الدائر بينهما ، وخافت أن تتشبث ابنتها بعنادها ، وتولاها القلق . ولكن عناءها لم يطل إذ جرت عائدة الى مقعدها . . فقد سمعت وقع أقدامهما . .

وقال سامى وهما مقبلان عليها :

— لم تكن سنية تقصد إيلامك . ولم تدرك مقدار الضيق الذى سببته لك .

وحاولت سنية الكلام ، ولكن أمها جرت اليها متهللة ، وعانقتها وقبلتها وقالت متهدجة الصوت .

— كنت أعلم أنك ستحققين رغبتى . كنت أعلم أن ابنتى لن تخذلنى . وهل لى أحد فى الدنيا غيرك يا بنيتى ؟ ؟ . .

وأخذت تمسح دموعها بأناملها . ولكن وجه سنية ظل جامداً لا يبدو عليه التأثر . . . وقالت الفتاة بعد أن استقر كل فى مقعده .

— ما فائدة كل هذا ؟ مافائدة محاولاتهم ومناوراتهم ؟ . . أنت تعلمين أن لا فائدة من كل هذا . . .

وتوزعت نظرات فاطمة بين ابنتها وابن أختها .

— أية محاولات ومنازعات ومناورات ! ! . . ما أقساك ياسنية ! ! .

وتحدرت دموعها من جديد وهى تستطرد .

— ياخيبة أملى فيك ! ياطول شقوتى بك لم يارب قضيت على بهذا العذاب؟ أرى الأمهات يسعدن جميعهن بأولادهن ، ولم يكتب الشقاء الا على وحدى .

ورأى سامى أن الشقاء كتب عليه هو بوقوعه فى هذا المأزق .

وقال متململا :

— علام الشكوى ياخالتى وقد أجابتك سنية الى طلبك ؟

وتهلل وجه فاطمة من خلال دموعها ، وسألت متلهفة :

— أقبلت الدعوة حقاً يا ابنتى ؟ . لم لاتجيبين ؟ . هاهى ذى تأبى أن تجيب ! . تأبى أن تريحنى . أترى ياسامى ! .. أترى ؟

وحسمت سنية انفعالات أمها بقولها المقتضب :

— سأذهب .

وتنفس سامى الصعداء وعقب .

— لنتحدث الآن عن أمر آخر .. . عن الجو مثلا .

واصطنعت فاطمة الرجفة ، واصطكت أسنانها وقالت :

— أنا أرتجف من البرد كما ترى . . ولكن هناك خبراً هاماً نسيت الإفضاء به اليك . . . أنا أيضاً أهتم بك كما تهتم بى . فكثيراً ما ألححت على عبد المنعم أن يعنى بأمرك . وقد أخبرنى أخيراً أنه ذكرك عند المفتش الانجليزى

وضحك سامى ضحكة جافة وقال :

— أشكرك ياخالتى وأشكره .

— لا شكر على واجب يابنى . ليتك تعلم مقدار اهتمامى بك ؟

وعجبت سنية لبلوغ غفلة أمها هذا الحد وقالت .

— ماأسلم نيتك ياأمى ! ! ألا ترين أنه يسخر من قولك ؟

— يسخر ! ! أيسخر من اهتمامى بأمره ؟! إن لك خواطر غريبة فى بعض الأحيان ياسنية !

— إنه يأنف أن يناله خيراً على يد المفتش الانجليزى .

— ومن ذا الذى ينفر من الخير يا بنيتى ؟ الخير من عند الله ، وليس لمخلوق يد فيه . وسامى عاقل يدرك أمور الدنيا على حقيقتها .

— ولكنك لا تدركين هذه الأمور ياأمى فالمفتش الانجليزى عدو لنا .

— عدو لنا ؟ ! من قال لك هذا ؟ عبد المنعم يؤكد أنه رجل طيب ، وأنه صديقه .

— متى تدركين أن لعبد المنعم رأيه الخاص الذى يخالفه فيه الناس ؟ إن المفتش الانجلىزى عدو المصريين ياأمى .

— سامى ليس غرا مثلك ، ولا يشاطرك رأيك . أليس كذلك ياسامى ؟ ألم ينقلك المفتش الانجليزى من عملك الشاق فى وزارة الأشغال إلى وظيفتك الجديدة ؟ أهذا تصرف عدو ؟ . . .

ولاحظت سنية أكفهرار وجه سامى ، فأجابت محتدة .

— سامى لم يسأل المفتش الانجليزى شيئاً ، ولكن عبد المنعم هو الذى تبرع بالوساطة فالمسألة ليست إلا تبادل منافع ومصالح .

كلامك غير مفهوم . . أنت تكررين عبارات غريبة ! ! . . تبادل مصالح ؟ ! أية مصالح ؟ ! أكان نقل سامى فى مصلحة عبد المنعم أم فى مصلحتنا نحن ؟ ! .

قلت إنك لا تدركين هذه الأمور . فعبد المنعم لا يسعى إلا الى غرض . إذ لو كان يهتم بأمر خالتى حقاً ، فلماذا لم يتم جميله ويلحق كامل بمكتبه أيضاً ؟ ؟ .

وانفرجت شفتا فاطمة دهشة ، وحولت نظرتها الى سامى .

— وأى فرق بين كامل وسامى ؟ ! أنا لا أفهم قصدك ؟ ! لم أعد أفهم أفكاركم ومراميكم يا أولاد اليوم ! !

وقطع جرس الباب الحديث . وأردفت فاطمة :

— لابد أن يكون القادم عبد المنعم .

ووقف سامى استعدادا للانصراف . فتغير لون سنية ، ونظرت إليه مستعطفة .

— هلا بقيت قليلا ؟

وخضع سامى لنظراتها الحزينة . كان يشعر منذ دار الحديث عنه بالحرج الشديد ، ولكن انحياز سنية إليه ، وترديدها العبارات التى سمعتها منه ، أخذ يسرى عنه . واستطاب الجلسة حتى صك أذنيه اسم عبد المنعم . عبد المنعم الثقيل الظل . فنوى التخلص من مجلسه المملول . ولكنه أذعن للعينين الحزينتين . . أذعن لعاطفته التى يحاول اليوم ألا يعترف بها . .

على أن حدس فاطمة لم يصدق . فلم يكن القادم عبد المنعم ، بل كان غطين حسين الذى وقف على العتبة أمامهم كما يقف الممثل على المسرح . كان ممثلا فعلا ، وشرع يؤدى دوره الذى كثيراً ما كرره لهم . . حياهم بلهجة بدوية . ثم أعاد تحياته بلهجة شامية فتركية . . . وتوارى خلف الباب ثم أقبل يمثل دور الشيخ الهرم ، فضغط طربوشه حتى غطى

أذنيه ، وانحنى ومشى يدب على عصاه مرتعشاً ، وجعل يرفع لحظيه وهو منحن ويدور بهما فى الحاضرين . ثم نصب قامته فجأة وجرى خلف الباب ، وعاد يمثل كبار رؤسائه فى المصلحة . رفع رأسه وجعل يهزه فى اعتداد ، ويمشي فى تؤدة ووقار ، ويلقى الأوامر فى صوت غليظ رنان . . . ثم توارى وعاد يقلد محمد بك ، واتجه إلى فاطمة يمشي مشيته ، ويقلد صوته ، ويحتذى أسلوبه . وكانت فاطمة طوال قيام فطين بتمثيله تضج بالضحك ، وتقهقه مترامية ، فى خفة الشباب ، ذات اليمين وذات الشمال . . . وجلست ابنتها فى وقار السيدات ، ترمق أمها العابثة فى غير ارتياح . أما سامى فقد قابل مايدور حوله بفتور .

وجلس فطين إلى جوار فاطمة فى مقعد وثير ، وقال لها وهو لايزال يقلد زوجها ، ويرفع أثناء الكلام حاجبيه مثله .

— ماشاء الله ! ! أنت تزدادين كل يوم سمنة ونضارة .

وكانت تزداد بالفعل وفرة منذ الزواج ، ولكن النضارة زايلتها من زمن . واهتزت لهذا الإطراء ، وتوردت وجنتاها . وقالت فى دلال :

— أف لك من مهذار ! . . ولكن اسمع . . سنخرج فى رحلة إلى القناطر . . . مع الأولاد .

— أى أولاد ؟ . . آه ! ! أتقصدين عبد المنعم وسنية ؟ . . ولكن كيف تقبلان الخروج إلى مثل هذه النزهة ؟ ! . .

— وما عيبها ؟

— التقاليد . . . أنسيت التقاليد ؟ . .

— قال عبد المنعم عنها إنها عتيقة بالية ، وآن لنا أن نقلع عنها . . . ستكون نزهة شيقة . . . لم لا تأتى معنا ؟ . . قال عبد المنعم إننا سنقضي

يوما ممتعا .

وقفز فطين كالقرد، وجعل يضرب ركبتيه بكفيه ويقول :

— الشباب ... الشباب ! .. عبد المنعم أفندى يريد أن يزه نفسه ... يريد أن يمتع قلبه ... الماء والخضرة والوجه الـ ... ح ... ح .. حسن.

وقامت سنية نافرة غاضبة ، واتجهت الى باب الغرفة . فجرى فطين وراءها وثباً . وأمسك بها من معصمها ، وسألها غامزاً بعينيه .

— لماذا تغضبين ؟ من أدراك أنها « سكين » ؟

وتملصت من قبضته مدمدمة بغلظة :

— دعنى ... أنا لا أحب هذرك ... دعنى .

وتراجع الماجن مأخوذاً .

— أغضبت ؟ ! أنا والله لم أقصد إلا إبهاجك ، فلا تؤاخذينى . أرجوك .

والتقت عينا سنية بعينى سامى ، فعادت صامتة إلى كرسيها ، وتطلعت من وراء زجاج النافذة إلى الشمس الغاربة وسط السحب الموردة الحواشى . ونظرت فاطمة إلى فطين المأخوذ ، باشفاق وقالت :

— دعها ياسى فطين ، فهى لاتحب غير النكد ... كيف حال زوجتك نظلة هانم ، وأولادك المحروسين ؟

وأجاب بغير مبالاة :

— نظلة لاتكف كعادتها عن الشكوى والتأوه والتوجع . فهى تشكو الصداع مرة ، وآلام المفاصل مرة أخرى ، ومغص الكلى مرة ثالثة ... ولكن الكارثة هى كارثة ابنتى عزيزة ، فقد أصيبت أمس باغماء ، وقال الطبيب بعد فحصها إنها مصابة بلغط فى القلب .

وشهقت فاطمة :

مسكينة ! ! . كم عمرها الآن ؟

خمس سنوات... ماعلينا ... لقد جئت إليك اليوم فى أمر يشغل بالى ... فأنت قبلتنا جميعاً ... أنت كبيرة الأسرة ...

فقاطعته شاهقة :

أنا ؟ ! .. من قال هـــذا ؟ . . أبداً والله فأختى زكية تكبرنى بخمس سنوات .

واختلست نظرة إلى سامي ، ثم أغضت بطرفها . واســتدرك فطين مبتسما .

،أنا أقصد المقام ، فأنت أكبرنا مقاماً ... جئت أطلب معروفاً .. فكلمة واحدة منك إلى عبد المنعم تنجدنى وتنصرنى .

أية كلمة ؟

أنا أستحق الترقية فى المصلحة، ولكن هناك مزاحمين . . كثيرين .

ونظرت فاطمة إلى كل من سامى وسنية ، وتساءلت مبتسمة :

وما شأن عبد المنعم بمصلحة السكك الحديدية ؟ ...

كلمة منك إليه، وكلمة منه إلى مستر بيكر ....

وأعادت النظر إلى ابنتها وابن أخيها، وهى لاتزال تبتسم فى خبث البلهاء .

ثم ماذا ؟

ثم تستقيم الأمور ...

ولكن ... كم الساعة الآن ؟ لقد تأخر عبد المنعم .

وقال فطين :

— أهو آت الآن ؟ هذا من حسن حظي .

وأخرج ساعة ذهبية ، فتح غلافها ، ونظر فيها وأردف :

— الساعة الخامسة تماما .

والتفتت فاطمة إلى ابنتها قائلة :

— ألا ترين الظلام يزحف بسرعة ؟ ألا بد أن أطلب إليك إضاءة النور ؟ ألا تصنعين شيئا من تلقاء نفسك أبداً ؟ ! . .

وظهر بصيص من النور في الردهة قبل أن تتحرك من مقعدها ، وأقبلت الطاهية تحمل مصباح الغاز .

الفصل السادس

دخل عبد المنعم عليهم الغرفة في تؤدة ، وقد تكلف الوقار الذى لم يكن يلائم قامه القصيرة ، وجسمه المكتنز غير المتناسق ، ومشيته المضحكة . أقبل يجدف بيديه ، ويلوي كتفيه إلى الوراء كأنه يدفع بهما الهواء ، وتعوج قدماه منفرجة مثل قدمي شارلى شابلن . . . ولكنه حاول أن يتلطف فابتسم للحاضرين ابتسام المتفضل ، وأحنى رأسه فى تواضع العارف بقدره . وجرى إليه فطين يحييه ، فمد له يده دون أن ينظر إليه سامي . رآه يسبق فطين إلى المقعد الوثير فيحتله ، ويجلس فيه واضعاً ساقا علي ساق . وسمع أنفاسه الثقيلة ، فضاق صدره وصعب تنفسه . وتوقع أن يشير إلى مشادة الصباح ويمثل دور المعتدي عليه ولكن عبد المنعم قال مبتسما :

— أنا لم أقصد إحراجك هذا الصباح ياسامي ؛ ولكنك أخطأت فى حق .

وسألته فاطمة منزعجة :

— أخطأ فى حقك ؟ . . سامي ؟ . . ماذا قال ؟

— اسأليه . . .

ورفعت سنية عينيها المبتسمتين إلى سامي فأشرق نورهما فى أعماقه. والتفت إلى عبد المنعم وقال مستخفاً .

— ألم تـكن البادىء ؟ . . وهل قلت لك غير الواقع ؟ . .

وصاحت فاطمة :

— ماذا جري بينكما؟ ألسنا بنى آدم كغيرنا ؟ . ألا يحق لنا أن نعلم ؟

وجال عبد المنعم ببصره فيمن حوله ، وقال متحرجاً :

— عرض بصلتى الودية بمستر بيـكر .

— وصاحت فاطمة من جديد المفتش الانجليزى ؟ ! . ما به ؟ . . ماخطبه ؟ . . أهو يسىء إليك ياسامي ؟ . .

وحدجت سنية أمها بنظرها .

— أرجوك يا أمي . . .

— ماذا ؟ . . ألا يحق لى أن أسأل ؟ . . وأن أعرف ؟ . . أأنا أقل شأنا من غيري ؟ ! . . ماذا حدث ياسامى ؟ . .

ولم يتحول نظرسنية المتلهف عن سامى ، فود لوأفاض فى القول ، وفضح سر الصلة بين الاثنين . ود لوصارحه بدخيلة نفسه بدل مداراتها بالكلام المنمق . ود لو تحدث عن ضربه الساعي هذا الصباح . . . ولـكن ما جدوي الخوض فى كل هذا ؟ . . وكبح جماحه وقال .

— أنا لم أتجن علي أحـد ياخالتى . . . ولـكنى قررت الواقع . قلت إن عبد المنعم مدين بمركزه وسلطانه فى الوزارة للمفتش الانجليزى

فهل أنا مخطىء ؟؟ !

— أبداً . . . وعبد المنعم معترف بهذا ، ولا يكف عن التفاخر به فلا ينكر الفضل إلا اللئيم . . .

وعقب فطين فى حماسة .

— إن فضل مستر بيكر غمرنا جميعاً .

وشاهد سامى على ضوء المصباح الغازي احمرار أذنى عبد المنعم الكبيرتين ، ولاحظ رجفة صوته وهو يخاطبه .

— أليس هذا عيبنا نحن المصريين ؟ ؟ .. إننا غير واقعيين . . .فلا نقر بالأمر الواقع . ألم يصبح الانجليز حكامنا ، ولم نعد نملك إلا أن نطيعهم ؟ . .

ووجد سامى نفسه منساقا إلى الحديث الذى أراد أن يتحاشاه .

ألسنا نحن الذين نعاونهم على حكمنا ؟ . . . .

— أترى أن نقاومهم ؟ . . وبم ؟ .. لقد قاومهم جيشنا فكانت الكارثة المشئومة . . . أتريد تكرار مأساة عرابى ؟ . . .

ولم ينفعل سامى كعادته ، ولكنه أجاب فى حزم :

— نقاومهم بعدم التعاون معهم .

— وكيف ؟ ! . . ألم يسارع سراتنا وكبراؤنا إلى إعلان خضوعهم وطاعتهم ؟ . . فماذا تجدي مقاومة مثلى ومثلك ؟ . . .

وأضاف متهكماً .

— ومثل فطين ؟ ! . .

وكان فطين يتابع الحديث محملقاً . وتحين الفرصة فقال متخذاً سيماء الجد .

— نحن موظفى السكك الحديدية لم نخضع ونستسلم لأول وهلة .. فقد عقدنا العزم على المقاومة . وأشرت على إخوانى فى اجتماع سرى أن نحتج على استئثار الأنجليز بمناصب المصلحة الرئيسية . . وذهبنا بعريضة الاحتجاج إلى المدير نفسه . . ولكن نظرة واحدة من عينيه الزرقاوين أسقطت قلوبنا فى أرجلنا .. ماذا كنا نستطيع ؟.

وتطلع سامى اليه بامتعاض . وأجاب على تساؤل عبد المنعم دون أن يعير قول ذلك الماجن اهتماما .

— أرضيت عن خضوع أولئك السراة والأكابر ؟ . . ألم تشمئز أول الأمر من مسلكهم ؟ فلماذا سرت بعد ذلك فى طريقهم ؟ ؟ لماذا لم تبق إلى جانب الساخطين ؟ . . إلى جانب الأغلبية ؟ . . .

— أية أغلبية ! إنى أرى الجميع يتهالكون على السادة الجدد . إن الدنيا مصالح ومغانم . . فلا تكن ساذجا . . . لا تتخلف عن الركب فتندم . ونظر سامى إلى خالته . وقال مبتسماً :

— الدنيا مصالح ومغانم . . هذا صحيح . ولكن نظرتى اليها تختلف عن نظرتك . فأنا أري المصلحة الذاتية لا تتوفر إلا بتوفر مصلحة المجموع . ومصلحتنا جميعاً فى الخلاص من ضيوفنا الثقلاء . . .

وقهقه عبد المنعم !

— هذا إنشاء بليغ نقرأ مثله فى كتب التربية ، ولكن الواقع على نقيضه ، فاننا نري الذين فازوا بثقة الانجليز انفردوا وحدهم بتحقيق مصالحهم ، ونيل مآربهم . . . ثم . . من قال إن المصلحة فى خروج الانجليز ؟ ! . . يجب أن نعترف بالحقائق ، يجب أن نعترف بأنهم أنقذوا البلاد من الفوضى . .. ومن الافلاس . . .

وانزلق عبد المنعم فى القول مدفوعاً بحرارة ، وأبان من دخيلة نفسه ما حرص على كتمانه عن سنية التى لم تخف امتعاضها . وتملكت سامي الحدة فاندفع في السياق :

— أنت تتحدث بلسانهم . . . بلسان السادة الجدد ..، قل لى بالله من الذي أوقعنا فى الفوضى والافلاس ؟ . أليس الانجليز أولى أمرنا ؟ وهل أذعنت مصر للخديوى راضية بمصيرها ؟ . . لا . لقد تصدت لحكامها وقاومتهم . . . قاومتهم . . بحد السيف . . . وأوشكت أن تنتصر عليهم فمن الذي حماهم ؟ . حماهم السادة الجدد . . . حموا اللصوص الذين استدانوا حتى أغرقونا فى الدين ومن الذي شجع اللصوص على الاستدانة ، وحمل السلطان على منحهم حق الاقتراض ؟ . . أليس سادتنا الجدد ؟ ؟ . . لقد مهدوا السبيل لاحتلالنا . . . وزعموا اليوم أنهم جاءوا لينقذونا من الافلاس ، وينقذون فى نفس الوقت عرش من أوقعونا فى الافلاس . . أهناك دعوى أمعن فى التناقض والضلال من هـذه ؟ ؟

ولاحظ عبدالمنعم ابتسامة الانتصار ترتسم على وجه سنية ، فاندفع إلى تأييد رأيه مغيظاً معانداً .

— على رسلك ... لا يحملك بغضك لهم على إنكار فضلهم . . نحن فى أشد الحاجـة إلى أساتذة مثلهم ، فهم أهل دراية فى الاقتصـاد . ولو كنا نجحنا فى غل يد الخديوى ، لما أمكننا أن نوفق توفيقهم فى علاج أزمتنا الاقتصادية .

وأخذ لحظ سنية يتنقل بين عبدالمنعم وسامى ، فقد كانت ترقب الحوار باهتمام وقلق ظاهرين . . . وهز سامي كتفيه وقال :

— أتحسب أنهم عنوا بأزمتنا على أساس صيانة مصالحنا ؟ لا . فهم لم يعنوا إلا بمصلحة اقتصادهم ، وبمصلحة الدائنين الأجانب .

— مالنا ولنياتهم . . .فقد أفدنا من خبرتهم على أية حال . . . ثم إنهم سيجلون عن بلادنا يوم يتم سداد ديوننا وتستقيم أمورنا . . .

وانفرج ثغر سامي عن ابتسامة عريضة .

— يجلون عن بلادنا ! ! ... أتصدق هذه الخرافة ؟ ! .

— كيف لا ! ! . ألم يعلنوا على الملأ عزمهم على الجلاء ، ألم يقسموا على ذلك بالشرف البريطاني ؟ .. فكيف تعقل أن يتراجعوا بعد ذلك ؟؟

لم تكن تفوت سامي قراءة صحيفتي اللواء والمؤيد . وقد وجد بين مخلفات أبيه أعداداً قديمة من مجلتي الأستاذ والعروة الوثقى... كان يلتهم تلك الصحف وبطيل التفكير فيما يقرأ . ولم يخف عليه أن عبد المنعم كان يردد أكاذيب الساسة الانجليز ، تلك المفتريات التي اطلع عليها فيما قرأ ، وألم بالردود عليها . فتمكن من أن يشفي غليله بدحضها ، ويستثير غيظ منافسه وسخطه :

— شرف بريطانيا ! ! ومتى كان لساستها شرف ؟ ألم يقولوا من قبل إنهم لا ينوون احتلال بلادنا ؟ ؟ . . ألم يقسموا على ذلك الشرف البريطاني ؟ ؟ . . أبروا بهذا القسم ؟ ! . أم لعلي أحسب خطأ أنهم يحتلون بلادنا ؟ ! ! . .

— الظروف هي التي تضطرهم أحياناً الى الرجوع عما اعتزموه . وإلا فما الذي يضطرهم الى القسم ؟ ! . .

— حاجتهم الى تسكين ثائرتنا ، وثائرة أحرارهم ، وشعوب أوربا .

— أتظنهم قصار النظر الى هذا الحد ؟ فكيف تكون الحال إذا نكلوا

عن قسمهم ؟ ؟ كيف يصبح موقفهم فى نظر الأحرار الذين نتحدث عنهم ؟ . . .

— نحن وحدنا قصار النظر . . . فهم لم يقصدوا بوعودهم إلا اكتساب الوقت . . لم يقصدوا إلا الفوز بهدنة يثبتون فيها أقدامهم، ويدخلون فى روع الدول والشعوب أن بقاءهم بيننا فى مصلحة الجميع . ألا تراهم يذيعون فى تقاريرهم ودعاياتهم أنهم رفعوا عنا الحيف ، ووطدوا أركان العدل ، وأنقذونا من غائلة المرض والفقر ، وزودونا بالثقافة الغربية ، فحمدنا لهم مساعيهم الجليلة ، ووددنا أن تطول إقامتهم بيننا ؟ ؟ . . . أليس القصد من نشر هذه الأكاذيب تهدئة خواطر الأحرار داخل جزيرتهم وخارجها ؟ ؟ . . . ثم ألا تراهم يشلون تقدمنا الاقتصادى بتحويل القسط الأكبر من إيراداتنا إلى صندوق الدين ، وباغراق أسواقنا بالبضائع الأوربية التى بارت بها صناعتنا . لينتشر العجز والعوز والتواكل بيننا فلا نستطيع الفكاك منهم ؟ ؟ . ثم ألا ترى مسعاهم الأكبر ينصرف إلى إرضاء الحكومات الأوربية التى لا تحبذ بقاءهم فى ربوعنا ؟ ألا تراهم يولون ديون رعاياها أكبر قسط من رعايتهم ؟ ألم يضعوا مصالح أولئك الأجانب فوق مصالح أهل البلاد ؟ ألم يحرصوا على الانحياز اليهم بالحق وبالباطل ؟ ؟ . . ثم ألم يسكتوا المعارضة فى بلادهم بتوسيع رقعة أراضينا المنزرعة قطناً ، وغمر بلادهم بذلك المحصول الثمين ، وإعداد مصانعهم لغزل تيلته الطويلة ؟ ؟ . . ألا تدل هـذه التصرفات وغيرها على انعقاد عزمهم على البقاء ؟ ؟ . . أليست نيتهم واضحة مكشوفة لا يجهلها غيرنا نحن المخدوعين ؟ ! . . والعجيب أننا لا نكتفى بتصديق أكاذيبهم ، ولكن يتبرع بيننا

المخدوعون بترويجها وتثبيتها فى أذهان الناس ! ! . .

وكان صوت سامى يتهدج تهدجاً ظاهرا وهو يلقى عباراته الأخيرة.

فالتفتت إليه فاطمة دهشة ، وقالت :

— علام هذه الثورة وهذا الانفعال ؟ ! . . . أية فائدة ترجى من هذا العناء ؟ ! . . . أتحسبون أن الانجليز يسمعون ماتقولونه هنا عنهم ؟.. والله سيذهب تعبكم أدراج الرياح . . . فماذا يفيد صياح الصائح فى الظلام . . . أو فى جوف الصحراء .

وضحك عبد المنعم . . وقال سامى :

— صدقت والله . . . فنحن نصيح فى جوف الصحراء . . .

ونظرت سنية إلى أمها شزراً وقالت :

— أمى ! ! . . لماذا تزجين بنفسك فى هذه الأمور ؟ ؟ . .

— ولم لا أتكلم كغيرى ؟ . . . ألست كسائر الناس ؟ ! . . أم ترينى أقل منهم شأناً ؟ ! . .

دخل الخادم فى هذه الأثناء يحمل أقداح القهوة . وكان فتى فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، يرتدي الملابس الأفرنجيـة ، التحق بخدمة المنزل عقب زواج محمد أبو السعد . واعتاد عبد المنعم أن يسخر منه كلما رآه . وقال له بعد تناول أقداح القهوة :

— ما رأيك فى الحالة السياسية يا أحمد ؟ ! .

— على مايرام . لقد ذهبنا أمس إلى دار زعيمنا مصطفى كامل وطلبنا اليه أن يصرف نظره عن فرنسا ، فهي لا تختلف عن انجلترا ، ولا عن الدول الأجنبية الأخرى . . . قلنا له ألا يعتمـد إلا على السلطان ، فهو وحده الذى يستطيع أن ينقذنا . . . نصر الله السلطان . . .

وعساكر السلطان

وسأله عبد المنعم وهو يضحك .

— وماذا قال لك مصطفى كامل ؟ ؟.

— أيستطيع أن يخالف لنا رأياً ؟ ؟ نحن نوجهه وهو لا يستطيع الخروج على رأى الشعب . أتضحك ؟ . إن كنت لا تصدقنى فانظر ،

وبحث في جيبه ، وأخرج صورة فوتوغرافية قدمها إلى عبد المنعم .

— انظر إلى الجموع التى احتشـــدت فى دار الزعيم . ها أنذا أقف خلفه. لقد طلب إلىّ أن أقف إلى جواره أثناء التقاط الصورة .

وأعاد عبد المنعم إليه الصورة بعـد أن ألقى عليها نظرة عابرة ، فوضعها في جيبه وقال :

— لن يتأخر السلطان عن نصرتنا . .

وفاجأه عبد المنعم بقوله فى غطرسة ، مشيراً إلى حذائه .

— يا حضرة السياسى ، اعقد لى رباط حذائى .

وسقط المسكين من عليائه ، وانـكفأ على الرباط المحلول يعقده . وقام فجمع أقداح القهوة الفارغة ، وخرج بها مسرعاً . ولم يطق سامي هذه الدعابة ، فقام مستأذناً فى الانصراف . وأرادت خالته أن تستبقيه قليلا ، وتوسلت سنية بنظراتها ، ولـكنه قال :

— حان ميعاد المدرسة .

وضحك عبد المنعم . وقال فطين :

— مدرسة ؟ ألا تزال تذهب الى المدرسة ؟

— نعم . القسم الليلي من مدرســة المعلمين بدرب الجماميز . فهل فى ذلك غضاضة ؟ .

وأحست سنية أنه ينتزع قلبها بخروجه السريع . أحست أنه صار الليلة أقرب الى قلبها ، وأنها لا تستطيع الحياة بعيدة عنه . وخيل اليها أن النقاء والطهر يزايلان الغرفة بانصرافه ، وأن رجس عبد المنعم ودنسه يملآن الجو ، ويكادان يخنقانهـا ويلوثانها . فلم تطق البقاء ، وقامت من مقعدها لتنصرف . فرشقتها أمها بنظرة قاسية وسألتها :

— إلى أين ؟

— أشعر بصداع .

وأردف فطين متهكماً :

— صداع طوع أمر صاحبه ! . .

وخرجت مترفعة عن النظر اليه ، وعرف عبد المنعم منـذ تلك اللحظة أنه لن يستطيع أن ينال من مكانة سامي في نفسها ، فصمم على إزاحته من طريقه . صمم على اجلائه عن الميدان .

وقالت له فاطمة وقد تولاها الارتباك .

— كنت أريد أن أحدثك في أمر هام . فما هو يا ربي ! . آه . مسألة فطين ، ، ، قال لي فطين ان له رجاء . . .

وأجاب عبد المنعم ، موجهاً الـــكلام الى فطين ، وقد عاودته غطرسته :

— نعم . . حكاية الدرجة التي سبق أن حدثتني عنها . . لماذا لم تلجأ إلى سامي ؟ لماذا لم تلجأ إلى ذلك الألمعي الفصيح .

قد تعلم فطين في دار المصلحة كيف يجيب على هذه الأسئلة ، فقال:

— أيهتم بسامي من كان في مثل مكانتك ؟ ! إنه غر حدث لايزال يذهب إلى المدرسة !

وأبى عبد المنعم أن يطيل حديثه مع فطين فقال :
— اطمئن يافطين أفندي ، واعتبر مسألتك منتهية .

* * *

وعند عودة سامى إلى الدار فى المساء ، فاجأته سنية وهو يصعد فى الدرج ، بفتح باب مسكنها . فنزل الدرجات الثلاث التى صعد فيها . وجاءها قفزاً ، ورآها وراء الباب ترتجف من البرد فسألها :
— سنية !! . . ماذا حدث ؟ ؟ . .
فأجابت هامسة :
— لم انزعجت ؟ . . لاشىء ... ولكن لى رجاء .
— ماهو ؟ . .
— أن تأتي معنا إلى القناطر . . .
ولكنك تعلمين . . !
— نعم أعلم . . . أنا كذلك لاأطيقه ، بل أكرهه أكثر مما تكرهه : فهلا عاونتني على احتماله ! . . أتعدني ؟ .
ونفذت نظراتها المتوسلة إلى أعماقه . واعتصرت قلبه ، وأجاب وهو يتناول يدها ويضغطها :
— أعدك . . .

الفصل السابع

ما كاد محمد أبو السعد ينصرف فى صباح اليوم التالى إلى محل تجارته حتى فتحت سنية باب المنزل فى هدوء ، وصعدت على مهل إلى مسكن خالتها غير مبالية باعتراض أمها التى كثيراً ما عيرتها بالتهالك

على من لا يهتم بها ، والالحاح بالزيارة على من لا يود زيارتها .

وجدت خالتها في الغرفة الواقعة إلى يسار الداخل ، المطلة على فناء البيت . وجدتها جالسة على الأرض فوق حشية عريضة ، مسندة ظهرها إلى مقعد ، وأمامها موقد مشتعل عليه بلبلة القهوة . فتقدمت كالشبح ، وجلست صامتة إلى جواها .

وتناولت زكية البلبلة ، وصبت القهوة فى قدح صغير ، ورشفت منه رشفتين . ثم وضعته أمامها ، وتحول نظرها الحزين إلى ابنة أختها وغمغمت

— ما هذا الشحوب ؟ ! ، مابك يا بنيتى ؟ !

— أنا خائفة ياخالتى .

وكان صوت زكية منخفضاً غائراً خارجاً من أعماقها .

— ماذا دها أختى ! ! ألم تكونى أعز الناس عليها ؟ ! أأنساها هذا الرجل حتى ابنتها ؟ ! أسيطر على مشاعرها إلى هذا الحد ؟ !

— لم أنم ليلة أمس . . . لم تغفل عينى إلا بعد بزوغ الفجر .

— هو أيضاً لا يكاد ينام . . . هو أيضاً شاحب اللون . . . لم تكن أختى قاسية القلب . . . أى تأثير لهذا الرجل عليها ؟ ! . .

وتنهدت ، وساد الصمت من جديد . وأنست سنية بقرب خالتها . كان الحزن والألم يجمع بينهما . بل كانت تربط إحداهما بالأخرى رابطة أقوى من الحزن والألم ، كان سامى الحبيب يؤلف بين قلبيهما . وأخذت سنية تفكر فيه . . . تفكر فى الماضى القريب ، وفى الأمانى التى ازدهرت حينا ثم لم تلبث أن جفت وذوت . وعادت بها الذاكرة الى الأيام التى شعرت أثناءها بدبيب الحب يدب فى أوصالها .

كانت تطل من منور الدار ، وترفع رأسها وتناديه ، وترقب قدومه مشوقة متعجلة ، ويرقص قلبها على وقع أقدامه وهو يهبط اليها الدرج وتنهش صدرها اللوعة حين يقبل عليها غافلا عما تعانيه ، لاهيا بمشاغله المهينة . . . ثم أخذت الحياة تبسم لها ، ومرت بها ساعات هنيئة كانت تقضيها إلى جانبه . . . تحت شجرة التوت . . . فى ليـــالى الصيف المقمرة ... بزغت فى نفسها بشائر الأمل ، هناك فى هذا المكان الحبيب ، حين لحظت لأول مرة دلائل اهتمامه بهـا ، ونمو ذلك الاهتمام ، وتحوله إلى تعلق ظاهر . . . ثم ذكرت نظرات الشغف التي كان يغمرها بها . . . ذكرت أول مرة تناول يدها ، ووشج أصابعه فى أصابعها ، فسرت رجفة عذبة فى جسمها أذهلتها عما حولهـا ، وكادت تذهب وشدها . . . وحل اليوم المرتقب . . . . . اليوم الذي لا معدى عنه . يوم تلقت أذنها أعذب كلمة فى الوجود ، إذ مال عليها وقبلها وهمس :
— أحبك . . .

طفق يحدثها يومذاك عن المستقبل . . . مستقبلهما الباسم ، ويبنى صرح الآمال المشرقة . كان لحديثه فى أذنها وقع أعذب الألحان ، ودبت الحياة متلألئة فاتنة فيما حولها . . . فى شجرة التوت . . وفى الحوض المجاور . . . حوض الزهر العاطر . . . لم تكن تفيق فى تلك الليالى من نشوة عاطفتهـا إلا على صوت أمها التي كانت تطل من النافذة وتنادى منهكمة .
— أتنوين المبيت تحت الشجرة ؟ ! أأرسل لك وسادة وغطاء ؟ ! !
— سأصعد حالا يا أمى .

ولكن عذوبة الحديث وسحر المكان سرعان ما كانا ينسيانها وعدها .. ينسيانها أمها وبيتها والوجود بأسره ، فتستغرق فى النشوة

التي لاتفيق منها إلا حين يتعالى نداء أمها من جديد . . . .

أما اليوم فقد خيمت الوحشة على المكان الحبيب . . . فهاهى ذي الشجرة يابسة لاحياة فيها ، والحوض عاطل من الزهر العاطر ، والسماء خالية من القمر الباهر . . . وهاهى ذي روحها الولهي تذبل ذبول مغني هواها ...

وانتبهت من تأملاتها الحزينة على صوت خالتها الرقيق .

— علينا أن نصبر يا بنيتي . . . ونترقب ما يخبئه الغد .

وجال الذعر في عيني سنية .

— الغد ! ! كم أخاف الغد . . . خالتي ! . . رأيت في غفوتي عند الفجر حلما مزعجاً ...

— خيراً يابنيتي ! . .

— رأيت أني أسبح في نهر عريض زاخر . . وهو يسبح إلى جانبي . كنا فرحين سعيدين ، وخيل إلى أننا نسبح في الهواء . ثم طغى العباب ، واشتد جريانه ، وتحول إلى تيار جارف . ولكني افتقدته فجأة . . . تلفت حولي فلم أجده الى جانبي . ثم رأيته يسبح من بعيد ، ويجاهد في سبيل اللحاق بي ، ويناشدني أن أتريث . . . ولكن دوامة هائلة كانت تجذبني . . . وظلت تجذبني . . ورأيته يكافح العباب في يأس والدوامة تجرفني . وسمعت صرخة مفزعة . .. سمعت صرخته اليائسة وظللت أسمعها وأنا أنحدر إلى القاع ...

وارتجف قدح القهوة في يد زكيـــة وهى ترفعه إلى شفتيها الذابلتين .

— لا تجزعى يا بنيتي ، فهذه أضغاث أحلام .

وأطرقت سنية واجمة ، وتحدرت دمعة صافية على خدها الأسيل .

وأخذت تتصور العيش فى كنف عبد المنعم ، وهالها أن ترتبط حياتها بحياته ، وأن تقع عينها حين تفتحها كل صباح على وجهه المتورم الأنف ، الغليظ الشفتين ، الخبيث العينين .. وثارت نفسها ، وتعالى الهتاف من أعماقها : مستحيل .. مستحيل ! ... ثم عادت تذكر حوار أمس ، والشر الذي كان يتوقد في عيني ذلك الغادر وهو يسدد نظراته إلى سامي . فأمسكت بيد خالتها ... وكانت يداها باردتين كالثلج ... وغمغمت مرتجفة :

— أنا خائفة ... أخاف عليه أذي عبد المنعم !

— لا تخافي يا بنيتي .. . الله موجود ... الله معه .

ولكنها لم تطمئن كعادتها إلى قول خالتها ... ظنت أن العناية لم تعد تلحظها ... لم تعد تلحظهما .. فأين اطمئنانها القديم إلى مستقبلهما ؟ ، أين ثقتها في حبهما ؟ ، كانت تحسب حبهما أقوي من عوائق الوجود كافة ، فلا قوة تستطيع الوقوف في طريقه ... ولكن حادثاً وقع عرضاً ... نعم عرضاً ... فالمصادفة فى نظرها هى التى قادت محمد أبو السعد إلى دارها ... المصادفة المنكودة التي غيرت مجري حياتها ... فتعقدت الأمور ، وظهر عبد المنعم الكريه .. ونصبت حولها الشباك التي لم تستطع الفكاك منها .

وتحول لحظها اليائس إلى خالتها وسألتها .

— أمن حيلة يا خالتي ؟ ! .. أمن سبيل للخلاص ؟ !

— وكيف السبيل يا بنيتي ؟ .. إنها لا تخرج عن طاعته ... وأنت لا تملكين إلا طاعتها .

وتحدرت الدموع الغزار على وجنتي سنية . وأطرقت هي وخالتها ، ولم يفيقا من تأملاتهما إلا بدخول أحمد ، خادم فاطمة ، فقد جاء يستدعى سنية . وما قفل راجعاً حتي ارتمت الفتاة على عنق خالتها وصاحت :

— لا . . . لا أريد النزول . . . أود أن أبقى معك ياخالتي .

وابتسمت السيدة المشفقة ابتسامة مريرة :

— عودي إليها يا بنيتي ، فأنت لا تملكين غير طاعتها .

* * *

كان سامى في هذه الأثناء يعانى كذلك حرجاً شديداً ، فقد نفر النوم من عينيه قبل فجر ذلك اليوم . لم يطق البقاء فى فراشه ، ثم لم يطق البقاء فى داره . وخرج إلى الهواء الطلق ، وتجول فى الطرقات حتي أتعبه التجول ، فعرج على دار الوزارة قبل موعد الحضور . وسار في الردهة فرأى الغرف خالية ورأى أبوابها مفتوحة ، والغبار المتصاعد يلمع من خلال النوافذ المضيئة . ودخل غرفة عمله فوجد عم حسين يمسح بخرقته البالية مكتب عبد المنعم ، ويحاول عبثاً تلميع جوانبه المتسخة . فقال يداعبه :

— أتهتم بنظافة مكتبه دون مكاتبنا ؟ . ألا تزال تحابيه ؟! . . .

وتقدم الساعى إلى مكتب سامى ، وأجاب وهو ينفض غباره :

— داروا سفهاءكم . . . ألا يكفى ما نالني منه أمس ؟ . . .

وخاض فى الحديث عن عبد المنعم ، وتناول سيرته من يوم التحاقه بخدمة النظارة . كان يومذاك دمثاً مجاملا متودداً ، تتخلل أحاديثه الفكاهات والملح ، فاستطاع أن يجذب إليه القلوب ، ويفوز

بتقدير الكافة ، وعده القدامي من الموظفين مثالا طيباً للشباب . . . للجيل الجديد . وقلب عم حسين صفحات الماضي، فقال إنه يعمل ساعياً بالنظارة منذ ثلاثين عاماً . . . منذ كان الموظفون ضخام الأجسام ، تخيفه شواربهم الكثة الطويلة ، وحواجبهم البارزة ، ونظراتهم النارية . كانوا يرتدون الصدار الموشي بالقصب ، والسروال المغربي الواسع ، ونطاقاً عريضاً يتدلى سيف ضخم من ناحيته اليسرى ، وتبرز دواة وقلم من الناحية الأخري . . . كانوا غلاظ المنظر لكن رقاق القلوب ، لا يتوانون عن نجدة المستنجد ، والعفو عند المقدرة . فلما جاء عبد المنعم فى ملبسه الأوربى البسيط ، يلاطف الجميع على اختلاف درجاتهم ، استبشر السعاة بعهد أفضل من الماضي ، عهد الشباب ذي المثل الشعبية الانسانية . . . استبشروا إلى أن تبينوا العلاقة التي بدأت تنبت بينه وبين بيكر ، مفتش الداخلية . ولا يعلم أحد كيف نشأت وتطورت . ولكن الذى يعلمونه أن بيكر لم يكن مختصاً بالاشراف على قلم المستخدمين ، بل كان يشرف عليه مدير مصرى . فاستطاع عبد المنعم أن يمكن المفتش الانجليزى من التدخل فى أعمال ذلك القلم ، وظل يوسع دائرة إشرافه حتى لم يعد للمدير المصري إلا رئاسة الشرف ! ! . . .

دخل نبيه الغرفة حينذاك فقطع على عم حسين حديثه ، واتجه إلى صديقه مبتسما راضياً ، وأسر اليه بعد أن خلا بهما المكان :

— سينعقد مجلسنا يوم الجمعة .

— بعد غد ؟ . . .

— نعم .

واكفهر وجه سامى على غير ما توقع نبيه ، وعاد يسأل :

— فى أى وقت ؟

— فى العاشرة صباحاً .

— أين ؟

— فى شبرا . . . ما بك ؟ ! أهناك ما يعوقك ؟ .

— لا . . .

وتذكر وقفة سنية وراء بابها مساء أمس . تذكر وجهها المضطرب ونظراتها المتوسلة ، والوعد الذي قطعه على نفسه . أيرجع فى وعده ؟ أيخذل الفتاة التى وثقت فيه واعتمدت عليه ؟ . . وبرح به الاشفاق . ولـكنه لايستطيع أن يتخلف عن الاجتماع المنتظر . . . الاجتماع الذى طغت أهميته على كل شيء عداها . . . ثم عاد يفكر فى طريقة الاعتذار لسنية . فهو لا يجرؤ على مواجهتها باعتذاره . . . أيتخلف عن موعدها متناسياً ما دار بينهما ؟ . . واستقر رأيه أخيراً ، وقلبه يتفطر أسى ، على أن يكتب إليها معتذراً . . .

الفصل الثامن

حوالى الساعة السابعة من صباح الجمعة المرتقب ، وقفت مركبة كبيرة مقفلة بباب فاطمة . وسمع سامي قعقعة عجلاتها وهى مقبلة ، فهرع إلى النافذة ، ورأى عبد المنعم ينزل منها ، ويسرع إلى باب الدار ، وتنزل وراءه أخته نعمات متعثرة ، وتحاول اللحاق به .

عاود سامى الحنين إلى سنية ، والاشفاق عليها . ووقف ينتظر خروجها ، وتاق إلى رؤية قدها الممشوق وهي تخطر خفيفة رشيقة .

وسمع جلبة بعد فترة غير وجيزة خرج على أثرها عبد المنعم يتقدم أباه، ومشت فاطمة وراءهما ثقيلة الخطا ، وسبقاها إلى الركوب . ثم ظهرت نعمات فتنية . وكانت الأخيرة تحمل فى يمينها سلة كبيرة ، فمالت فى مشيتها إلى جانبها الأيمن ، وحرم سامى فى ذلك اليوم رؤية اعتدالها المعهود ، ورشاقة خطوتها المعتادة . . . ثم كان ما انتظره متلهفا ، فقد رفعت بصرها إليه وهي تضع قدمها على سلم المركبة . . . وتلاقى لحظاهما . . . ثم قفز أحمد ، وهو يحمل سلة أخرى ، إلى جانب السائق. ولم يغادر سامى النافذة حتى توارت العربة عن نظره .

أقبل نبيه قبل الميعاد المضروب ببضع دقائق ، وحين عاد سامى إلى النافذة مترقباً قدومه ، وجده واقفاً فى الطريق . فهبط إليه السلم وثبا ، وتأبط ذراعه ، وسارا جنبا إلى جنب فى اتجاه باب الخلق .

وكانت الدكاكين مغلقة الأبواب عدا المطاعم والمقاهي ، وكادت الشوارع تخلو من المارة . ونسي سامى لانشغال باله بالاجتماع المنتظر أن اليوم عطلة ، وسأل عن سبب السكون المخيم على ذلك الحى الآهل؟ ولكنهما لم يصلا إلى ميدان باب الخلق حتى أخذت بعض النوافذ تتفتح ، وتظهر عليها أغطية المضاجع منشورة . . .

ومرا على دار المحافظة ... كانت هادئة على غير عادتها ، وهي التى اتخذها الانجليز بؤرة تعج بجواسيسهم ، وتحاك فيها مؤامراتهم ثم وقفا يتطلعان إلى دار الكتب ، وابتدر نبيه صاحبه بقوله :

— الكتب . الكتب .. هذه «الكتبخانة» هى أقوى معاقل كفاحنا.

وترددت فى ذهن سامى كلمة « الكتب » التى تشتمل على أغنى كنوز الأرض ... نعم ، الكتب . . . ولم تكن هذه أول مرة يشعر

بتقصيره في حق الكتب ، بل في حق نفسه وبلده . وظل يتلفت إلى الدار بعد أن عاود السير إلى جانب صديقه مستغرقاً في التفكير . وسلكا طريق محمد علي متجهين إلى ميدان العتبة . وعلى الرغم من أن ذهن سامي كان مشغولا بالاجتماع المرتقب ، إلا أنه كثيراً ما كان يجول ببصره فيما حوله . فهو لم يكن يمر بهذه الأحياء إلا نادرا ، وصادفه من المشاهد مالم يألفه . . . لفتت نظره نظافة محلات البقالة اليونانية ، وأناقة واجهات المخازن الأجنبية . ثم ظهرت معالم ميدان العتبة عن بعد ، وتعددت المطاعم قرب نهاية الشارع . ورأي سامي فيما رآه مطعما خاليا إلا من صاحبه المزهو بنفسه ومطعمه ، الجالس ببابه يدخن نرجيلة . كان يرمق في احتقار محل الطعمية المقابل له ، ويأخذه العجب والغيظ لكثرة العملاء المتكالبين عليه ! ! . .

وخرجا من ظلمة شارع محمد علي إلى فسحة الميدان الوضاح ، وطالعتهما البنايات العالية ، والدكاكين الفخمة . ومرا بمقهى متسع الأرجاء يحتل مقاعده الخيزرانية أناس يختلفون في ملبسهم الأنيق عن مقاهي حيهما . وسمعا صيحات الجالسين متصاعدة :

— جورجي ! . . مخالي ! . . جارسون ! ! .

وأسرع جورجي من ناحية ، ومخالي من ناحية أخري ، يختال كل منهما في هندامه الناصع البياض ، ويقبل أحدهما حاملا الأقداح المترعة ، ويعود الآخر بالاقداح الفارغة . . . وتذكر الصديقان مقاهي حيهما ، فانقبضت صدورهما ، ولم يخفف من ضيقها إلا تعللهما بالآمال . . . .

وهنت من بعيد ألحان موسيقي عسكرية . ورأى الصديقان جماعات من الناس تجرى صوب ميدان إبراهيم . وكانا يقصدان إذ

ذاك محطة الترام ، فغير نبيه اتجاهه ، وجذب صاحبه قائلا :

— تعال نشاهد ذلك العرض العسكرى .

— إنها موسيقى القرب الاسكتلاندية ! !

— أحب أن يرى كلانا . . . بل المصريون جميعاً . . . هذا المشهد .

— لا . . . دعنا بالله من رؤية ما يعكر صفونا .

— بل لا بد أن نشاهدهم . . . لابدأن نري بأعيننا مظاهر اعتدائهم .

سارت الفصيلة الانجليزية بين صفين من الأهالى المتجمهرين تتقدمها موسيقى القرب ، وعلت جنودها الزهو وهم يرتدون الحلل القرمزية القانية ، وقبعات المستعمرات العريضة ، والأحذية الثقيلة التى طفقوا يضربون بها الأرض فى مشيتهم العسكرية . وبدت وجوههم المحمرة ، يحيط بها رباط قبعاتهم ، جامدة صارمة تنم عن الغطرسة الغاشمة . . .

وقال نبيه لصاحبه :

— أطل النظر إليهم . . . لا بد أن نطيل إليهم النظر حتى يثبت هذا المشهد فى أذهاننا إلى الأبد . . .

كان الجند يتجهون جنوباً صوب عابدين ، وكأنما كانوا يهزأون بتمثال إبراهيم وهو يشير باصبعه فى كبرياء إلى الشمال كأنه يأمرهم بالعودة إلى بلادهم . . . وتحول بصر سامى إلى النظارة الواجمين ، فرآهم شاخصى البصر ، تدل وجوههم الذاهلة الساهمة على الألم المكبوت ، وشفاههم المطبقة على الغيظ المكتوم . . شاهد أمة تعانى عذاب الحيرة وقلة الحيلة ، وتتطلع إلى القوة ، وترقب يوم الانتصار . فهان عليه أن يقف عليها حياته ، ويبيح دمه فى سبيل خلاصها . . .

عادا أدراجهما منقبضي الصدر، وطالعتهما دار الأوبرا المصرية . المصرية التى لايدخلها مصريون . وظلت عيناهما تقع حيناً بعد حين على

ما ءلأ قلبيهما حسرة فوق حسرة. تجلت أمامهما روائع العاصمة الفاتنة. روائع لاينعم بها غير الأجانب والمالئين لهم ، على حين لم يكتب لمن أبدعوها إلا عيش الكفاف بعيداً عن مواطن جمالها ! ! . .

ركبا قطار الترام ، وكان سامى يركبه لثالث مرة فى حياته ، فخطوط الترام لم تعد للأحياء الوطنية التى يتردد عليها ، ولكنها امتدت فى أحياء الأجانب ، ولم تتجاوز ميدان العتبة جنوباً . . . اخترق القطار بهما شارع كلوت بك الضيق ، ثم أشرقت السماء مرة أخرى ، حين خرجا من الشارع إلى ميدان محطة القاهرة . ونزلا تجاه المحطة ، واجتازا كبرى باب الحديد ، وعرجا عند أول شارع شبرا إلى اليمين ، وسارا فى زقاق طويل . وخيل لسامى أن الطريق لانهاية لها ، فسأل زميله :

— ألايزال مكان الاجتماع بعيداً ؟ . . .

— على العكس ، فها هو ذا المكان .

وأشار إلى بناء ضخم قديم ، مشيد على الطراز المملوكى ، متعدد المداخل والمخارج والطنف ذات الشرابيات . ولم يدر سامى لشدة انفعاله كيف دخل تلك الدار . وجد نفسه فى ردهة واسعة صفت فيها الكراسي التى كادت تمتلىء جميعها بالمجتمعين ، رغم أن ميعاد الاجتماع لم يكن قد حان .

تبادل سامى والمجتمعون نظرات المودة ، وشعر بميل وارتياح شديدين اليهم جميعاً ، على اختلاف سحناتهم ، وغمرته الغبطة والانشراح . وأرهف أذنيه إلى شاب طويل براق العينين ، افتتح الاجتماع بخطاب غير مسهب ، أخذ فيه على الاجتماعات السابقة كثرة

الأقوال الخاوية ، وتعدد الاقتراحات العقيمة . وناشدا المجتمعين ألا يدلى أحد برأى قبل إطالة التفكير فيه ، والتحقق من جديته ويسر تنفيذه .

ظهر لبيب مرقص فى هذه الأثناء . وأقبل صوب زميليه فى غير جلبة ، واحتل مكانا إلى جانبهما . وقام فى هذه الأثناء رجل فى أواخر الحلقة الثالثة من عمره ، تلفت أناقته الأنظار ، ومشى رشيق الحركة إلى منصة الخطابة . وسأل سامى عمن يكون ؟ فهمس نبيه فى أذنه .

— إنه الدكتور توفيق ... قضى حقبة طويلة من حياته فى فرنسا ، وحصل خلالها من السربون على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة . .

وتأمل سامى هندامه ، وتتبع إشاراته ، ولاحظ الشبه بينه وبين أناس عرفهم من قبل ، كانوا قد أنفقوا مثله شطرا من عمرهم فى فرنسا ، وساءل نفسه كيف ظل هذا المتعالى المتشبه بالأجنبى متعلقاً بوطنه ، حريصا على الانضمام إلى مثل هذه الجمعية المتطرفة ؟ ! . .

قال الدكتور توفيق وهو يهش للحاضرين :

— « إن الكفاح فى سبيل الحرية شاق مرير ، وهو يتطلب الفطنة والمعرفة وحسن الادراك . وهذا لا يكون إلا بالدراسة الطويلة والتفكير العميق » .

وسرت فى الغرفة همهمة تعالى خلالها صوت من الصفوف الخلفية يصيح :

— ليس لدينا متسع من الوقت للدراسة ... هذه جمعية تتوثب إلى الكفاح ، وليست معهد دراسات ... نحن فى حاجة إلى عمل سريع حاسم .

وأجاب الدكتور وقد علا وجهه الاحمرار .

— الوقت ثمين .. ما فى ذلك شك . وعلينا ألا نضيعه سدى ... ولكن

التخبط في العمل قبل الدراسة الدقيقة هي مضيعة الوقت ، فلا نجاح إلا إذا وضعنا خطط العمل قبل النزول إلى ميدانه ... علينا أن ندرس الثورات السابقة مثل الثورة الفرنسيـــة ، وثورة الولايات المتحدة . والثورة الايطالية .

وتعالى الصوت الخلفي من جديد .

— وهل درس الذين قاموا بتلك الثورات كفاح غيرهم من الأمم ؟ .

واحتقن وجه الدكتور ، وثارت أعصابه ، وقال وهو يهم بالنزول من المنصة .

— لاأستطيع متابعة القول وسط هذه الضجة ... وهذه المقاطعة .

وتعالت بعض الأصوات متتابعة :

— اسكت يامحمود .

— تكلم يادكتور .

— نريد سماع الدكتور .

واستأنف توفيق كلامه بعد هدوء الضجة :

— يجب علينا أن نفيد من خبرة غيرنا . أليست اليابان أمة شرقية مثلنا ؟ ! ألم يكن شعبها جاهلا عاجزا كشعبنا ؟ .

وصاح محمود من جديد :

— هذا كلام يخرج بنا عن الموضوع ... نريد طرد الانجليز أولا ، ثم نفكر بعد ذلك في إصلاح حالنا .

— وكيف نطردهم ؟ أبسواعدنا ومنا كبنا ؟ أم بالحماسة الفارغة !

وساد الهرج من جديد ، فغادر الدكتور المنصة غاضباً . واكتأب سامي لما حدث ، وشعر بخيبة أمل مريرة .. كان يتوقع أن يسود

لوئام الجماعة ، كان يتمنى أن يتحلوا بالتجاوز والتسامح ، وحاول أن يعرب عما يجول بخاطره ، ولكنه تهيب الصعود إلى منصة الخطابة. ثم صرفته الدهشة عما كان يدور بخلده ، فقد رأى زميله لبيب ينهض ويتجه إلى المنصة في ثقة وثبات . . لبيب الذي لم يسمع صوته قط ، فارتقب كلماته في عجب وتشوف .

وقف لبيب خطيبا ، فازدادت دهشة سامى ، إذ رأى الأنظار تتجه إلى زميله فى اهتمام ، والهدوء يعود من جديد ، وصوت الخطيب الذي لم يكن جهوريا يعلو ، ولكنه كان عميق النبرات بليغ التأثير :

— إخوانى . نحن لم نجتمع اليوم إلا لغرض واحد نؤمن به مخلصين ، ونتوق إلى تحقيقه جادين . فلا خلاف بيننا على الغاية وإن اختلفنا على الوسيلة، فماذا يدعو بعضنا إلى ضيق الصدر والانفعال ؟ ! . إنى أقدر وجهى نظركم المختلفتين ، ولا أجد اختلافهما جوهريا كما يبدو. فنحن نستطيع أن نعمل ونفكر معا . . أظن ألاّ خلاف بيننا على خطوات العمل الأولى ، فلماذا لانخطوها ونفكر فى هذه الأثناء وندرس ونقلب الأمـــور على مختلف وجوهها ؟ . ألم نتفق فى اجتماعنا السابق على توجيه جهودنا فى المرحلة الأولى من جهادنا إلى إيقاظ الشعب ؟.. لقد تولاه اليأس بعد الهزيمة الأليمة التى حاقت به ، وبعد خيانة أوليائه لقضيته ، فعلينا أن نعيد إليه ثقته بنفسه ، وبالمجاهدين الجدد من أبنائه ، وأن نحفز همته بتنويره وتبصيره بحقيقة رزء الاستعباد ، ونوالى فى هذه الأثناء الدراسة ووضع الخطط .

وارتفع صوت على غرة :

— ولـكن كيف ؟ . . كيف ؟ ! . . .

— لقد واجه أحرار إيطاليا حين هبوا لمناهضة النمسا ما نواجهه اليوم، فرأى مازيني شاعر إيطاليا وزعيمها الروحي أن ينبث إخوانه في الكفاح بين ربوع الريف، وأن يوقظوا أهله ويثيروهم على وضعهم المجحف، ويمدّوهم لمكافحة الغاصبين . . . فعلينا أن ننظر في الخطط التي وضعوها، والطرق التي اتبعوها لتحقيق تلك الغاية . .

وصاح الدكتور :

— وهل قلت غير هذا ؟! .

وتتابعت الأصوات متصاعدة :

— لم لا نبدأ بتوجيه نشاطنا إلى شعب القاهرة ؟ . أليس ذلك أقرب إلى متناولنا ؟

— لقد ألف الفلاحون الظلم من قديم، فمن العسير إيقاظهم .

— كيف نستطيع إحياء الموتى ؟! .

واستأنف لبيب قوله متزن العبارة :

— الفلاحون أكثرية الشعب . . ولا سبيل إلى نهوض أمة إلا بنهوض أكثريتها . . .

— بل علينا استنهاض الأقلية ذات الوعي المتقدم، فلا تلبث الأكثرية أن تنهج نهجها .

وتعالت الأصوات من كل جانب يعارض بعضها بعضاً :

— وما جدوى استثارة الشعب ؟ فإننا إذا أفلحنا في حفزه إلى الثورة استطاعت القوة الغاشمة إخضاعه بغير عناء .

— الجيش هو الذي يجب أن يستثار . . . يجب تحويل اهتمامنا إلى الجيش . . .

— وهل بقي عندنا جيش ؟ ! . أين هو جيشنا ؟ ! .

— ليت جيش مصر قوي يرد عنها العوادي ! .

— لاأمل إلا فى ثورة شعبية . . .

— لاأمل إلا في ظهور زعيم يقودها إلى النصر .

— وماذا يستطيع الزعيم إذا لم يجد شعباً حيا يستند إليه ؟ .

— الزعيم هو الذى يوقظ الشعب . .

— أننتظر حتى يظهر الزعيم ؟ ! . لقد أخذنا على عاتقنا أن نقوم نحن بهذه المهمة .

— لن ننجح إلا إذا بذلنا أرواحنا فى سبيل قضيتنا .

— ألم يعد بيننا رجال يقدمون على مثل هذه التضحية ؟ ألم يعد بيننا فدائيون يتصيدون جنود الاحتلال ؟

— التضحية بالنفس هى التى تعيد للشعب ثقته بأبنائه .

واشتد الهرج ، والتهبت حماسة الصائحين وهم يرددون قولهم :

— الموت لجنود الاحتلال .

وارتفعت الأيدى تهز قبضاتها المتوعدة ، وانقبضت أسارير الوجوه ، وتوقدت النظرات . ولم ترتفع أصوات المعارضة إلا بعد وقت غير قصير .

— تضحيات الأفراد لاتحرك الشعب اليائس .

— ماذا أفادت تضحية عبد القادر حلمى فى السودان ، . واستشهاد محمد توفيق فى سنكلت ؟ . . هل حركت تلك البطولة مشاعر الشعب ؟ هل أعادت إليه ثقته ؟ . . .

— لقد أمات الاستعمار الرجولة والنخوة .

— لقد حول الاستعمار مقاومتنا له إلى تكالب على المنافع . . .

وهب الشاب الذى افتتح الجلسة واقفاً ، ورفع يديه مبدياً تململه ، فهدأت الضجة شيئاً فشيئاً .

— فيم هـذا اللجب والضجيج ؟ . . . أتظنونه يحقق أغراضنا ؟ أما يحسن أن يعود النظام حتى يسهل استقرارنا على رأى ؟ . .

وعلى الرغم من عدم ارتياح سامى الى كثرة الجلبة والمقاطعة ، فقد فتحت له العبارات المتضاربة التى سمعها آفاقاً جديدة للفـكر ، وتزاحمت فى ذهنه الخواطر ، وتضاعف أمله فى قرب يوم الخلاص . أخذ يتسائل نفسه كيف فطن هؤلاء الشبان إلى هذه المناحى البعيدة من التفكير ؟ ! . . لابد أنهم يلتهمون ماتصل إليه أيديهم من الـكتب ويتهالـكون على تحصين فكرهم بشتى ألوان المعرفة . . . .واطمأن إلى أن وجود مثل هؤلاء الشبان بين شباب الجيل الجديد كفيل بسرعة تحقيق الآمال . . . ولم يفق من تفكيره إلا على صوت نبيه وهو يقول من أعلا المنصة .

— لاداعي لهـذه الحماسة . لاداعي للاستغراق فى اليأس أو فى الاستبشار ، بل علينا أن نلزم الهدوء والاعتدال . . فاذا واجهتنا مصاعب تدعو إلى اليأس ، فهناك شواهد تبث فينا الأمل . ألا يدل إسراف الانجليز فى وعود الجلاء على شعورهم بحرج موقفهم ؟ ألا يدل على خوفهم من ثورة شعبنا من ناحية ، ومن اعتراض الدول الأوربية على بقائهم بيننا من ناحية أخرى . . فعلينا والحالة هـذه ألا نمهلهم . . . علينا أن نزيد موقفهم حرجاً . . .

وصاح الدكتور :

— علينا أن نستعين بفرنسا، فهي تعبد الحرية، ولن تتوانى عن الدفاع عنها.

ورفع نبيه يده، واستطرد في هدوء:

— لا . . . إن فرنسا تهتم بحريتها لا حرية غيرها . . . إنها تهتم بمصالحها قبل اهتمامها بأي شيء آخر. فعلينا أن نكشف لها عن نوايا الانجليز، وخطرهم على مصالحنا جميعا . . .

وسأل الدكتور:

— هل تجهل فرنسا ذلك؟

— إذا كانت تعلم بعضاً من نواياهم، فالعلم وحده لا يكفي. يجب إن نجسم لأوربا الخطر الذي يهدد مصالحها في الشرق.

وصاح صائغ:

— كيف ذلك . . . ونحن لا نملك القدرة ولا المال؟!

— علينا أن نستعين بالوطنيين ذوي القدرة والمال ... علينا أن نستميل الأنصار الجدد، وأن نضع يدنا في يد من يسعى إلى نفس غايتنا، وإن اتخذ وسائل غير وسيلتنا.

— دعك من ذوي المال، فهم مشغولون بجمعه عن محنة مواطنيهم.

— بل علينا أن نحصل على مالهم بالحيلة . . . بالتوريط . . . بأية وسيلة . . . ألم تروا ما فعله مصطفى كامل؟ ألم يستطع، وهو فرد، أن يحصل على قدر من المال مكنه من إصدار صحيفتيه العربية والفرنسية، والطواف بأصقاع أوربا، ونشر دعايته بين أهلها؟ فإذا اعتصمنا بمثل عزيمته وجرأته ونحن جماعة، أمكننا أن نزلزل الأرض تحت أقدام الاستعمار.

— أستنتهي جماعتنا إلى اقتفاء مصطفى كامل وأتباعه . . .

— لا، فإننا أقسمنا على اتباع أعنف الوسائل . . . ولكننا نحتاج أولا إلى المال ، وإلى معاونة من يسعون إلى نفس الغاية . . . يجب أن نسلم بأننا لا نستطيع طرد الأعداء من بلادنا بين يوم وليلة . إن مهمتنا متعددة النواحي ... يجب أن تنقسم جماعتنا إلى لجان تنظر كل لجنة فى ناحية منها . . . نحن فى حاجة إلى دراسة وسائل الحصول على المال ، ودراسة عقلية فلاحينا ، وأهل مدننا ، وظروف هؤلاء وهؤلاء ، حتى نستطيع أن نضع الخطة المثلى ، ونضطلع بالعمل الموفق . . . وثقوا أن هذه الدراسة لن تطول ، فلن يلتئم شملنا فى الاجتماع القادم حتى تكون اللجان قد أعدت نتائج بحوثها لعرضها علينا .

ولقيت كلمته ارتياحاً وموافقة سريعة لم يتوقعها سامي الذى كاد يساوره اليأس من وصول الجماعة إلى اتفاق . . . ولم يستغرق تشكيل اللجان وتحديد اختصاص كل منها غير وقت وجيز .

الفصل التاسع

بينما كانت الخطب الوطنية ، والصيحات الحماسية ، تثير مشاعر سامى ، وترج أعصابه رجا . استطاع عبد المنعم أثناء النزهة النيلية أن يستفز إحساس رفاقه فى الرحلة بغير خطب أو صيحات . كانت سنية تنتفض تقززاً من كل كلمة يفوه بها . وظلت أمها ترتجف خوفاً من عاقبة مسلك ابنتها . أما أبوه وأخته نعمات فكانا كعادتهما لا يستقران فى وجوده من القلق ، فأبوه لم يكن يتورع عن تقريعهما أمام الكافة باللفظ الجارح

والاشارة الهازئة ، مستهيناً بشعورهما وشعور الحاضرين .

كان القارب الشراعي ينتظر المتنزهين بالقرب من كبرى قصر النيل . ولم يتوان عبد المنعم عن مداعباته الثقيلة منذ طلع بهم القارب إلى عرض النهر . فقد أشار على فاطمة أن تتقدم إلى الناحية التي اتجاها هو وأبوه لتنضم إلى مجلسهما . فما خطت خطوتين حتى اهتز القارب ثم مال إلى جانبه . فصرخت فاطمة مرتاعة ، وامتزج صراخها بقهقهات عبد المنعم الذي جعل يضغط القارب ليزيده ميلاناً . وقال وهو يحاول كتمان ضحكه :

— نجونا من الغرق بأعجوبة ، فقد كاد القارب ينقلب بنا .

وازداد فزع فاطمة وصاحت :

— أنزلوني إلى الأرض . . . عودوا بي إلى الشاطىء . . . أجئتم بي إلى هنا لتقضوا على ؟ ! . .

وقالت سنية كاسفة البال :

— ليت القارب ينقلب بنا حقاً فيريحنا من هذه الحياة !

واختنقت الضحكات في حلق عبد المنعم ، وتجهم وجهه ، ورمق سنية بنظرة عتب وغيظ . وسألها والغيرة تلذع جوانحه :

— لماذا تضيقين بالحياة إلى هذا الحد ؟ .

ولاحظت أمها حنق عبد المنعم فنهرتها .

— ماهذا القول السخيف ؟ ! . أجننت ؟ ! .

وتنهدت سنية ولاذت بالصمت ... وتهادى القارب على صفحة النيل مقترباً من كبرى أبو العلا . كان يشق الماء ، ويدفع موجتين تنطلقان من كلا جانبيه ، وتعانقان في طريقهما أمواج النهر الصغيرة المتلألئة في وهج الشمس . وبدت على الشاطىء الأيسر حدائق غناء ملتفة

الأغصان ، تشرئب من بينها أشجار النخيل الباسقة، وتبدو بين خضرتها كل حين وحين قصور باذخة . وقطع عبد المنعم الصمت بقوله :

— أيقدر لى أن أعيش يوما فى قصر من هذه القصور ؟ !.

ونظر إلى سنية فأشاحت عنه بوجهها . وسارعت فاطمة إلى القول :

— أنا يكفينى مسكن صغير يطل على النيل .

— يالحسن حظك ! . . ليتنى كنت قنوعاً مثلك .

— وماذا عنعك ؟ ! .

— كيف أستطيع الصبر على ما فى الدنيا من نعم ومتع ؟ ! لن أدع غيري ينعم بها ، وأظل أنا فى جانب النظارة المتفرجين .

وحول نظره إلى سنية وأردف :

— أريد أن أوفر السعادة لنفسي ولمن أحب . . .

ولم يتأثر غير فاطمة . ولكن القول لم يسعفها بكلمة تعرب فيها عن تأثرها ، وتداري صداها بذاتها . وكان القارب قد خلف وراءه حينذاك منازل القاهرة ، وتوغل بين الحقول الممتدة على الشاطئين . وبدت أحواض الزرع متميزة الألوان ، واضحة الحدود ، يبهرك بعضها بلون برسيمها الأخضر ، وبعضها بلون أعواد الفول والقمح الداكن الخضرة ، وبعضها الآخر بسمرة الأرض العارية التى لم تنبت فيها شجيرات القطن بعد . وانسابت الجداول اللامعة بين هذه المفاتن ، ومالت الأشجار على جانبي الماء الجارى ، وارتسمت على صفحاته الناصعة .

بدت هذه المشاهد فى عينى سنية كأنها من زخارف الخيال . وأثرت فيها محاسنها فشعرت بحزن هادىء رقيق . . رأت جانبا جديداً شائقا للحياة ، ولكن قرب عبد المنعم منها كان يذكرها بهمومها ، وبالجانب المظلم من حياتها . وتحسرت على الحظ الذى خذلها فجمع

بينها وبين من لا تطيق قربه . . . فآه لو واتاها الحظ ، وأتاح لسامي أن يصحبها فى هذه الرحلة بدل الآخر ؟؟ . . وهاجت هذه الفكرة حنينها إلى الحبيب الذى تخلى عنها . .. ثم ذكرت حلمها الرهيب فجأة . أذكرها به الماء المنساب . . . وخيل إليها أن ذلك الماء المتدفق في هدوء يوشك أن ينقلب إلى تيار جارف . . . وساورتها فكرة الموت من جديد ، فتملكها مثل الخوف الذى برح بها أثناء ذلك الحلم ، وطوال اليوم الذى أعقبه . . . ثم صكت أذنيها ثرثرة عبد المنعم فشعرت بدوار . . . ألا تنقطع هذه الثرثرة أبداً ؟ ؟ ألا تشغله روائع الطبيعة عنها لحظة واحدة ؟ ؟ أجرد هذا الرجل من كل شعور جميل ؟ ! . . ألا يستهويه إلا المال والسلطان ؟! . ألا يهمه إلا لفت نظر الناس إليه ؟ ! ثم لا يعنيه في سبيل تحقيق هذه الغايات الرخيصة أن يشقى أفرادا أو جماعات أو أمة بأسرها ! ! . . .

وانبثق فى ذهنها حينذاك خاطر هز كيانها ، وألهب مشاعرها . تساءلت عما يدعو مثل هذا الرجل إلى الاهتمام بمثلها ؟ ! . . لماذا يهتم بها . . . هى بالذات ؟ ! وهو لم يهتم فى الوجود إلا بوظيفته وتجارة أبيه ! ! ألا يرجع هذا إلى حظها الاسود ؟ ؟ لماذا لم يبحث عن فتاة ذات مكانة وثراء ؟ أليس هذا أولى به ؟ ؟ أتراه غافلا عن هذا الخاطر ؟ ؟ . . . وتعللت بالآمال الخادعة ، وعادت تسأل نفسها :

— ماذا على لو بثثت فيه هذه الفكرة ؟ . أليست فكرة مغرية ؟ . . . ولكن هيهات . . . فمثله لا يغفل عن مثل هذه الخواطر . . .

وانساب القارب بين رؤى الطبيعة ورؤى تأملاتها حتى انتبهت على صوته الكريه وهو يسأل أخته :

— مالك صامتة كالتمثال ؟ ألا يفتح الله عليك بكلمة ؟ ! . .

ولفتت لهجته الخشـــنة نظرها إلى ما غفلت عنه فى ذلك اليوم . فلماذا اصطحب أخته الى هذه الرحلة وهو لم يخرج من داره فى صحبتها قط ؟ ! لقد اعتاد أن يهملها فلا يوجه اليها القول الا نادراً . . . كان يزدريها لجهلها وغبائها . بل كان يرى فى جهلها وغبائها ما يمس كرامته ، ويضير مكانته ، فضاق بها ، ولم يجشم نفسه عناء كتمان ضيقه بهـا ، وامتهانه لها . واستدرجت الخواطر سنية ثانية فعادت تسأل نفسهـا عما ستكون عليه حالها إذا قدر لها الاقتران بهذا الرجل غير المهذب ! لا شك أنها لن تسلم من قوارص كلمه . . . فـكيف يكون موقفها معه ؟ كيف تستطيع احتمال قوارصـه وهى لم تسـتطع احتمالها موجهة الى غيرها ؟ . . . ما أشد الفرق بين هذا النمط الغليظ القلب ، وبين حبيبها الـكريم العف اللسان ! . وتملـكت ذكرى سامى مشاعرها من جديد . وأفاقت هذه المرة من استرسال تفـكيرها على مشادة حادة دائرة بين عبد المنعم وأخته . . سمعته يقول لها :

— يالك من بلهاء ! !

ولـكن تهجم عبد المنعم على نعمات لم يزدها الا عناداً ، فصاحت :

— لا ، لن أرضى بهذا الشيخ الدميم . . هذا المشرف على السبعين .

— ومن ذا تريدين إذن ؟ . أتريدين فتى فى مقتبل العمر وجهه مشرق كفلق الصباح ؟

وغلب غيظها وانفعالها على حيائها .

— ولم لا ؟ ! ألست كغيرى ؟ . أليست هذه أمنية كل فتاة ؟ ! .

وكان النوتى والخادم يحملقان وهما ينصتان الى هذا الحوار المثير .

وتفطر قلب سنية وهى تلحظ ارتباك نعمات، والألم المرتسم فى قسمات وجهها الكئيب ؟ وانفعال الأخ القاسي ، المستخف بالعيون المحدقة في أخته ، والآذان المرهفة لالتقاط عباراته الجارحة . . .

أجاب بلهجة ساخرة تستفز المشاعر :

— أتخالين أنك مثل غيرك من الفتيات ؟ ! أليست لك أية فكرة عن شكلك ؟ ! . . أما خطر لك أن تنظرى يوما إلى المرآة ؟ ! .

وبدا على نعمات أن الاهانة تسحقها سحقا ... وثارت نفس سنية وودت أن تلطم وجه المعتدى المقيت . . . وبادرت فاطمة إلى القول:

— حرام عليك ! . . مالها نعمات ؟ ! . . ليت البنات جميعهن مثلها ! .

وأجاب عبد المنعم وهو يتميز غيظاً :

— هى لا تستحق قرشاً من آلاف جنيهاته .. فوجهها وجه فقر .

وصاحت نعمات مدفوعة بسورة الغيظ والألم :

— أنا أعرف قسمتى . . . الشيخ الدميم من نصيبى . . . وآلاف الجنيهات من نصيبك أنت . . .

وسدد عبد المنعم نظرات الغضب إلى أبيه وزعق :

— ما لك صامتاً ! !. . ألم تسمع ماقالت ؟ ! . أنصبر على هذه القحة ؟!.

وتوخى أبو السعد الحزم فى قوله :

— ماذا دهاك يانعمات ؟ ! . . أهذا آخر اهتمامه بك ، وسعيه إلى مافيه خيرك ؟ ! . .

وانفجرت نعمات باكية :

— لقد باع حلي . . ورفض عروض خطابى . . . رفضهم توفيراً لثمن الجهاز ونفقات الزواج . . هو يريد الآن يسعى إلى ذلك الشيخ الفانى..

وصاح عبد المنعم منتفضاً :

— اخرسى . . .

وعقب محمد أبو السعد :

— أنت جاهلة غافلة عن مصلحتك . . . وستتزوجينه أردت أم لم تريدى . . .

واسترسلت نعمات فى البكاء . . . وعاودت سنية فكرة زواج المصلحة . . . لماذا لا يبحث لنفسه عن مثل هذا الزواج ؟ ! ومرت فترة استولى فيها الانقباض على النفوس . وأقبلت فاطمة على الفتاة المسكينة ، تربت على كتفها ، وتمسح لها دموعها . وحار أبو السعد فيما يقول أو يفعل . . . إلى أن قطع النوتى الصمت بقوله :

— ها هو ذا بناء القناطر .

ولاح البناء الضخم عن بعد ، ولكن منظره لم يستخف أحداً . فقد كان الانفعال مستأثراً بمشاعر الجميع . . .

نزل المتنزهون شاطئاً جملته زينة بساتينه الفيحاء . وساروا على أبسطة الخضرة تحت أضواء شمس الشتاء . ولطف حسن المكان مرارة الحديث الذى دار فى القارب . وترامى إلى آذانهم هدير الماء المتدفق من فتحات السدود ، فاتجهوا إلى القناطر ، وأطلوا بعد أن عبروا جانباً منها على النيل المنطلق من محبسه ، فأزاح المنظر الرائع ثقل الانقباض عن صدر سنية ، وأطلق الماء المتفجر الثائر قواها النفسية المتوثبة إلى الانفكاك والانطلاق ، واستثارها حتى استشعرت القدرة على تحطيم سدودها ، والفوز بمثل حريته ! .

لم يغفل سامى عن ذكر سنية رغم ازدحام فكره ، واكتظاظ صدره بالأفكار والمشاعر التى أثارها اجتماع يوم الجمعة . وعبثا حاول أن يبرر خلف الوعد الذى قطعه لها . فقد أحس أنه خذلها وتخلى عنها بعد أن وثقت به واعتمدت عليه . كانت نظرات عينيها المتوسلتين تلاحقه أينما سار ، وتملأ قلبه حسرة وإشفاقا . فأخذ يتساءل عما ينتويه ! ! أيدعها لمصيرها المقدر فتقع فريسة سهلة فى يد عبد المنعم ؟ أم يأخذ بناصرها ، وينافح عنها حتى ينقذها من قبضته ؟؟ . . أيفرض عليه الواجب إيثار خدمة وطنه على نصرتها ، أم إيثار نصرتها على ماعداها؟؟ لقد نوى أن يهب قلبه ووقته لوطنه ، ولكن هل يستطيع أن يخيب أمل الضعيف اللائذ به ؟ ؟ . .

وشعر بدافع قوى يدفعه إلى أن يسرع إليها ، ويبثها لوعته ، ويذرف دموعه شارحاً لها مايعانيه من عذاب ، طالبا إليها أن تهديه إلى الصواب . ولكنه كان لايكاد يقدم حتى يحجم . فهى لن تغتفر له خلفه لوعده . ثم إنها لن تفهم أسباب عذابه ، ولن تقدر دواعى تردده ، ولن تبرئه من تهمة خيانة العهد .

ومر ببابها مغرب يوم السبت وهو فى طريقه إلى مدرسة المعلمين الليلية ، ومر به عشية اليوم نفسه عند عودته من المدرسة ، ولكنه أحجم فى المرتين عن طرقه . ولم ينقذه من حيرته إلا مجىء أحمد إليه عصر اليوم التالى موفدا من خالته ليطلب منه نزوله إليها .

كانت فاطمة تنتظره فى الردهة ، متلفعة بخمار من الصوف ، ومتلثمة

بمنديل كبير . ولم تكف منذ وقعت عينها عليه عن السعال والتأوه وشكوى الصداع والأوجاع . ودخلت به غرفتها . . . غرفتها هي ومحمد بك . . . ولفتت نظره الملابس العالقة بالمشجب ...قميص نومها ملاصقاً لجلباب «البك» !!. وجلسامتجاورين في مقعد عريض.وبدأت تردد ماعتادت ترديده من أن الله حرمها الولد ، ولكنه عوضها عنه خير عوض . . . أقسمت أنها ماأحست قط فرقا بينه وبين سنية ، فكلاهما ولداها ، ولم تكن لها أمنية غير التئام شمل الأسرة بزواجهما . ولكن آه من الحياة ! فهي قليلا ماتحقق الآمال المنشودة .وأنصت إليها سامي مطبق الفم ، مطرق الرأس . فهو لم يجهل ماترمي إليه ، ولم يغب عنه عقم مجادلتها ، فانتظر نهاية حديثها صابراً على محاولة تغريرها به ، واصطناعها الألم والأسى . ولكنها لم تلبث أن استثارته بقولها:

— ولكنك لا تستطيع سداد نفقاتكما . . كم مرتبك ؟ .

فاندفع إلى الرد :

— أتظنين أني لم أفكر في هذا ؟ لقد أخذت أعبتي ، وأقبلت على الدراسة . وسيتضاعف مرتبي حين أصبح مدرسا . . .

وشهقت شهقة عالية :

— مدرسا ! ! . ولكن عبد المنعم سيصبح وزيرا .

— من قال لك هذا ؟ ! . . على أن الأمر يخصها هي ، فدعي لها الخيار.

— وماذا تفهم هي ؟. إنها فتاة غريرة . إن كنت تحبها فاختر الأوفق لها.

— أنا لا أفكر في نفسي ،ولكني أريد أن أسعدها . أما هو فسيشقيها بغير جدال . .. إنها تمقته .

— أقالت لك هذا ؟. ولكن عواطف الشباب تزول بزواله . بل تخمد قبل

زواله ، ولا تبقى إلا النعم الحقة . المال والجاه والأمل .

ونظر سامي إلى خالته متعجباً ! . إن ذهنها لا يرقى إلى هـذا المستوى من التفكير ، فمن ذا الذى لقنها هـذا القول ؟ . أهو مورد الأغذية لجيش الاحتلال ؟ . أم ابنه صنيعة الانجليز ؟ . وغمغم وهو لا يخفى امتعاضه :

— لا أحسب المظاهر الفارغة تسعد سنية .

— وما الذي يسعدها إذن ؟ . أهو الفقر والهوان ؟ ! .

وهتف وقد جرحه تعريض خالته :

— العاقل يختار زيجة تسودها المودة وراحة البال .

ورأت فاطمة على وجهه أمارات الغضب ، فمسحت جبهتها بيدها ، وتأوهت مستدرة عطفه :

— آه . قاتل الله الصداع . اسمع ياولدى : أقسم أنى لا أحرص على توفير السعادة لها وحدها . ولكنى أفكر فيك أيضاً ، وأبغي لك السعادة كذلك . أتظن أنك ستسعد إذا تزوجتها ؟ .

— وكيف لا ؟ ! .

— أتتوقع أن يتركـكما عبد المنعم فى هدوء ؟ . . . اعلم أنه سيحاربك فى رزقك ، ولن يدعك حتى يراك تستجدي . . .

— أهو عبد المنعم الذي قال لك هذا ؟ . . .

وأجابت وهي لا تقوى على كتمان ارتباكها .

— لا . . . ولكنى أعرف طبعه . فهو لا يبقى على أية عقبة تحول دون ما يشتهيه .

وابتسم سامى ابتسامة مرة :

— هذا كلامه . . . ولكن اطمئنى ياخالتى ، فسأتخلى عن وظيفتى ، وسأعمل مدرساً فى مدرسة غير حكومية .

— لن ينقذك شيء من انتقامه . فأولى بك أن

وهز سامي كتفيه مستخفا . وحاول أن يهدىء روع خالتـه ، وأن يؤكد لها أن عبد المنعم لايتمتع بالسلطان الذي تتوهمه . ولـكن جرس الباب الخارجى دق فى تلك اللحظة ، فهتفت فاطمة :

— ها هو ذا عبد المنعم .

وجذبت سامي من ذراعه محاولة الخروج به من مخدعها ، فقال لها :

— دعينى هنا . . . سأتسلل فيما بعد دون أن يراني .

وخرجت مهرولة .

* * *

بينما كان سامي يفـكر فى ذلك الحديث الذى دار بينه وبين خالته ، ويزداد اقتناعا بأن تشبثه بسنية مضيعة لوقته ، وشغل له عن المهمة التى استحوذت على مشاعره ، اعتزم عبد المنعم أن يزيحه عن طريقه بنقله من القاهرة . . اعتزم ذلك بعد الحوار الذى دار بينهما بعزل فاطمة ، وبعد رحـلة القناطر . ولـكنه أراد أن يبرر نقله ، ويظهر لأفراد الأسرة ألا يد له فيه . . فأخذ ينشر حوله شباكه .

ابتدره عثمان فى صباح اليوم التالى بقوله :

— ألم تصل إليك آخر الأنباء ؟ . . ألم تعلم أن وضع انجلترا فى مصر سيستقر على وجه حاسم هذا الأسبوع ؟ .

وكان سامى يوطن النفس على الصمت متشبهاً بنبيه ولبيب ، ولـكن قول عثمان استثار فيه حب الاستطلاع ، والرغبة فى الـكلام ، ودفعه إلى سؤاله :

— وكيف ذلك ؟ . .

— ألا علم لك بالمفاوضات الجارية بين الانجليز ودول أوربا ؟ . لاشك أنها ستسفر عن نزول تلك الدول على رغبة الانجليز.

كانت الألسن تتناقل في الأيام الأخيرة مثل هذه الاشاعات ، وتعلق عليها بمختلف التعليقات . وتلقى سامي مايقال بنفس موزعة بين مختلف المشاعر. فما طرق عثمان هذا الموضوع حتى راح يبدى خواطره المتوثبة إلى الانطلاق.

— أليس هذا ما كنا نتوقعه ؟ . . . بل ما كنا نتعجله . . .فخير لنا أن نقف جميعاً على حقيقة نيات انجلترا حتي لا يبقى بيننا مخدوع فيها .

وكشف عثمان عن أسنانه القبيحة وهو يستدرجه :

— ما قصدك ؟ . . .

— سيصحو النوام من نومهم . . سيهبون بعد أن استسلموا للنعاس آملين أن تجلو انجلترا عن الوادي من تلقاء نفسها . . .

وتململ لبيب في كرسيه . وقال نبيه متأففاً :

— كفى ثرثرة . . . كيف نستطيع تأدية عملنا وسط هذه الضجة ؟ .

وتشاغل عبد المنعم بالكتابة عما يدور حوله ، ولكن عيني نبيه لم تغفلا عن الاهتمام الذي يداريه ، والنية التي يبيتها . وعبثاً جاهد الصديق في إقالة عثرة صديقه . . واستأنف عثمان قوله في عصبية مفتعلة .

— ماذا تقول ياأستاذ !! . . لاشيء يمكن أن يوقظ أولئك الذين يغطون في نومهم . . .لقد انحلت الأخلاق ، وتعفنت النفوس ، وخمدت النخوة ، ولم يعد أحد يفكر إلا في نفسه .. وفي مصلحته .

كان الناس يرددون هذه الأقوال على تعاقب الأجيال . ولكن السيول تنهمر حين تتجمع السحب . . لقد استطاع النوام طرد

المكسوس من بلادهم ، وعصير غزاة الروم والرومان والعرب . . . والأتراك ..

— عم تتحدث ياصديق ؟ ! . . إنها بريطانيا العظمى التى تحتلنا اليوم . بريطانيا العظمى المسيطرة على نصف العالم . فكيف نستطيع نحن الضعفاء التغلب عليها ؟ ! . بم نقاتل جيوشها التى قهرت الأمم ؟ ! بم نقاوم ساستها الذين دوخوا فطاحل السواس ؟ ! . . بم ؟!. بم ؟ ! .

وأحس سامى نظرات نبيه ولبيب مصوبة اليـه . وحاول ضبط أعصابه ، ولـكنه كان مأخوذا بتيار حماسته .

— بالقضاء على الخونة الذين يمكنونهم من بسط سلطانهم .

وتوقف قلم عبد المنعم عن الـكتابة ، ورفع رأسه عن أوراقه وقال:

— كفى . . كفى . فليس هذا مكان التحدث فى السياسة .

وسكت عثمان ، وعـكف على عمله راضيا عن نفسه . ولاحظ سامى امتقاع لون صديقيه وفطن إلى الشرك المنصوب . بعد أن وقع فيه .

الفصل الحادى عشر

— ألا تـكفين عن البكاء ؟ . . أما آن أن تنهضى ، وتغسلى وجهك ، وتمسكى رمقك بلقمة ؟ ..

— أرجو أن تدعيني ياأمي . . . دعيني وشأني .

كانت سنية منكفئة فى فراشها على وجهها ، وعيناها فى لون الجمر . فقد وقع لها ماأزعجها ظهر ذلك اليوم ، يوم الخميس من نفس الأسبوع الذى دار فيه النقاش بين سامى وعثمان . كانت سنية تستعد حينذاك لتناول طعام الغداء حين دق جرس الباب ، وسمعت الصوت المحبوب .

صوت سامى . . ولم يكن من عادته المرور ببيت خالته فى مثل هذا الوقت ، ورأته يفضي إلى أمها بكلمة ثم يغادر البيت قبل أن تصل إليه . ثم وقفت على الخبر الذي زلزل قلبها . . خبر نقله إلى الاسكندرية ، وضرورة سفره إليها فى بحر أسبوع . فلم تنبس بكلمة . وتوجهت إلى غرفتها شاحبة اللون ، وانزوت فيها رافضة تناول الطعام ، ثم تعالى نشيجها . وأخفقت أمها فى تهدئتها . ودخلت عليها قرب العصر لثالث مرة ، وجلست على حافة الفراش تبادلها الحديث الذى بدأناه فى أول هذا الفصل . واستطردت قائلة :

— الاسكندرية ليست بعيدة يا ابنتى . وسيحضر لزيارتنا بين حين وحين .

وأجابت سنية دون أن تلتفت إلى أمها :

— أنا لم أعد طفلة لتغررى بى على هذا النحو .

لم تكن فاطمة ترفق بابنتها ، بل كانت على العكس متململة منها ، ساخطة عليها . . كانت فى الحق ساخطة على كل ما يجرى حولها . فهى تقضى يومها شاكية لا من الضر الذى يصيبها فحسب ، ولكن من الخير أيضا ، لأنها لا تطمئن ولا ترضى ولا تكتفى . . إنها لا ترى فى كل ما يحدث لها إلا منغصات تحدث لازعاجها . فكل ما يحيط بها ..ومن يحيطون بها .. يتآمرون عليها .. فهى محور الأحداث التى تجري حولها ، وهي المقصودة من كل قول يقال ، أو حادث يقع . . ولكنها لا تملك دفع الأذى الموهوم إلا بالشكوى أو استدرار العطف .

استأنفت قولها متنهدة متأوهة :

— وما فائدة البكاء ؟ . هذه الدموع تحرق قلبى . ألا تشفقين على أمك ؟!

وما كانت سنية بالغافلة عن مغامز أمها النفسية والخلقية ، وطالما ثارت

نفسها التى تنشد لأمها الكمال . ولكنها كانت تكظم غيظها الثائر فلا يبدو إلا فى كلمة أو ملاحظة تفلت منها قهراً . أما اليوم فقد كاد الألم يخرجها عن وعيها . . أجابت مدفوعة بفورة غضبها :

— أولى بك أنت أن تفكرى فىّ ! . . أولى بك أن تشفق أنت علىّ ! لماذا لا تنقذيننى من العذاب الذى تسببينه لى ؟ ! . .

وأخرج الضيق فاطمة كذلك عن طورها :

— يا لنكبتى بك ! . . ألا تكفين عن لومى وتأنيبى ؟ ! . أنا لم ينلنى منك منذ ابتليت بك غير تعب القلب والجحود . كنت أؤمل أن أسعد بك ، ولكن . . يا لخيبة أملى ! ! . .

— ألم يخطر لك يا أمى أن لى قلبا يخفق كغيره ؟ ! . . ألا يحق لى أن أميل إلى رأى . . وأن أتعلق بأمل ؟ ! . .

— واحسرتاه على آرائك وآمالك ! كنت أتوق إلى تزويدك بالعلم ، فقترت على نفسى وأرسلتك إلى أرقى مدرسة . . مدرسة الراهبات الفرنسية ، فماذا أفدت من الدراسة ؟ . . ماذا أفدت من الكتب التى تكبين عليها طول النهار ؟ ! . . لم تفيدى غير قصر النظر وضلال الفكر ! . . إنه ابن أختى ، ولكنى أقول الحق . . أقول إنه ناقص العقل . . خائب . . يعيش فى الأوهام . وقد استطاع أن يخدعك . . أنت المتعلمة ، وأن يبث فى ذهنك القاصر آراءه الضالة . فواحسرتاه على جهدى الضائع ! . .

واعتدلت سنية فى فراشها ، ودبت الحماسة فى أوصالها :

— وما أدراك أن آراءه ضالة ؟ ! . .

— خيبته ! . . لقد استطاع عبد المنعم أن يبنى لنفسه مستقبلا يحسد

عليه ، أما هو فقد ضيع مستقبله .. أصبح ألعوبة فى يد عبد المنعم يصنع به ما يريد ، ويتصرف فى حياته وفق مشيئته .

— هذا صحيح اليوم .. ولكن الغد له شأن آخر .. فالانجليز لن يبقوا هنا إلى الأبد .

— أنت ترددين كلامه ! .. ياللخيبة ! ! .. كيف استطاع أن يخدعك ؟ ! .. لقد أعماك عن الحقائق الظاهرة ! . كيف تصدقينه ولا تصدقين فتى ناجحا مثل عبد المنعم ؟ ! ..

— لأن عبد المنعم بلغ غاية الكمال ، فأنا لم أعهد فيه غير التنزه عن الصغائر !! أنا لم أسمعه يوما يغلظ القول لأحد من أقاربه أو غير أقاربه!! لم أسمعه يهزأ بأحمد المسكين أو بغيره ! ! لم أره يطأ الرقاب ليحقق مآربه! لم أره يكذب ويدس ويرائى ! ! ..

— كفى .. كفى .. فأنت خائبة كغريبك ،ولولا واجب الأمومة لتركتك تنزلقين إلى المصير التعس الذى تختارينه . أنت قاصر ساذجة ، ومن واجبى أن أسدد خطاك طوعا أو قسرا .. واعلمى أنك إذا لم تثوبى إلى رشدك ، فلن يكتفى عبد المنعم بما حدث .. بل سيبطش به.

وقامت سنية أثناء اندفاع أمها فى الكلام . وخرجت من الغرفة فتبعتها أمها مسترسلة فى التهديد . واتجهت الفتاة إلى حوض المياه فغسلت وجهها ، وعادت إلى غرفتها ، ونظرت فى المرآة ، وأصلحت هندامها ، وسوت شعرها . ثم صعدت إلى الطابق العلوى مصممة متحدية . . . .

استقبلها سامى هادىء النفس ، مفتر الثغر . كان يفكر فى الاسكندرية ، ويتخيل العيش فى البلد الغريب ، والجهاد الذى سيواصله

قيه . ولم يشعر بتهيب أو وحشة اعتمادا على وجود أخيه هناك . . ولكنه لم يتبين احمرار عيني سنية حتى تنازعته المشاعر المتضاربة من جديد ، وتوزعت الحيرة نفسه الولهى ، وعاد ضميره يؤنبه على إغفال حبيبته . وتركها لمهب الأقدار . واشتد قلقه إذ نفذ صوتها الرخيم إلى شغافه :

— علام عزمت ياسامى ؟ ! .

واضطر إلى الاقرار بعجزه :

— وماذا أستطيع أن أصنع ؟ ! . . لولا حاجة والدتى إلى مرتبى لاستقلت . . . ولكن ، لاتجزعى . . . لا يبرح بك الجزع إلى هذا الحد . . . سوف أعود . . ستكون عودتى إليك أقرب مما تتصورين .

— لا ياسامى . لا تبعث فى آمالا كاذبة ، فانت لم تعودنى ذلك . لقد جئت أودعك . . . لامفر من مواجهة الحقائق .

وبزغت فى ذهنه ذكرى إخوانه واجتماعهم السرى . . ذكرى انعقاد عزمهم على الجهاد فى سبيل الخلاص من المحتل وصنائعه . وتعلق بالآمال مستدنياً البعيد ، مستسهلا الصعب . وهتف متهدجاً :

— نعم ، ستكون عودتى أقرب مما تتصورين . . . سيكون يوم الخلاص أدنى مما تتوقعين . . فحين نستعيد للوطن حريته ، نسترد كذلك حريتنا . . . نحن نجاهد فى سبيل الشعب وفى سبيل أنفسنا . . فى سبيلى وسبيلك . . أتسمعين ؟ عليك أن تثقى فيما أقول .

ولم يستخف سنية الأمل ، وسألته بصوت حزين النبرات :

— وبم تشير على ؟ . كيف أقاومهم ؟ ! . . وكيف أطمئن عليك ؟ . سيرغمونني على مايشتهون ، وسينكلون بك إذا عزمت أن أقاومهم .

وأحزن سامى ألا تثق سنية بما يقول ، وألا تشاطره الرجاء ، وود

لو يستطيع أن يبثها مايجيش فى صدره من أحاسيس . وقال متحمساً :
— وهل يملك عبد المنعم غير نقلي ؟ .. اطمئنى ياسنية . اطمئنى واستبشري . . آه لو أستطيع أن أعبر لك عن مقدارحبي !! فقد تجدين فيه عزاء .

وتحدرت الدموع من عينى سنية . وتفطر قلب سامى أسى وإشفاقا. وتنازعته نفسه إلى عناقها وتدفئتها بحرارة مشاعره . . ولكن وقع فى ذلك الحين مالم يتوقع .. دق جرس الباب ، ودخل عليهما عبد المنعم الردهة غيرمتردد . ورأى الدموع على خدى سنية فأغضى طرفه ، وكتم انفعاله وحار سامى فيما يقول أو يفعل ، وعقدت الدهشة لسان الفتاة ، وساد الارتباك حتى قطعه عبدالمنعم بقوله :
— جئت أؤكد لك ياسامى ألا يد لى فى مسألة نقلك !

وأجاب سامي بلهجة جافة ساخرة :
— أنت صادق بلا جدال . ولكن سيان عندى ، فليس للأمر أهمية .

وجلس عبد المنعم دون أن يدعوه أحد للجلوس .
— طالما نصحتك أن تكتم مشاعرك . طالما حذرتك لؤم عثمان ، ولكنك استهنت بنصيحتى . لقد نقل عثمان حديثك إلى مستر بيكر .
— ما فائدة الكلام فى هذا الموضوع ؟ .
— لابد أن أطلعك على الحقيقة . لابد أن تعرفها الأسرة جميعا .
— نحن نعرفها جميعاً . فوفر على نفسك الكلام .

والتفت عبد المنعم إلى الفتاة الساهمة وقال :
— أقسم لك ياسنية أنى برىء من الشبهة التى تحوم حولى. فأنا لاأضمر إلا المودة لكل فرد من أفراد أسرتك . ألم أنقل سامي إلى قلم

المستخدمين ؟ ألم أجلسه إلى جوارى ؟ ألم أحمه كيد زملائه حتى اليوم رغم سبه فى الانجليز ؟ ولكن يبكن صمم هذه المرة على قتاله . غير أنى أقسم أنى سأعيده إلى القاهرة حين تهدأ ثائرة المفتش .

ولم يعد سامي يحتمل استمرار هذا الخداع فقال :

— أنا فى غير حاجة إلى رضاء المفتش ، أو إلى مساعدتك . فهلا تركتنى وشأني ؟ ..

وأسرعت زكية إليهم حينذاك متشحة بنقاب أسود تحجب به الجزء الأدنى من وجهها . وتقدمت صوب عبدالمنعم ، وقالت له هاشة :

— هذه أولى زياراتك لنا ، فأهلا بك .

فشكرها ، وراح يقسم لها من جديد أنه بذل جهده ليحمي ابنها ، ولكنه عجز عن دفع المقدور . فالمفتش الانجليزى ليس طوع بنانه كما يزعم الناس . ودارت الأرض بسنية ، ولم تعد تطيق ما يجرى حولها . لم تعد تحتمل رؤية وجهه الكريه ، وسماع صوته الممقوت . وقامت أثناء حديثه ، واتجهت إلى غرفة خالتها . فاستوقفها قائلا :

— سأسبقك إلى بيتك ، وسأنتظرك هناك .

الفصل الثانى عشر

شعر سامي حين تحرك به قطار الظهر من محطة القاهرة بأن حياته تنتزع منه . فلم تكن حياته غير بيته والأحياء التى اعتاد ارتيادها وسنية وأصدقائه الوطنيين ووالدته المتعلقة به .. فأين هذه الحياة منه ؟ .. لقد أخذت تبتعد عنه الآن شيئا فشيئا ، وتتحول إلى ذكرى مؤلمة ، وأحلام شجية . . . استرسل فى تذكر المغانى التى أنفق فيها أيامه

العذاب ، والأحداث التى حركت مشاعره ، وألهبت خياله . ولم يفق من ذكرياته إلا بعد أن غادر محطة بنها .

أطل من نافذة القطار المندفع صوب الاسكندرية،فرأى الأشجار والمروج والقرى تجرى مسرعة إلى الوراء ، نخفق قلبه إذ خطر له أنها تتخلى عنه ، وتعود أدراجها إلى القاهرة الحبيبة . ولكنه لم يلبث أن شغل بمنظر أزعجه وآلمه . لقد لمح القرية المصرية عن قرب لأول مرة .. رأى دورها الذليلة ، فروعه منظر جدرانها الطينية القذرة ، وأبوابها القصيرة المتسخة ، وأسقفها المعروشة بأعواد الذرة ، رآها منكمشة بين الحقول الزاهية ، تعانى مذلة الحرمان وهى محوطة بذخر من الخيرات ، فتذكر مقاهى ميدان العتبة ، وقصور ميدان إبراهيم ، ودار الأوبرا وملاهي الأزبكية ، فتفطر قلبه حزنا على الأمم المتعاقبة التى احتملت على مر الأجيال ظلم سادتها أصحاب الاقطاع ، وعانت شر ألوان العوز والجهل والمرض ، وبكت دماً على سوء مصيرها .

كان أخوه كامل ينتظره على إفريز محطة الاسكندرية . وأخذ الأخوين العجب لما طرأ على شكليهما من تغيير .. خرجا من بناء المحطة ، ومرا بفنائها المحاط بسور ضخم عال ، تتخلله منافذ للدخول والخروج من غير أبواب ! ! . وأول مالفت نظر سامى بعدخروجهما بناء مستطيل ، معروش برقائق من الصاج ألصقت بجداره إعلانات متعددة فى أعلى كل منها صورة ديك يمد رقبته ليصيح ، فتقدم ليقرأ الاعلان ، ولكن أخاه ابتدره بقوله :

— هذه دار السينما . أترغب فى مجيئنا إليها مساء ؟ .

ولم يجرؤ سامى على الاعتراف لأخيه بأنه لم يشاهد بعدهذه البدعة

الجديدة . وسار مأخوذاً بما يري ، لا لأن عينه كانت تقع على مشاهد لم يألف لها نظائر ، ولـكنه تأثير البلد الغريب ، والمكان المجهول .
وعرج الأخوان على اليسار ، وواصلا السير حتى اعترض طريقهما شريط الترام . فاستوقف كامل أخاه ، وانتظرا القطار القادم من بعيد .

كان كامل يقيم فى غرفة متضمة قريباً من مكان عمله فى ورشة السكك الحديدية بحى القبارى ، ولم ينو سامى أن يشاركه فى سكني تلك الغرفة ، إذ كان قد اتفق مع والدته قبل سفره على استئجار مسكن يسع ثلاثتهم . على أن حى القبارى لم يرق لسامى ، لاسيما بعد أن علم ببعده عن دار المحافظة ، محل عمله الجديد .

استعاد سامى نشاطه بعد أن ابترد ونال قسطا من الراحة . . .
وطلب إليه أخوه أن يصحبه إلى مقهى اعتاد أن يزجى فيه الوقت ، فأذعن مكرها . ولم يكن يدرى مدي ماينتظره هناك من عناء وإرهاق . كان الزحام شديداً على ضيق المكان . وانهمك الحاضرون فى لعب الورق والنرد والشطرنج ، وفى تدخين النراجيل ولفائف التبغ البيض والسود . فتعالت الأصوات المقلقة المزعجة ، وعقد الدخان سحبه الكثيفة حتى كاد سامى يصاب بوقر واختناق . وأذكرته حماسة اللاعبين وصياحهم اجتماع شبرا السرى ، فدار بعينه فيمن حوله ، وتساءل فيم حماسة هؤلاء اللاهين الأغبياء ؟ ! . . وأحزنه أن يجد أخاه على شاكلة هذه الجماعة . . . لقد خاب أمله فيه منذ التقى به فى المحطة وجاذبه الحديث . . . سأله وهما فى قطار الترام عن رأيه فى الحالة السياسة فأجابه : إنه يجد تسلية فى تتبع رواية الاحتلال الانجليزى ، وإنه ينتظر تتمتها كباقى النظارة . . . وحين قال

له سامى إن الحالة تتطلب العمل الايجابى من كل مصري ، هز كتفيه وأجابه بأنه اختار أن يكون فى زمرة المتفرجين . . .

وفى صباح اليوم التالى وقعت عيناه على أعجب منظر رآه فى حياته . اخترق به قطار الترام شارع السبع بنات وهو فى طريقه إلى دار المحافظة ، ووقف به قبيل الميناء الشرقى . وحين نزل من القطار ، واتجه صوب طريق الميناء . شاهد البحر الملح لأول مرة ، شاهد العباب الممتد إلى غير حد . فاستولت عليه رهبة لن ينسي تأثيرها ما بقى من أيامه. اعتاد أن يرى النيل فيطالعه الشاطىء الثانى القريب . ولكنه يرى اليوم خضما زاخرا لا يحده شاطىء . . يرى عبابا له أول وليس له آخر . فأحس هيبة الأبدية . . ارتجف لسطوة اللانهائية . . شعر بدبيب القوة يدب فى أوصاله ، وشعر بتوثب الأمواج يصطدم بجوانبه ، فآنس القدرة على تحقيق آماله . . مشي على الشاطىء مغربا مستدفئا بنسيم البحر الملطف لبرد الشتاء . وظل هدير البحر يدوى فى أذنيه ، والأمواج المتعاقبة تجدد عزائمه ، وتلهب حماسته . .

كانت دار المحافظة تطل على ذلك البحر . ولم يجد مشقة فى الاهتداء إليها . فقد لاحت له على يسار طريقه متميزة بكثرة الجنود الواقفين ببابها ، والحائمين حولها .

كان المكتب الذي اختير له يقع بين ثلاثة مكاتب محشورة فى غرفة ضيقة تطل على البحر . لم تكن فى سعة غرفة الداخلية التى اعتاد دخولها كل يوم ، فاستوحش المكان غير المألوف ، واستغرب وجوه زملائه الجدد . كان رئيس العمل يجلس فى صدر المكان كعبد المنعم ، ولكن شتان بين الاثنين ! . فالرئيس الجديد لا يصطنع الوقار كالآخر، ولا يبدو

في أناقة هندامه . وزميله الجالس إلى يساره لا يشبه كذلك نبيه الشاذلي فهو لا يكف عن الثرثرة ، ولا يمسك عن الضحك . . . تتخلل أقواله التافهة ضحكات مستطيلة ناعمة يغرق فيها حتى تكاد أنفاسه تنقطع . وتشوب لفظه النابي لثغة كلثغة الأطفال. ويدل شحمه المكتنز حول رقبته القصيرة ، وكتفيه العريضتين ، على أنه لم يلق إلى شيء بالاً ، ولم يحمل للدنيا هما . . وقد استطاع أن يشغل من في الغرفة بعبثه ، فاذا افتعل الرئيس الجد ، وحاول أن ينهره ، غلبه الضحك ، فجاراه فيه . . .

لم يطل مكث سامي في مكتبه الجديد حتى جاءه أحد السعاة ليصطحبه إلى رئيسه الانجليزي . وكانت هذه أول مقابلة له مع رئيس انجليزي . . . وقد عجب إذ رآه ضابطا يافعاً في رتبة الملازم الأول . وازداد عجبه حين خاطبه ذلك الضابط الأصفر الشعر بلغة عربية فصيحة لا تشوبها إلا لكنة طفيفة . قال له إنه اطلع على ملف خدمته ، وتبين سبب نقله من القاهرة ، وإنه لن يسمح بتسرب السياسة إلى مكان العمل الذي يشرف عليه ، ولن يتوانى عن قمع أية محاولة لاستثارة المشاعر . . . ورجاه ألا يرغمه على الالتجاء إلى الصرامة في معاملته . . وأدرك سامي منذ ذلك الحين أن إقامته في عمله الجديد لن تطول .

ظلت غرابة منظر البحر المنبسط وراء النافذة مستأثرة بنظر سامي ، وغرابة هديره الذي لا ينقطع مستولية على مشاعره ، ومرت الساعات دون أن يناط به عمل ، وأحس أن زملاءه يتحاشونه إلا جاره الضحوك المستهتر الذي لم يفطن الى السمعة التي سبقت الموظف الجديد ، وذاعت في المحافظة قبل وصوله . . وقد علم سامي أن اسم ذلك الجار

عباس ، فابتسم للمفارقة بين اسمه وحقيقة واقعه . ولاحظ عليه أنه يختلس إليه النظرات ، ويحاول التحدث إليه . وماسنحت فرصة للكلام حتى انتهزها ، وراح يسأله عن رأيه فى عاصمة مصر الثانية ، وعن المكان الذي نزله ، وهل وجد فيه راحته ، وهل تنقصه حاجة . . . ولما علم أنه يبحث عن مسكن قريب ، قال له إن فى العمارة التى يقيم بها مسكنين مناسبين خاليين . . . وعرض عليه أن يرشده إليهما . ثم عاد يسأله قبول مشاركته فى طعام غدائه ، وألح عليه فى ذلك . وقال إنه سيريه المسكنين بعد تناول الطعام الملهي على طريقة أهل الاسكندرية ، ولم يزل به حتى حمله على قبول دعوته .

خرجا معاً من ديوان المحافظة فى ميعاد انصراف الموظفين . وشرع عباس فى سرد قصة لا معنى لها . فشرد ذهن سامى وهو يتظاهر بالانصات ، ويجارى محدثه فى الضحك دون وعى .. عادت به ذاكرته إلى القاهرة . . . إلى نبيه وأحاديث نبيه . فقد حدثه ذلك الصديق الوفى عن الاسكندرية بمناسبة نقله إليها . . . حدثه عن شجاعة أهلها وقوة مراسهم ، وشدة تعلقهم بحريتهم . بل راح يحدثه عن تاريخهم القديم والحديث ، وينشر صحائف بطولتهم . . . راح يذكر تصديهم على مر الأحقاب للغزاة الفاتحين ، وكفاحهم فى سبيل ثغرهم الجميل ، وخوضهم المعارك الرهيبة ، وخروجهم منها مظفرين . . . وذكر فيما قال أن مصر تعتمد على حماة ساحلها الآمال الكبار . . . ثم طلب إليه أن يكون رسول جمعيتهم الوطنية إلى الاسكندرية ، وأن يؤسس بهذه المدينة القديمة الفتية فرعاً تابعاً لمركز الجمعية الرئيسى . . .

أمضه أن تخلف العاصمة الثانية ظنه . فهو لم يصادف واحداً من

شبابها الذين توقع الالتقاء بهم ، لقد سبر غور أخيه وأصدقاء أخيه من أول جلسة قضاها بينهم . وها هو ذا يري اليوم موظفى المحافظة يتجنبونه مرضاة لرؤسائهم الانجليز . . . وإذا كان عباس قد شذ عنهم فأي خير يرجي من مثل عباس ؟ ! . . . أين الجبابرة الذين ترامت إليه أنباؤهم ؟ ! . أين أولئك الذين عقد عليهم الآمال ؟ ! . أتراه لم يهتد بعد إليهم ؟ ! . أم تراه يقابلهم ولكنهم يخفون حقيقة ميولهم كما يفعل نبيه ولبيب ؟ . لا . . . هذا بعيد الاحتمال . . . فان صديقيه من طراز يختلف عن طراز من قابلهم حتى الآن .

مرت هذه الخواطر بذهنه في لحظات . وأفاق منها وهو يجتاز مع رفيقه عرض شارع رأس التين . واخترقا زقاقاً جانبيا ، ثم اجتازا شارع السكة الجديدة ، ودخلا شارع الجمرك القديم حيث يقطن عباس .

وشغل ذهن سامي ثانية بمهمته الوطنية . . ألم يقسم لصديقه نبيه أن يضطلع بها فور وصوله إلى الاسكندرية ؟ . . وهل هناك ضير فى الاستئناس برأى عباس فى صددها ؟ ! . . لم ترق له هذه الفكرة ، ولكن أى بأس فى السؤال ؟ ! . والتفت إلى رفيقه وسأله :

— ألا تهتمون هنا بالسياسة ؟ .

وصاح رفيقه كالمأخوذ :

— السياسة ! ! . لا يا صديقى . . لا تحدثنى عنها . نحن صديقان على شرط أن نتجنب حديث السياسة .

لم يكن سامي يقدر خصال رفيقه، ولكنه لم يأ نف منه إلا عقب هذا الرد ، فقد انكمشت نفسه ، وآثر أن ينفصل عنه لولا أن ذلك الهازل استطاع بضحكه أن يخفف وطأة رده وقد تحول إلى الجد فجأة وقال :

— أنا ماأصبت فى حياتى إلا الاخفاق . . . أخفقت فى مرحلة التعليم، فلم أتم المدرسة الابتدائية . وأخفقت فى مرحلة العمل ، فلم أحظ إلا بهذه الوظيفة المهينة . . . فهل ترضى أن أنحدر إلى حال أسوأ مما أنا عليه ؟ ؟ . . .

ولأول مرة يرى سامى الجد مرتسماً على الوجه الضحوك ! . . هل اعتاد المسكين أن يهزل ليدارى آلامه ؟ . . . أيحدثه عن الارتباط بين بؤسه وبين الاستعمار ؟ . . لا ، فهو يخشي حديث السياسة . . إن هذا الحديث لن يزيد الضعيف الخائر إلا جزعاً وحرجاً.

وصرفته عن خطرات فكره لفتة إلى ما حوله . . . لم تكن الحوانيت التى فى شارع الجمرك كسائر الحوانيت التى عهدها ، فقد تكدست حول أبوابها سلع لا عهد له بها . شاهد أدوات الملاحة وصيد الأسماك لأول مرة. كانت أطواق النجاة من الغرق معلقة فوق الأبواب وقصبات الغاب بخيوطها وشصوصها ومطماتها قائمة مسندة إلى الجدران ، والسلال والزنابيل والأكياس والحبال وأقمشة الشراع مكدسة على الافريز . . . شغل سامى بهذه المعروضات ، وطفق يستفسر عن كل صنف منها وكيف يكون استعماله ! وجنح كعادته إلى الخيال فتصور أولئك الرجال الذين لا يخشون ركوب البحر الرهيب . . . أولئك الجبابرة الذين يتحدون الأمواج الهوج . . . لم يكن أولئك الرجال بعيدين عنه ، فهو لم يلبث أن رأى جماعة منهم تجلس أمام مقهى على بعد خطوات . . . رأى أكمام الجلاليب ملتصقة بالسواعد البارزة العضلات . فناجي نفسه : هنا تكمن قوة الشعب . . . ولكن . . . من يطلقها من عقالها ! من يدفعها إلى الكفاح ! من يقودها إلى النصر ! . .

أنس إليه عباس أثناء تناول الغداء ، فحدثه عن زملائه في العمل . حدثه عن استكانتهم للضباط الانجليز الذين ينفردون دون المصريين بادارة شئون المحافظة . وأمعن في الحديث فقال : إن الضابط اليافع الذي قابله سامي في الصباح كان منذ ستة أشهر مراسلة للحكمدار ، يقف ببابه ، ويقوم على خدمته . . . فاذا هو يحضر إليهم ذات صباح في زي ضابط ، تلمع الأنجم على كتفيه . ومنذ ذلك اليوم صار رئيسهم المتحكم في الرقاب ، وحرص على أن يمحو بالصلف والارهاب ذكري ماضيه القريب . . وتعلق خيال سامي بالسواعد البارزة العضلات . . وطفق عباس يردد .

— أين وجه الأمل ؟ . إن الحالة تزداد سوءاً . . . ولا مجال لأمل أو تفاؤل . . .

عاد سامي في الهزيع الأول من الليل إلى غرفة أخيه فوجد بابها مقفلا . وعاد إلى المقهي فوجده يجلس حيث جلس بالأمس ، ويستأنف لعب الورق محاطاً بالأعين المنهمكة في تتبع تقلبات الحظ . وتولاه إشفاق عميق على العمر الثمين الذي يتبدد في مثل هذا المكان الآسن . وعاد يتساءل عن آماله . . . أهي أوهام ؟ . . أيرجي أي خير من أمثال هؤلاء ؟ . . أقضي اليأس على الشباب المتعلم فأصبحت جموعه على غرار أخيه وزملائه ، ؟ .. وكيف يستيقظ ذوو العضلات القوية إذا لم تسبقهم الجموع المتعلمة إلى اليقظه ؟ ! . .

أخبر أخاه وهما في طريق العودة إلى الغرفة أنه استأجر مسكناً ذا ردهة وغرفتين في شارع الجرك القديم ليسكناه معاً . وأنه كتب إلى والدته يستقدمها لتقيم معهما ولم يرجع اليه قبل إبرام عقد الايجار ثقة منه

بأن السكني إلى جوار البحر ستشوقه . ولم يجهل أن أخاه سيرفض التخلى عن غرفته ، ولكنه توقع منه التلطف فى الاعتذار ، فآلمه ألا يرعي الأخ رابطة الأخوة وعاطفة الأخوة ، وأن يجيبه بغير مبالاة :

— لقد أصبح لى فى هذا الحى أصدقاء استطبت عشرتهم ، ولا أحب أن ابتعد عنهم .

الفصل الثالث عشر

لم يكن سامى دقيقاً فى قوله لأخيه إنه كتب خطابا لأمه ، فالواقع أنه كتب خطابه لصديقه نبيه طالبا إليه أن يساعد أمه على شحن أثاث البيت بقطار البضاعة ، ومرافقتها إلى محطة السكة الحديدية ، وملازمتها حتى يطمئن إلى ركوبها قطار الاسكندرية .

وعزفت نفسه عن الرجوع إلى غرفة أخيه ، فاستعار من عباس حشية ووسادة طرحهما بأرض إحدي الغرف بمسكنه الجديد ، وآثر أن ينام وحده على هذه الحال . ولم تمض أيام حتي تعرف إلى كثيرين من جيرانه ، ولكنه لم يتعلق إلا بواحد منهم .. رجل اسمه عبد اللطيف البشبيشى ، يكبره بخمس عشرة سنة ، قصير نحيف ، دمث الخلق ، جم الحياء . يملك مدرســـة ويديرها ، ويتولى تدريس الانجليزية لتلاميذها . ولم تمر على هذه الصلة مدة وجيزة حتي وقف سامى على كثير من طباعه وميوله وآرائه . بل وقف كذلك على طرف من تاريخ حياته . كان مدرس اللغة الانجليزية شديد الكراهية للانجليز . وكانت ذكريات شبابه تؤجج وطنيته ، فقد شهد موقعة الاسكندرية وهو صبى ، وشاهد البيت الذي ولد فيه وترعرع فيه ينقلب إلى خرائب

يتصاعد منها الدخان ، والأرض الفضاء المجاورة التي كانت ملعب صباه، تتحول إلى حفر وأكوام من الأتربة والأنقاض . واشترك مع أقرانه الصغار في تكوين عصبة توهمت في نفسها القدرة على مقاومة المعتدي، وتجول معها في أنحاء المدينة بحثاً عن العدو المهاجم . ورأى أثناء تجواله الخراب ماثلا في كل مكان ، وجثث القتلى المعفرة غارقة في الدماء اللزجة المتسودة . . ولكن المشهد الذي لايزال يلتهب في ذاكرته إلى اليوم هو احتراق مدينته الحبيبة . . هو الحريق المروع الذى أشعله المعتدي في كل ناحية من المدينة ليغرس في قلوب الناس رعباً لاتمحوه الأيام .

أقسم حينذاك على الانتقام . . ولكن ماالذى يستطيعه صبي في سنه ؟ . . بل ماالذي يستطيعه أي فرد أو أفراد لاتعاونهم الجموع؟.. ومرت الأيام ثقيلة كريهة قويت أثناءها قبضة الغاصبين على الرقاب ، وكاد اليأس يساوره حين أبصر التخاذل يستحوذ حتى على المجاهدين، والحال تسير من سيء إلى أسوأ . . ولم يهتد إلى وسيلة للخلاص إلا بعد نضوج سنه ... فطن حينذاك إلى أن العدو لم ينتصر على مواطنيه إلا بتميزه عنهم علماً ودراية ، فآمن أن وسيلة الخلاص تنحصر في الاعتماد على العلم والمعرفة . ورأي أن يبادر إلى المساهمة في هذا المضمار بنصيب على قدر طاقته . فأنشأ مدرسته ، ولم يتردد أو يتوان عن تأدية رسالته .

في صباح يوم جمعة زاره كل من سامي وعباس ، ودار الحديث حول مدرسته ، والخدمة الجليلة التي يؤديها لأبناء الاسكندرية بتحدي السلطة الحاكمة التي تضيق الخناق على التعليم . فقال وقد أخجله المديح:

— أنا أساهم في خدمة بلدى على قدر جهدى . وأعترف أنى كثيراً ما شككت فى قيمة هذا الجهد . . . وكثيرا ماشعرت بالعجز .

وعاود سامى إيمانه القديم بمهنة التعليم ، والآمال التى بناها عليها حين التحق بمدرسة المعلمين الليلية ، وقال وهو غارق فى ذكرياته :

— من المصادفات أنى فكرت منذ زمن يا أستاذ فيما فكرت أنت فيه . وعولت على احتراف التدريس ،وبت معتقداً نى فى النشء ، والتحقت بمدرسة ليلية لتلقن هذا الفن ، فلم يحل بينى وبين المضى فى تلك السبيل إلا نقلى من القاهرة .

وسأله عبد اللطيف فى اهتمام :

— ولكنك لم تذكر لى شيئاً من هذا! . أقطعت شوطا فى تلك الدراسة ؟

— إنى لم أقض بمدرسة المعلمين غير ثلاثة أشهر . .

— مادمت تميل إلى التدريس فماذا يدعوك إلى البقاء في وظيفتك الحالية؟!

— لأنى لم أحصل على شهادة تؤهلنى له .

— وما قيمة الشهادة المدرسية ؟ . . إنك أتممت دراستك التجهيزية ، أليس كذلك ؟ . .

— نعم .

— إن التدريس فن لا يلقن في المدارس ، وإنما يحتاج لميل إليه ، ومران عليه . فهل تود المران عليه فى مدرستى ؟ .

وحار سامى بين شكه في صواب قول عبد اللطيف، والأمل الذى أخذ يراوده .

— أتظننى كفئاً لهذه المهمة الجليلة ؟ . .

وخرج عباس عن صمته وصاح :

— عمّ تتحدثان ؟.. ما هذا الذى تعرضه عليه ياعبد اللطيف أفندى؟ أيترك وظيفة الحكومة ليلتحق بعمل لا استقرار فيه، ولا مستقبل له؟.

وأجاب سامي مستخفاً :

— الحق أن رؤسائى الانجليز يكفلون لى الاستقرار فى وظيفتى الحكومية، ويعدون لى مستقبلا باهراً ! !

واستدرك عبد اللطيف :

— أنا لم أشر عليك ياسامي بترك وظيفتك منذ الآن، ولكنى قصدت أن تجرب التدريس فى ساعات فراغك من عملك . وسأعد لك طعام غدائك بالمدرسة كل يوم لأوفر لك الوقت . . . سنجاهد معاً فى سبيل عقيدتنا .. .

وصاح عباس وهو لايستطيع كتمان استهجانه :

— أية عقيدة ! ! أتعلقان هذه الأهمية على تعليم الصبية ؟ ! أتظن ياعبد اللطيف أفندي أنك تستطيع طرد الانجليز بتعليم حفنة من الأطفال الأبجدية ؟! . .

واستغرق فى ضحكه المعهود . ولم يغضب عبد اللطيف ، ولم يحاول دفع سخرية محدثه بمثلها . وأجاب ببساطة :

— سيصبح هؤلاء الصبية عما قريب رجالاأقوياء بأخلاقهم وعلمهم . إنى أبث فيهم منذ صغرهم التشبث بالكرامة ، وحب التزود من العلوم والآداب .

وسأله سامي :

— أى نوع من الآداب ؟ فهى متعددة الأبواب ... منها الغث ، ومنها الثمين ، ومنها النافع ، ومنها الضار ...

وفوجىء عبد اللطيف بهذا السؤال ، وقال بعد حيرة :

— الحقيقة أنى لم أفكر فى هذه التفاصيل . . . وعلى أية حال فهى سابقة لأوانها . فأنا أكتفى اليوم ببث حب الاطلاع فيهم على إطلاقه.

وأشعت فى ذهن سامى على حين فجأة خواطر أخذت تتجمع وتتزاحم.

— ولم لا نفكر فى هذا الأمر من الآن ؟ . . لم لا نتداول ونضع منهجاً للاطلاع ؟ لم لا نكون جماعة تحث الشباب على القراءة ، وتختار له الكتب التى تفى بأغراضنا ؟ . .

وقال عباس مستغرقا فى الضحك :

— أية قراءة ياإخوانى ! . . إن الناس يبحثون اليوم عن لقمة العيش..

فأجاب سامى :

— إن العلم هو الذى يعين على الكسب ، ويرفع مستوي المعيشة .

وحاول عبد اللطيف تحديد الفكرة على طريقة المدرس :

— بل إن العلم عدو الاستعباد . . . وفى ظل التحرر يتوفر الكسب، ويرتفع مستوى المعيشة . . . إنى أؤيد فكرة تكوين هذه الجماعة بكل ماأملك من قوة .

وخفت ضحكات عباس ثم تبددت ، وقال وقد بدت عليه سيماء الجد.

— ولكن كيف يفيد أمثالى من هذه الجماعة ؟ .. نحن أكثرية الشباب لم نتعود قراءة الكتب ، ويصعب علينا اليوم فهمها ، فهل نجد منكم العون والارشاد ؟

وأجاب عبد اللطيف وسامي معا :

— بالطبع . .

— أرجو إذن أن تسارعا إلى تكوين تلك الجماعة . خذا بيدى ، وأضيئا

في طريق المعرفة . فقد سئمت حياتي الفارغة . . .

واتفقوا على أن يتخير عبد اللطيف الأعضاء المؤسسين للجماعة ، وأن يتم أول اجتماع لهم بردهة دار سامي صباح يوم الجمعة التالى . وكاد هذا الحديث ينسى سامى موعداً هاما . كانت والدته حينذاك في طريقها إلى الاسكندرية مستقلة القطار الذى يصل إلى محطة الثغر في الساعة الواحدة بعد الظهر . وقد أزف ميعاد وصوله ، فانصرف مسرعاً ليصل إلى المحطة قبله . وتأمل أثناء الطريق ما قيل . ثم تذكر جمعية القاهرة الوطنية ، وحماسة أعضائها ، وتشوفهم إلى العمل السريع الحاسم . . . وتذكر كذلك تعهده لنبيه بأن يؤسس فرعاً للجمعية بالاسكندرية ، وأن يضرم النار في صدور أبنائها ، ويدفعهم إلى العمل . فهل يتمخض العهد الذى قطعه على نفسه عن تكوين جماعة تعتمد على النشء ، وتنتظر أن يحققوا أغراضها يوم يكبرون . وتشتد سواعدهم ؟ ! . . . لن تقابل هذه الفكرة من زملاء القاهرة إلا بالسخرية . . . وساوره القلق والارتباك . . . ولكنه عاد يطمئن نفسه بأن الاهتمام بالحاضر لايحول دون الاهتمام بالمستقبل . وأن إعداد الجيل الناشيء للكفاح لا يقل أهمية عن بث روح الجهاد في الجيل الحاضر . . . ولكن هل يقتنع نبيه وإخوانه بهذه الوجهة من النظر ؟ ! . . على أن الجماعة ستعمل على نشر الثقافة ، وهذا مسعى له من غير شك أهميته . . . ألم يقل نبيه إن الكتب أثمن ذخر في الوجود ؟ . . ودق جرس المحطة حينذاك إيذاناً بقدوم القطار ، فأراد أن يهتدى إلى حل لهذا الاشكال قبل أن يشغل باستقبال أمه . وراح خاطره يسابق القطار المزمجر المتصاعد الدخان ، ويحاول الوصول إلى

الحل المنشود قبل وصوله . واستراح بعد كد ذهنه إلى فكرة كانت قد خطرت له قبل ذلك فلم يطمئن اليها . زعم لنفسه أنه سيتمكن من تحويل تلك الجماعة الثقافية إلى جمعية سياسية .

* * *

بينما كانت العربة تخترق به وبوالدته ميدان المنشية في طريقها من المحطة إلى منزلها . طلب من سائقها أن يعرج على طريق الميناء الشرقى حتى يتيح لأمه رؤية البحر العجيب . وكانت تحدثه عن سنية ، وتقلب الماضى ، وتثير الذكريات الأليمة . قالت إن عبد المنعم قرر أن يعقد عليها فى أول يوم خميس من مارس المقبل ، وأن تزف أخته نعمات إلى عريسها المسن المهدم فى نفس ذلك اليوم . ولم تستطع الفتاتان المسكينتان أن تقاوما إرادته . . .

وغير سامى مجرى الحديث بقوله ، وقد انكشف البحر أمامهما :

— انظرى يا أمى . . . ما رأيك فى هذا المنظر المدهش ؟ . . .

— مدهش فعلا . . . لقد أخبرني أحمد أنها تقضى يومها حبيسة فى غرفتها . وكثيرا ما يتصاعد نشيجها فيملأ البيت . وهى ترفض الخروج مع أمها لتتخير جهازها .

ودار سامى بوجهه عن البحر إلى أمه ، وقال :

— أمى ! . . إن هذا الحديث يمزق قلبى .

— ... ويخلق ما لا تعلمون ياولدى .. لقد أقسم أحمد أن يفسد حفل الزواج . . إن فتيان الحى يأتمرون بأمره . .

— ما هذا القول يا أمى ؟ ! . . أدفعك اليأس إلى التعلق بمثل هذه الأراجيف ؟ ! . .

— أنت لم ترها فى الأيام الأخيرة . . ولكنى رأيتها ، وشعرت بما تعانيه . لقد صعدت إلىّ أمس لتودعنى ؟ فهالنى ذبول خديها وعينيها. قالت لى والدموع تترقرق من مآقيها إنها لن تتردد لحظة عن اللحاق بنا تلبية لأقل إشارة منك .

وسرت الرجفة فى أوصال سامى :

— كيف تعرضين علىّ هذه الفكرة ياأمى ؟ . أتوافقين على خروجها عن طاعة أمها ؟ . . ليست سنية التى تقدم على مثل هذا . . .

— أنت على حق ياولدى . ولكن خضوع أختى لذلك الرجل الغريب وابنه أخرجنى عن طورى . . لم أطق الصبر على تضحيتها بابنتها وابنى فى سبيل إرضاء هذين الدخيلين .

— ولكن ما الحيلة ؟ . . أنستطيع مقاومة القدر على ضعفنا ؟ ؟ . . انظرى ياأمى . هذا شارع الجمرك القديم .. وهذه دارنا..قف ياسائق إلى جوار هذا الباب .

كان سامى يحاول أن يقنع نفسه كعادته بأن محنة مصر أولى باهتمامه من محنة سنية ، ومن خلجات قلبه . . ولكن قلبه مع ذلك لم يطاوعه ، وضميره لم يهدأ ، وخاطره لم يخل لحظة من صورة سنية الحزينة الباكية . وقد ظل بعد ظهر ذلك اليوم نهباً للذكريات الأليمة والخواطر الشجية ، والعواطف الثائرة . واضطر إلى مغادرة المنزل ، وترك والدته يوم لقائها بعد طول الغياب هروباً من عينيها الفاحصتين اللتين لم تكفا منذ وقعتا عليه عن مراقبته والتغلغل إلى أعماقه .

الفصل الرابع عشر

استيقظ سامى في صباح اليوم التالى هادىء النفس ، فقد تشرّب النوم لهيب تلك اللوعة التى انتابته أمس . وقضى الصباح فى مكتبه يتعجل ميعاد الانصراف ليتوجه إلى مدرسة عبد اللطيف . وأزجي الوقت بتصور العمل فى تلك المدرسة ، والتعلل بالنجاح فيه ، والتعلق بأمل الخلاص من عمله الحاضر . وراقبه عباس صامتاً مشفقاً . فقد أدرك نيته ، وحاول أن يبذل مجهوداً أخيراً ليثنيه عنها . ولكن التحدث إليه فى مثل هذا الأمر لم يكن ميسوراً بين الموظفين . بل إنه أقلع فى الأيام الأخيرة عن محادثته خلال العمل حتى فى معتاد الأمور، فقد أخبره أحد السعاة أن الوشاة أبلغوا الرئيس الانجليزي بتوثق صلة الود بينه وبين ذلك الثوري ، فأزعجه هذا النبأ الذى لم يتوقعه ، فهو لم يتصور أن يعلق أحد أية أهمية على مثل هذه الصلة .

لحق بصديقه بعد انصرافهما من ديوان المحافظة ، وابتعادهما عن بقية الموظفين ، وسأله بعد أن خلا بهما الطريق .

— أعقدت عزمك على ترك خدمة الحكومة ؟ . .

— لا ، فأنا مازلت مترددا . وسوف أستقر على رأى بعد أن أختبر العمل فى المدرسة .

— لا تعتمد على تلك المدرسة ، فسيغلق الانجليز أبوابها كما أغلقوا أبواب غيرها من معاهد العلم .

— وهل أعتمد على وظيفتى هذه ؟ ألست معرضا للفصل منها كما وقع لغيري من الوطنيين ؟ . .

— لن تتعرض للفصل ما دمت لا تستثير غضبهم . .

— لاضمان لبقائى فيها إلا إذا استهنت بكرامتى ، وخنت مبادئى . . . وخضعت لهم .

— لاتلجأ إلى مبالغاتك . فأنالا أطلب منك إلا الابتعاد عن مدرسة عبد اللطيف .

— ولم ذاك ؟ . .

— لأنها موضع شبهة . وستعرضك صلتك بها للمتاعب . فأرجو أن تفكر ملياً فيما أنت مقبل عليه .

— ألم تقل أمس إنك ضقت بحياتك الحاضرة ، وتقت إلى التزود من العلم لتستطيع شق طريق جديدة . فكيف تطلب إلىّ اليوم الحرص على وظيفتى الحالية ؟

— لا تعتدّ بالأقوال ، لا سيما التي ينفس بها الانسان عن ضيقه . إن طريق الحياة شاق ، ويجب أن نجتازها على حذر . عدنى أن تتدبر ماقلته لك .

— أعدك .

وقصد سامى بهذه الاجابة المقتضبة حسم النقاش . وأسرع بعد تركه لصديقه إلى المدرسة . وساورته فكرة تعرضها لاغلاق أبوابها . وامتلأ رأسه بهواجس لم يفلح فى الخلاص منها . وتحول تذمره من الانجليز إلى التذمر من نفسه . لقد أوشك أن يغدو هيوباً رعديداً كعباس ! . . ألا ماأصعب التحرر من ربقة المتحكين المستغلين ! ! . . ولم ينقذه من وساوسه إلا وساوس جديدة كانت تنتظره فى المدرسة .

فوجىء وهو يعبر عتبتها بمـا أرعد فرائصه . رأى رجلا أشبه

برئيسه الضابط الانجليزى يجتاز فناءها . . . وذهل إذ شاهده يدخل أحد الفصول محاطاً ببعض التلاميـذ الفرحين بمقدمه ، المستبشرين بوجوده بينهم . وعلم من فرّاش المدرسة أن هذا الغريب من أعضاء هيئة التدريس ، وأنه انجليزىّ الجنسية ! ! . .

استقبله عبد اللطيف مرحباً ، ولاحظ عليه اكفهرار وجهه ، فسأله عما به ، ولـكنه لم يغلظ عليه فى السؤال إذ رآه يؤثر الصمت .. وجلسا إلى مائدة الطعام فلم يقبل سامى عليه . وأخذ يكد ذهنه لعله يجد تفسيراً لتلك المتناقضات . كيف يفتح عبد اللطيف باب مدرسته لهذا الانجليزى ؟ ! . كيف يأمنه على أولئك الصبية ؟ ! وكيف تعلق به الصبية ذلك التعلق الذى بدت له شواهده ؟ ! لا بد أن هذا المخادع قد استطاع أن يوهم كل من فى المدرسة أنه حرّ يكره الاستعباد ولو وقع من بنى جنسه . . . ولـكن كيف ينخدع عبـد اللطيف فيه ؟ ! كيف يطمئن إليه ؟ ! ألا يكون جاسوساً ينقل أخبار المدرسـة إلى المحافظة ؟ . . وانكمشت نفسه جزعاً وألمـاً .

دخل فصـل الفرقة الرابعة الابتدائيـة نيابة عن عبد اللطيف ، فوجد بعض تلاميذها فى مثل سنه ، فارتاح إلى وجود طلبة تمـكنهم سنهم من فهم ما كان ينوى تلقينه لهم من آراء ومعتقدات . وأراد أن يبدأ مهمته بالوقوف على معلوماتهم وإدراكهم ، فسألهم عن مبلغ علمهم بالاحتلال الانجليزىّ ، وانهـالت عليه الأجوبة ، وتأججت الحماسة ، واختلطت الأصوات . ولم يتمكن من إعادة النظام إلا بعد مشقة . واستمع إلى أجوبة المتحمسين واحداً بعد واحد . وأدهشه أن يجد أولئك الأحداث يلمون بأهم الـكوارث التى دهمت بلادهم .

لم يجهل واحد منهم الأساليب التى مكنت المحتل من الرقاب . لم يجهلوا أن الخديوى الذى أقبل الدخلاء لحمايته كان أداة طيعة لتنفيذ أغراضهم، وأن الباشوات والسراة تسابقوا إلى السادة الجدد ليفوز كل سابق بأسمن صيد . فتربع سفلة الصنائع فى كراسى الحكم ، ولم يترددوا فى تلبية رغبات المستعمرين ، وإصدار المراسيم التى قضت على البقية الباقية من مقاومة الأباة . . مراسيم إلغاء الدستور ، وتسريح رجال الجيش والبحرية ، وإغلاق المصانع على اختلاف أنواعها ، وإخلاء السودان .. فاذا الشعب يفيق من كارثة الهزيمة العرابية ليجد نفسه مجرداً من كل حول . . . بل إن أولئك التلاميذ كانوا يلمون كذلك بطرف من سياسة انجلترا الاستعمارية . لقد فطنوا إلى الحبائل التى نصبتها لتبرير اعتدائها على السيادة المصرية ، والمفتريات التى أدخلت فى روع الأمم أن الحركة العرابية قامت على التعصب الدينى ، وكراهية الأجانب ، وتبييت النية على اغتيال حقوقهم ، وأن جيش الاحتلال هو وحده الكفيل بحماية الأجانب ، وصيانة حقوقهم ومصالحهم . . .

ولم تثلج الفرحة صدر سامى ويعاوده الاطمئنان إلا حين سأل عن المدرس الانجليزي ، ووقف على حقيقة أمره . عرف أنه عدو مثله للانجليز . فهو إرلندي يدعى ماكنيل ، احتلت انجلترا بلاده كما احتلت غيرها من الأقطار . كان أبوه عضواً فى جمعية « سين فاين » الثورية التى هبت فى إرلندا لمقاومة الغاصبين بالحديد والنار ، ولقى حتفه فى موقعة دارت بين جماعته وشرذمة من جيش الاحتلال ، فتضاعف حقد الابن على القتلة المعتدين .

توجه بعد خروجه من الفصل إلى غرفة عبد اللطيف ، وصادفه

ماكنيل هناك . فاذا قلبه يتفتح لذلك الرجل بعد الانقباض ، وإذا الوجه الذى كان عقت طرازه يبدو في عينيه جذاباً . فهو لم يلحظ قبل اليوم حسن البشرة الوردية ، والعينين الزرقاوين ، والشفتين الرقيقتين. وهو لم ير مثل هذا الوجه يتحلى بالبسمات العذبة ، والنظرات الودية .

لم تزد المعرفة بينهما على التحيات الطيبة ، والبسمات العذاب . فقد انصرف ماكنيل على عجل لارتباطه بموعد سابق . وحدث سامي صديقه عبد اللطيف وهو يضحك عن إساءة ظنه بالارلندى ، وعن المفاجأة السعيدة التي فوجىء بها فى الفصل ، وكان الفضل فيها يرجع إلى ذلك الحر الثائر . لقد رأى أولئك الصغار كبار العقول والقلوب ، يعرفون من أمور بلدهم ما لا يعرفه كثيرون من أدعياء المعرفة والوطنية.

ولفتت نظره أصونة الكتب التى كانت تحجب جدران غرفة عبد اللطيف . وقام اليها وطالع أسماء بعض كتبها المذهبة الغلاف ، فوجد أكثرها يتناول الثورات على الاستعمار . واستعار منها كتابين أحدهما عن الثورة الايطالية ، والثانى عن المقاومة السرية الايرلندية .

لم يكتمل الاسبوع حتى عرف سامى جميع زملائه المصريين ، ووقف على الكثير من طباعهم ومعتقداتهم ، وتكشفت له مزايا الارلندي الواسع الاطلاع . كان هذا الاخير ملما بالأحداث الدولية ، واقفاً على مختلف التيارات السياسية والفكرية ، محيطاً بخفاياها التى لا تتجلى إلا لمدقق ممحص لا يأخذ الأمور على عواهنها ، ولا يبنى أحكامه على ظواهرها ، بل يربط بين بعضها وبعض ، ويبحث عن دوافعها ومراميها القريبة والبعيدة . وكثيراً ما تساءل سامى وهو ينصت إلى أحاديثه عن سبب تميز الأوربى المثقف عن نظيره المصري . أهو

تميز عقلى أصــيل كما يزعم متعصبو الأجانب ؟ . أم هى مرانة على التنقيب والتدقيق أتاحها أسلوب تربيته وتعليمه ، والصــفات التى تأصلت فى أفراد بيئته ؟ . وكان ممن استأثروا كذلك باهتمامه مدرس يدعى اسكندر نوار ، طويل جاحظ العينين ، أبيض البشرة ، غزير الشعر ، تبدو ذقنه خضراء وهى حليقة . لا يحاول ضبط انفعالاته ، ولا يقتصد فى التعبير عن عواطفه . يكيل السباب للانجليز ، ويقدس مصطفى كامل ، ويعقد الآمال على السلطان وقرب هبوبه لنصرة مصر. وشعر سامى كذلك بميل إلى مدرس آخر ، أسمر اللون بشوش الوجه لطيف الاشارة ، اسمه محمد حبيب ، لا يحتد إذا غضب ، ولا يعبر عن غضبه إلا بالسخرية البارعة ، والتورية اللطيفة . ولــكن أعجب من عرفه سامى فى المدرسة هو فراشها السودانى ، اللامع الوجه ، المدعو مبارك مرجان . كان فراشاً وطالباً فى نفس الوقت ، إذا فرغ من مهام عمله أكبّ على كتبه وكراساته . وقد اشتهر بحرصه الشديد ، فهو يقتات على فضلات طعام المدرسين ، ويقبض يده فلا ينفق شيئاً من مرتبه ولا مما يجود به الخيرون ، زاعماً أنه سينشيء عما قريب مدرسة أرقى من مدرسة عبد اللطيف . كان ينظم الشــعر ، ويدبج البحوث فى السياسة والأدب ، ولا يفت فى عضده نقد اسكندر نوار ، ولا سخرية محمد حبيب .

لم يجد سامى خلال الأسبوع متسعاً من الوقت لتلبية رغبة أمه فى زيارة ابنها كامل ، فوعدها أن يصحبها إليه بعد الظهر من يوم الجمعة التالى . وقد أنقذتها من هواجس وحدتها زيارات زوجة عبد اللطيف وأخوات عباس ، ووجدت فى صحبتهن أنساً ومتعة لم يكن لها بها

عهد في القاهرة ولم تعد تذكر سنية وأشجانها إلا حين تأوى إلى نفسها في المساء .

وكاد سامي ينسى الجنس اللطيف المتواري خلف الأبواب الموصدة . ولم يعد يذكر سنية إلا إذا سمع الضحكات الموسيقية تتسرب إليه من وراء الحجب ، أو إذا تطلع مصادفة إلى إحدى النوافذ فشاهد عينين سوداوين ساحرتين تختلسان النظر إليه ، ثم تجري صاحبتهما فتحتجب في سرعة خاطفة . . . كان يتنهد حينذاك ، ويعتصر الألم الممض قلبه .

الفصل الخامس عشر

توافد على سامي أصدقاؤه صباح يوم الجمعة وفق الميعاد المتفق عليه . وكان عباس أول القادمين ، ثم لحق به عبد اللطيف . وبكر ماكنيل كذلك في الحضور ، وتبعه زملاؤه المدرسون ، وبعض أصدقاء عبد اللطيف . وقد استطاع الارلندى بقدرته على تحديد موضوع الجدل ، وإبراز خطوطه وأهدافه أن يهيمن على المناقشة ، ويصبح قبلة الحاضرين .

دار النقاش بادي بدء حول اختيار اسم للجماعة ، ثم رؤى التريث حتى تحدد مهمتها فيختار لها الاسم المناسب . وعرض عبد اللطيف على الحاضرين أن تتخذ الجماعة مدرسته مقراً لها على أن يكون اجتماع أعضائها بعد موعد الدراسة ، وأن يتبرع بكتبه لتكون نواة مكتبة كبيرة تؤدي الغرض المنشود . وتساءل بعض الحضور عن ذلك الغرض المنشود ؟ أهو يقتصر على توفير الكتب لتثقيف أعضاء الجماعة ؟ أم يتعداهم إلى كل راغب في الاطلاع ؟

واستأذن ماكنيل فى الكلام ، وتطلعت إليه الأنظار . قال بلهجة عربية ركيكة تشوبها لكنة أجنبية :

— أأستطيع أن أقف على غايتكم ؟ . أهى سياسية أم ثقافية ؟ .

فأجاب عبد اللطيف دون تردد :

— الغايتان معا .

ولم تفحمه هذه الاجابة ، فعاد يسأل فى تؤدة :

— أيهما الأساسية ؟ أهي الثقافية أم السياسية ؟

وشعر الحاضرون بالحرج ماعدا سامى الذى جدد هذا السؤال أمله فى إنشاء جمعية سياسية ، فقال متحمساً :

— الغاية السياسية .

ولم يعترض أحد . بل ارتاح الجميع لهذه الاجابة . وتطلعوا إلى ماكنيل ليتبينوا مقصده من سؤاله . وأرهف سامي أذنيه حين استطرد الارلندى :

— يجب إذن تركيز الجهد فى هذه الناحية . يجب تزويد الأعضاء بثقافة سياسية ، وتدريبهم على الكفاح السياسى . والصعوبة التى تعترض تلك السبيل هى اختيار الكتب التى تفى بهذا الغرض .

قال سامى مستعينا باشارات يده لدعم قوله :

— لاأرى وجها لأية صعوبة . فالمكتبات الأجنبية زاخرة بسير البطولة ، وأخبار الأمم المنافحة عن استقلالها . . .

وتتبع اسكندر النقاش محلقاً فى المجادلين بعينيه اللتين زادتا اتساعاً وضاق بقول سامى الأخير ، فاعترض عليه بصوته القوي :

— لم تخص المكتبات الأجنبية ؟ أليست المكتبة العربية زاخرة بقصص

وخشي سامى أن يرمي ماكنيل أصحابه بالتعصب ، فدفعه ذلك إلى المبالغة فى قوله :

— الأدب العربى ، وعلى الأخص شعره ، وهو أهم ألوانه ، لايتناول إلا الأفراد والأحداث المحلية . هو أدب عاطفة ذاتية أوحماسةقبلية. أدب أثرة وتعصب ومصالح خاصة ، لايكاد المطلع عليه يتبين الطابع القومي العام ، أو يقف منه على صور كلية شاملة حتى لأمجاد الدولة العربية الاسلامية وكفاحها فى سبيل نشر ثقافتها . . .على أنى لاأنكر جماله الفنى ، وصدقه فى تصويره الواقعى للبيئات المحلية . ولكننا نحتاج اليوم إلى لون جديد من الأدب . . . نحتاج إلى الأدب الذى يتغنى بالذود عن حرية الشعوب . . .

وكان ماكنيل يتحفز للكلام ، فقال حين انتهي سامى من عبارته الأخيرة :

— إن أهل الفكر ، ومن يعدون أنفسهم لقيادة الحركة الوطنية ، فى أشد الحاجة إلى ثقافة سياسية ، إلى فهم مختلف المذاهب الفكرية . فلا بد من تزويد مكتبتكم بأكبر عدد من الكتب المشتملة على تلك البحوث ، لتقبل جماعتكم على دراستها والافادة منها . ولا بأس من اختيار كتب أدبية سليمة ، سواء فى ذلك الشرقية والغربية ، ليطلع عليها عامة القراء .

واشتد تحمس سامي لرأيه :

— الكتب الشرقيه تعود بنا إلى الماضى . . . تشدنا إلى الوراء ، ونحن نحاول التحرر من قيود الماضى لننطلق إلى الأمام . . . ونبنى

خير مستقبل .

وأجاب ماكنيل مغضياً مشفقاً أن يتهم بادعاء العلم :

— وعلى أى أساس سيبنى المستقبل ؟ . . إن بناءه يقوم على أساس الماضي ، وليس تقدم الحضارة إلا تحسيناً للماضي ، وتلافياً لأخطائه .

وبالغ سامى فى عناده :

— نريد أن نبنى مستقبلنا الثقافى على الفكر الغربي ، والأدب الغربي . إن كل قطرة من دمى تثور على الاستعمار ، ولكن هذا لا يصرفنى عن الاعتراف بما أحرزته الدول الاستعمارية من سبق في المضمار الأدبى والفنى .

ولم يتمالك ماكنيل أن ابتسم ابتسامة ساخرة وقال :

— مهلا ياصاحبي . . . فلعلك مخدوع فى الأدب الغربى . . . لست أنكر أنه يمتاز بالأسلوب العذب البارع ، والمعنى الشيق الباهر ، والموضوع المسبوك المحبوك . ولكنه على الأغلب ينطوى على سم زعاف يفتك بالشعوب المغلوبة على أمرها . فهو صورة حية لأحلام الرأسمالية الغربية . . . هو تعبير صارخ عن نزعتها الاستعمارية .

حملق الحاضرون فى الارلندى الحر مبهوتين . فقد كانوا على وطنيتهم المتأججة معجبين بآداب الغرب وفنونه . . . بل إنهم كانوا يعلقون عليها كبار الآمال فى إنهاض أمتهم . . . ولم يملك بعضهم أن يفسر حملة ماكنيل عليها إلا بأنها تنفيس عن حقده المتأجج على الاستعمار ، وانبرى سامى يدافع عنها متحمساً :

— لا تغمط فضل أولى الفضل ، فإن أعلام الأدب الغربى هم حملة الحق والعدالة . هم الذين ذادوا عن الأفراد والشعوب شر الظلم والاستغلال .

هم الذين لم ينفكوا يتغنون بالحرية . . . وبأسمى المشاعر الانسانية .
— إنهم يعبرون عن مشاعر طبقتهم التي انتزعت السلطان من أيدي أمراء الاقطاع ، وشيدت النظام الرأسمالي على أنقاض النظام الاقطاعي الدائل . فالحرية التي يتغنون بآلائها هي التي فازت بها طبقتهم بعد طول الاضطهاد والاستعباد .
— وأي بأس في هذا ؟ ألسنا نكافح الاستعباد كما كافحوا ، ونحاول الفوز بمثل الحرية التي فازوا بها ؟ . . . ألا ترى أن أغاني الحرية المنتصرة تحفز هممنا ؟ .
— مهلا ياسيدي . فقد اكتسبت الحرية عندهم معنى جديداً بعد فوزهم بها . لقد أصبح أدبهم يشيد بحرية الصراع في سبيل القهر والسلب .. حرية الفتح والغزو . . . حرية البحار والأسواق ليتمكن الأقوياء من استغلال الضعفاء . . .

وكان عبد اللطيف أشد الموجودين ثقة في صدق آراء الايرلندي ، وأكثرهم رغبة في الوقوف على تفاصيلها ، فاستوضحه بقوله :
— أيتناول حكمك آداب الغرب برمتها ؟ . . .

ورأى ماكنيل الجمع ينصت إليه باذي الاهتمام ، فأفاض في الشرح :
— في الغرب أدب يناصر الرأسمالية الاستعمارية ، ويثبت أقدامها ، وأدب يناهضها منتصرا للشعوب المهضومة الحق . والأدب الأول ، وهو غير السليم ، متعدد الألوان والاتجاهات ، فمنه ما يشيد جهراً بالمعتقدات الرأسمالية ومثلها الفكرية والخلقية ، ويموه الحقائق ، فيجعل من جرائم الاستعمار الرأسمالي أمجاداً ، ومن غزو الأمم الضعيفة انتصاراً جديراً بالفخار ، ومن قهرها واستغلالها بطولة فريدة المثال .

ومنه مايخدم الرأسمالية الاستعمارية بترويج الآراء والمثل التى تكبح جماح الثورة عليها ، كالاشادة بصفات الزهد والصبر، واحتمال المكاره، والرضا بالواقع ، والعفو عن المسيء، والاخلاص للسادة، وعبادة الأبطال من أصحاب الجاه والسلطان . . . إلى آخر تلك المثل والمعتقدات التى تصرف الشعوب عن المطالبة بحقوقها ، وتحيط السادة المستبدين بهالة من الهيبة والجلال ، وتطفيء جذوة السخط عليهم ، وتمكنهم من الاحتفاظ بسلطانهم ، ومواصلة عدوانهم وطغيانهم. ومنه مايعين الشعوب على احتمال مكارهها بما يزخرفه من أخاديع الخيال ، وما يبتدعه من الملهيات التى توقع الناس فى شباكها ، وتصرفهم عن الواقع ، وترقق مشاعرهم فلا يعنفوا فى الغضب للحق ، والمطالبة باحقاقه . ومنه مايزهد الناس فى الحضارة ، ويمجد العيش البدائى بين الغابات والأدغال ، ويدعو للعودة إليه ، والاستمساك بالقديم ، والانحصار فى دائرته ، فيدخل فى الروع أن متع الحضارة ومنتجاتها عرض تافه زائل لا يستحق التطلع إليه ، والكفاح فى سبيل الحصول عليه . . . ومنه ما يضاعف أثرة الانسان ، ويشغله بذاته ، ويغريه بالاسترسال فى نزواته، وإشباع شهواته ، ويدعو الدعارة حبا ، والبطالة عزاً وجاها ، والضيق بغطرسة السادة خيانة ، والمطالبة بالحق جشعاً ، والتعفف عن الدنايا سخفا وحمقا. هذه أمثلة تكشف لكم عن وجه الأدب الرأسمالى الذى لا يستهدف إلا شل حركة التطور حتى تظل الأوضاع الظالمة على ماهى عليه . ومما يؤسف له أن هذا الأدب غير السليم هو وحده الرائج فى الشرق اليوم.

وقاطعه محمد حبيب متسائلا :

— كيف هذا ؟ ! . أتعد أمثال بيرون وشيلى وجوته وهوجو وغيرهم

من الأعلام الذين نقرأهم ، من أصحاب الأدب الاستعماري ؟ ! .

— نعم . فهم يصرفون قراءهم عن الواقع باستدراجهم القهقرى إلى عهد اليونان ، وتكبيلهم بقيود الماضي ، أو التحليق بهم فوق السحاب . بعزلهم عن الحياة الدنيا ، وحثهم على الترفع عنها ، والاستهانة بأمورها . إن أدبهم يضر بالشرقيين . . . ألا تحاولون إعداد مواطنيكم للنضال في سبيل حقهم المغتصب ؟ . . .

وعقدت الدهشة ألسنة الجمع برهة . ثم عاد محمد حبيب إلى تساؤله :

— ألم يحارب بيرون في صفوف الشعب اليوناني المطالب بالحرية ؟ ألم ينضم شيلي إلى مواطنيك الارلنديين المناضلين في سبيل استقلالهم ؟ .

وصمت ماكنيل برهة ثم قال :

— لم يحس بيرون آلام الشعب اليوناني المستعبد ، ولكنه دافع عن بلاد الاغريق القدامي الذين بهرته فنونهم وآدابهم . أما شيلي فقد دافع عن استقلال إرلندا الداخلي على أن تظل في نطاق الامبراطورية البريطانية . ولم يطلب هوجو للبائسين الجائعين إلا لقمة العيش . إن هؤلاء الشعراء وأمثالهم من أئمة الأدب الغربي لم يعرفوا الحرية والعدالة إلا كما زخرفتها لهم أوهامهم . فهم لم يدركوها إلا من الزاوية المعنوية . لقد أطلوا على الأذلاء المستعبدين من عليائهم دون أن يعانوا ذل الاستبداد والعوز ، أو يخبروه عن كثب . فكيف يستطيعون أن يبرزوا مخازي المستبدين ، وشقاء المغبونين على الصورة التي تزلزل كيان الرأسمالية ، وتستثير غضب السادة الرأسماليين ؟ . . إن عطفهم على ضحايا الاستغلال والاستبداد أشبه بعطف السادة على العبيد . . .

ولم يبد على أحد من الحاضرين اقتناعه بقول ماكنيل إلا الاسكندر .

وصاح سامي متحمساً :

— أتتهم أفذاذ أدباء الغرب بخراب النمة، والتنكر للحق، وممالأة المستبدين؟

وأجاب ماكنيل متحمساً كذلك :

— لا . أنا لم أصمهم بهذه التهمة . فقد سبق أن قلت إنهم واقعون تحت تأثير مجتمعهم من حيث يدرون ولا يدرون . فهم إذا روجوا المعتقدات التي يرضى عنها السادة والسراة ، تفتحت لهم أبواب القصور، وقوبلوا بالترحاب والاجلال ، وصفقت لهم الجموع المتأثرة بالدعاية لهم، وامتدت آفاق شهرتهم . فهل يساء الظن بنيتهم إذا خدعهم هذا الاعجاب والتأييد ، فتوهموا أنهم يسلكون السبيل الحق ؟ . . ثم إنه كثيراً ما غرر بهم ، وموهت عليهم الحقائق ، ودوعبت عاطفتهم الوطنية ، فصدقوا أباطيل الرأسمالية ، فصاغوا لها آيات التمجيد والاطراء، وإني أسوق موقعة الاسكندرية البحرية الأخيرة مثلا لما أقول ، فقد تغنى بعض شعراء الانجليز بانتصار أسطولهم فيها ، متوهمين أن بني وطنهم من البحارة حققوا مجدا مؤثلا ، ولو عرفوا سر ذلك الانتصار لما أشادوا به . فهم لم يعلموا أن انتصار أسطولهم يرجع إلى أن مدافعه كانت أبعد مرمي من مدافع حصون الشاطىء ، فدكتها في لحظات دون أن تصل إليها قذيفة واحدة ترد الاعتداء . . . لم يعرفوا أن انتصار أسطولهم حقيق بالخزي والعار .. لم يعرفوا أنه انتصار المدججين بالسلاح على العزل . لم يعرفوا أن الذين أحرزوا ذلك الانتصار لم يكونوا غير قتلة آثمين . .

وانبرى له سامي فقال :

— إننا لم نقرأ تلك القصائد عن موقعة الاسكندرية . ولكن الآداب

الغربية بصفة عامة هي التي أشعرتنا نحن المثقفين بالعزة والكرامة ، وبثت فينا الروح الوطنية ، وحب الحرية . . . إن حملتك عليها تناقض الواقع .

— لست أنكر أن الاطلاع بصفة عامة يرفع مستوى الفكر ، ويرهف المشاعر ، فيصبح المطلع أكثر وعياً ، وأشد حساسية واستجابة للاتجاه الفكري العام ، والمشاعر العامة . ولكنكم إذا دققتم في البحث عن أسباب تفكك الطبقة المثقفة المصرية ، ونزعتها الفردية ، وفتور همتها ، وعجزها عن تنظيم صفوفها ، وتنفيذ خطة متفق عليها ، قمينة بتحقيق الأهداف . فلن يغيب عنكم أثر لون الثقافة التي تشبعتم بها في ذلك .

وعقب اسكندر على هذا القول متهللا .

— لقد قلت مراراً إن الآداب الغربية خطر على قوميتنا . هي مخدر يدسه لنا الاستعمار ، ويمهد لذلك بالتوسع في تعليم الانجليزية على حساب العربية . . . إننا لن نستطيع الافلات من حبائل هذه السياسة إلا باحياء تراثنا الأدبي ، والاعراض عن غيره من ألوان الآداب .

ونظر بعد انتهائه من قوله إلى ماكنيل مبتسماً متوقعاً تأييده ، ولكن الارلندي خيب ظنه :

— لا ، لا . فالشرق في تطلعه إلى الرقي لا يستطيع أن يهمل الثقافة الغربية كلية . فهو في أشد الحاجة إلى الافادة من ثمارها المتذية . بل إنه في أشد الحاجة إلى اقتباس ما يفيده من ثمار فكر الأمم على اختلاف أجناسها . لا يجوز أن يضللكم التعصب ويحجب عنكم الحقائق ، ويحملكم على الأنفة من تلقى فنون غيركم والافادة من تجاربه . واعلموا أن أوربا اقتبست في إبان نهضتها من آداب الشرق وعلومه وفنونه دون أن

تمجد غضاضة في ذلك، وأقامت حضارتها الحديثة على أساسها . . . إنه كل تقدم يستند إلى تقدم سابق عليه . وها هي ذي دول أوربا وأمريكا، على تمسك كل منها بقوميته، يفيد بعضها من بعض، ويستعين بالتعاون الفكري والفني على التقدم .

قال سامي معبراً عن الحيرة التي استولت على الجمع :

— لعل قولك لايخلو من تناقض، فهلاّ زدته إيضاحا ؟

وسارع عبد اللطيف إلى القول :

— أنتم تقطعون عليه سلسلة حديثه، وتشتتون فكره، فدعوه يتم قوله، ويحدثنا عن الأدب العربي السليم .

— الأدب السليم هو الذي يشارك أصحابه الجموع الحاشدة في عنائها، ويعبرون عن آلامها وآمالها، ويحببون الحياة إلى المحرومين البائسين، ويكشفون لهم نواحي جمالها، ويرغبونهم في الاستمتاع بنعمها ومتعها النقية، ويبثون فيهم حب الخير والعدالة، ويبصرونهم بالحقائق، ويشعرونهم بكرامتهم، ويشدون عزائمهم، ويدعونهم إلى الكفاح في سبيل حقوقهم، ويعينونهم على بلوغ غاياتهم . . .

وتصدى له محمد حبيب منكراً .

— أترى أن يقتصر الأدب على تناول المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ؟! . أترى تقييد حرية الأدباء، وفرض رأيك عليهم ؟! .

— أنا لا أحاول تقييد حرية أحد، ولكنكم أنتم الذين تحاولون تقييد حريتي . . . ليكتب الأدباء ما يعن لهم، ولكننا نحن القراء أو النقاد نزن ما يكتبون، ونحكم لهم أو عليهم . أأنا مخطيء إذا قصرت لدي حكمي على قيمة عمل من الأعمال إلى قيمة أثره في الناس ؟

فهل هناك أديب حق لا يحس آلام قومه ، ولا ينفعل بها فيزخر أدبه بهذا الانفعال ؟ أتعدونه أديباً من يشتغل عن القضايا العامة بحوائجه الذاتية ومطالبه الخاصة ، ويحسب أنه من طينة غير طينة الناس ، فيعزف عنهم ، ولا ينال إلا إعجاب أمثاله اللاهين المشغولين بأنفسهم وبنزواتهم ونزغات شياطينهم ؟ ! . إن الأدب السليم عندي يقاس بقدر دفاعه عن قضية الحق ، والتزامه بنصرة الجموع المتطلعة إلى تحسين حالها ، ورفع مستواها الفكري والمادي ، بخلع نير من يستغلها من الأفراد .

وقال سامي :

— أنت لم تجب على سؤال محمد حبيب إجابة قاطعة ، فهو يسألك عما إذا كنت ترى أن تقتصر الكتابة الأدبية على هذا اللون الذي تحبذه من الانتاج ؟ . . .

— الأدب متسع الآفاق متعدد الألوان متنوع الأثر . ولكن الناس لا يختلفون على أن رسالته مهما تعددت ألوانه ، أن ينشد الحق والخير وينصرهما . فالأديب الحر يستطيع أن يخوض في كل موضوع ولكن ضميره الأدبي لابد يعصمه من خذلان الحق . والحق الأكبر اليوم هو حق الشعوب المهضوم .. إن الحرب في سبيله دائرة اليوم في كل بقعة من بقاع الأرض ، فهل هناك أديب حر لا تحرك هذه الحرب مشاعره ، ولا تدفعه إلى الدخول في معمعانها ؟ ! . .

ولم يكف محمد حبيب عن إبداء تململه وضيقه بآراء ماكنيل ، ومحاولة مقاطعته أثناء كلامه . وصاح في النهاية متهدج الصوت انفعالاً :

— أنت تدور حول سؤالي وتتحاشى الاجابة عليه في صراحة . فالمدنية الحاضرة لم تقم إلا على حرية الفكر ، والذين يصادرون الفكر ،

ويحرقون الكتب ، ويتسلطون على المفكرين هم أعدي أعدائها . ألم تكن العصور التي سيطر فيها هؤلاء عصور ظلام شلت فيها حركة التطور والتقدم ؟ فهل أنت من دعاة الحجر على الفكر والمفكرين ؟ هل أنت من أنصار إحراق الكتب ، أجب إجابة محددة حتى يمكن أن نستقر على رأي .

وأجاب ماكنيل مبتسما ابتسامة الواثق من نفسه :

— أنتم لم تجتمعوا هنا إلا لتتنظروا فى نشر الثقافة التى تفيد مواطنيكم، وتعينهم على الكفاح ، وكنت أحسب أن الظلم الذى يعانونه سيحملكم على أن تعدوا الأدب الذي ينتصر للحق أسمى أنواع الآداب . ولكن العجب تملكنى حين رأيتكم تتحمسون للأدب الغربى الذى ينتصر للطبقة المتسلطة ، والطبقة المرفهة اللاهيـــة ، ويخذل الجماهير المظلومة المتطلعة إلى حياة أفضل . فهل يدل اعتراضى على الاشادة بمثل هـــذا الأدب وترويجه ، على أنى من أعداء الحرية ، ومن المطالبين بمصادرة كل رأى يخالف آراءهم ؟ . . أم أن الأمر على نقيض ذلك؟. على أنى سأزيد رأيي تفصيلا وشرحاً لأزيل كل لبس . . . إن التقدم الحضارى رهين كما تقول باطلاق حرية الفكر . فى ظل تلك الحرية تنبت المذاهب الفكرية الجديدة ، وتزاحم المذاهب السائدة ، ولا تزال تناهضها حتى تتغلب عليها ، وتجليها وتحل محلها . ثم تنبت مذاهب غيرها تلعب نفس الدور حتي تسود . . . والأدب الغربي الذي تتحمسون له اليوم هو ذلك النوع الذى أخذ ينكص على أعقابه ليفسح فى الطريق للأدب الجديد الملائم للعصر . على أن الأدب الذى دالت دولته ، ويبدو لنا اليوم رجعيا ، كان فى أوان ازدهاره تقدميا أفاد الانسانية.

ودفع ركبها إلى الأمام حتى أطفأ لألاءه أدب جديد أنسب لعصره .
وهكذا كان تقدم الفكر ، وتطور الأدب . . . وإنى لا أطالب بمصادرة الأدب أياً كان عصره أو لونه . ولكنى أرى أن يلم المقبلون على مختلف ألوان الأدب بهذه الحقائق حتى ينقلب الاطلاع على الأدب القديم إلى فائدة جلى ، إذ يستطيع المطلع عليه أن يتبين خطوات التقدم الانسانى فيصبح أكثر فهما للحقائق ، وأشد تشبعا بفكرة التطور ومسايرة لها . . . ولكن على النشء ، وعلى قليلى الخبرة والمعرفة ، أن يبدأوا بالاطلاع على الأدب السليم حتى يتحصنوا به ، فاذا عادوا إلى الألوان الأخرى من الأدب للاستمتاع بجمالها الفني من ناحية ، والتزود من مختلف أنواع المعرفة من ناحية أخرى ، أمنوا أن يضر بهم الأدب الرجعى ويشدهم إلى الوراء . وصاروا أكثر فهما للحاضر على ضوء فهم الماضى . . . إن لكل عصر نظامه ، واتجاهه الفكرى ، وأدبه المعبر عن ذلك الاتجاه . وقد لاحظت أنكم لا زلتم متحمسين لأدب بيرون وهوجو وغيرهما من أدباء رومانسية القرن الماضى ، فى حين أن هــذا الأدب يزين اليوم متاحف الآثار الأدبية . ولم يعد يتحمس له إلا المراهقون ، أو ينسج على منواله إلا المقلدون غير المتأثرين بروح العصر . لقــد كان فى عصره خطير الأثر فى دفع الركب البشرى إلى الأمام . فهل هو يحتفظ بهذه القيمة اليوم؟
لا . فلم تبق له غير القيمة التاريخية. على أنى ألخص قولى فأقسم الانتاج الأدبى إلى ثلاثة أنواع : أدب حديث سليم ، وأدب قديم ، وأدب حديث يتأثر بالقديم ويحاكيه . فأما الأول فنفعه ظاهر لأنه يقوي

وعى العصر، وينصر الجديد على القديم فيساهم فى حركة التقدم . وأما الثانى فيعلو تلبية الأولى، ويبصر بخطوات التطور ويجلو طريقه . وأما الثالث فهو ينصر القديم، ويعوق ظهور الجديد . . . هو مقاومة القديم الجديد . وعلى هذا أرى أن نعمل على نصرة الجديد حتى يسرع فى الخلاص من غريمه القديم . . . فهل وضحت وجهة نظرى الآن ؟ . . .

كان الإرهاق قد نال من المتناقشين كل منال، فوقف الجدل حول هذا الموضوع عند ذلك الحدّ . واتجه الكلام من جديد إلى مهمة الجماعة، وطالب عباس بترجمة أمهات الكتب الغربية التعليمية إلى العربية، وتبسيط ما يصعب فهمه منها تبسيطا يستسيغه القارىء المصرى. وطالب اسكندر بنشر عيون المؤلفات العربية القديمة بعد تبسيطها كذلك، وبيان الدور التقدمي الذى لعبته فى عصرها . وأيد ما كنيل هذين الطلبين، وقال للذين تشككوا فى قدرة الجماعة على القيام بمثل هذه المهمة العسيرة إن الهدف الكبير يتطلب الهمة الكبيرة والثقة الوطيدة. وما هي إلا خطوة ثابتة بعد أخرى حتى تتم أضخم الأعمال .

واتفق الاجتماع على أن يتلوه اجتماع آخر توضع فيه الخطط العملية لتنفيذ مختلف المقترحات .

وحينما خلا سابى إلى نفسه، أخذ يستعرض ما سمع ويتأمله . ثم كر فكره إلى القاهرة، وإلى الآراء المتضاربة التى ازدحمت فى رأسه منذ تفتحت صلته بنبيه. لقد بدأ ينظر إلى الحياة من جديد، ويفهمها على نحو جديد . . . صار أصبح فهما لها رغم ما تبينه من تناقض فيها . . . لقد ما طرأ عليه من تطور وتغير ! ! . .

الفصل السادس عشر

قضى سامى عدة أسابيع مزدحم الرأس والصدر بمشروعاته وآماله يفكر ويبحث ويجادل زملاءه ويبدل أفكارا بأفكار. ولكن واقعة وقعت له ذات صباح فى دار المحافظة أطاحت بما فى رأسه وصدره من خواطر وأحاسيس ، وملأتهما انزعاجاً وإشفاقاً ووسواساً .

استدعاه رئيسه الضابط الانجليزى فى ذلك اليوم ، وما فتح سامى عليه بابه ، وخطا صوبه خطوتين ، حتى أزعجته نظراته القاسية ، وصوته الجاف وهو يصيح :

— قف حيث أنت . . . عد خطوة الى الوراء ... من هو « نون » ، وماذا عسى أن يكون ؟ . .

امتقع لون سامى ، وسرت الرعدة فى أوصاله ، ولم يستطع ضبط أنفاسه المتلاحقة ، فقد اعتاد نبيه أن يكتب إليه رسائل يذيلها بأول حرف من اسمه ، وأن يضمنها آراءه السياسية، فهل وقعت إحدى تلك الرسائل فى يد الانجليزى ؟ ! وأجاب لاهثاً :

— لا أعرف أحدا بهذا الاسم . . .

وازدادت نظرات الرئيس قسوة ، وصوته جفوة :

— حذار . . . فأنا أمقت الكذب ، ولا أرحم الكاذبين .

وجاشت فى صـــدر سامى خوالج المقت والاحتقار ممزوجة بخوف الناقبة . وتحرق لسانه الى رد الاهانة بمثلها ، ولكنه لم يملك غير السكوت . وصرخ الضابط من جديد :

— أجبه . . من يكون « نون » ؟ ومن يكون « لام » ؟ . ومن

هو صاحب الحذاء الأصفر العائد من شهر العسل ؟! . .

وأضافت هذه العبارة الأخيرة إلى سامي هما جديداً فوق همومه. لقد تم الزواج إذن . . . وعصفت الأقدار بحبيبته المنكودة !! . . واشتد تمزقه من حطة ذلك الانجليزي الذي اعتدى على حرمة رسائله الخاصة ، وجلجل الصوت الخشن من جديد :

— أتصر على الصمت ؟ . . خذ . . اقرأ هذه الرسالة وقل لي رأيك فيها.

ورمي في الفضاء بضع ورقات تساقطت على الأرض أمامه . وغلى الدم في رأس سامي، وعاد يفكر في رد الاهانة بطريقـــة أخري ، ولكن حرصه على مطالعة خطاب نبيه . والوقوف على مدى خطورته أرغمه على أن ينحني صاغراً . . ويجمع الورقات المنتثرة ، ويمضي في قراءتها . . التهم أسطرها ممتقع الوجه ، مرتجف اليدين ، وما كاد يصل إلى نهايتها حتي زمجر الرئيس :

— أتصر على أنك لا تعرف « نون » هذا ؟

أجاب وهو يترنح إشفاقا على صديقه الوفي :

— قلت إني لا أعرف أحدا اسمه « نون » .

— أولى بك أن تعترف . فقد يحملني اعترافك على التسامح . . . أليس هذا خيراً لك ولصديقك ؟ . . أتأبي أن تفصح عن اسم صاحب هذه الكنية وعن أسماء الآخرين ؟ . . . أتظن أن معرفة الحقيقة تصعب علىّ ؟ لابد أن يكون مرسل الخطاب أحد زملائك السابقين في القاهرة . . . سأعرفه وأعرف الذين تحدث عنهم . سأسأل نظارة الداخلية عن معلوماتها . أعد إلى الرسالة . . .

وأسرع سامي إلى دس الرسالة في جيبه . وهتف مغيظاً :

— بأي حق تطلبها ؟ . . هذه رسالتي .

وقفز ذلك المستبد من كرسيه ، وانقض على سامي كالوحش الهائج، ودس يده في جيبه ، وأمسك ذراعه بيده الأخري . واستطاع بقوة عضلاته استرجاع الرسالة غصبا ، وعاد إلى مكانه متوعداً .

— سأبلغ وكيل النظارة أمر هذه الرسالة ليحيلك أنت وزميلك إلى المحاكمة .

وأجج تهديد المعتدي حماسة سامي ، وقوى فيه شعور التحدي فقال:

— أتظن وكيل النظارة يرضى عن تجسسك على الموظفين ؟ واطلاعك على رسائلهم الخاصة ؟.

وأصابت هذه العبارة كبرياء الانجليزي الذي يتظاهر كسائر بني جنسه بشدة تمسكه بالمثالية الخلقية . فصاح مداريا ورطته:

— أتتطاول على وأنت متهم بالتآمر على سلامة البلاد ؟ ألا تدرك خطورة الجريمة المنسوبة إليك ؟ لن تنجيك قحتك من قبضة يدى . ..

— أنا لم ارتكب شيئاً أتهم به .

— وهذه الرسالة ؟ .

— كيف أسأل عن شيء لم أرتكبه ؟ . .

أحس الطاغية أن فريسته ليست سهلة المنال . فقال وهو يتميز غيظاً .

— أتوافق « نون » على ميوله السياسية ؟ .. أتتفق آراؤك وآراؤه ؟.

— مالك ولآرائي التي لا أعلنها ؟ ! . أتود محاكمتي على مكنون سريرتي ؟!

وصاح الانجليزي وقد نفد صبره :

— اخرج . . . ع وجهك القبيح عني . . وسأتدبر أمرك فيما بعد .

* * *

كانت رسالة نبيه إلى سامي مليئة بالأنباء الألمية الخطيرة، أنباء سنية وعبد المنعم والجمعية الوطنية السرية، فأضرمت الجمر الراقد تحت رماد الشواغل اليومية. جاء فيها أن عبد المنعم تغيب عن العمل في إجازة طويلة تزوج خلالها. وأنه عاد من شهر العسل إلى عمله منذ يومين متحلياً بحلة جديدة خضراء، ولكنه حرص على حذائه الأصفر العزيز عليه فلم يستبدل به غيره. وكانت هدية المفتش الانجليزي له بمناسبة زواجه ترقيته إلى رياسة القلم بعد نقل شاغلها إلى قنا...

ثم تساءل نبيه عن الأثر الذي أحدثته الاتفاقية الانجليزية الفرنسية في الاسكندرية، وموقف سامي وصحبه منها، وماتذرعوا به من وسائل لصد تيار القنوط الذى طغي بسببها؟... وأخذ يصور وقعها من نفوس أهل القاهرة، فقد أحدث تقلصاً شديداً من ناحية، وتمدداً عنيفاً من ناحية أخري. فانهال ذوو الأطماع، بعد أن أعلنت فرنسا انسحابها من ميدان السياسة المصرية، على دار المعتمد البريطاني يلتمسون رضاءه، ويأخذون على أنفسهم عهداً باتباع هواه. وثار طلبة المدارس العليا، وتجمهروا وساروا في مظاهرات صاخبة، صارخين من أعماق قلوبهم، هاتفين بسقوط فرنسا الخائنة! . حتى لكأنهم ظنوا أنها ستأخذ بناصرهم من أجل سواد عيونهم، ولو كانت مناصرتها لهم على حساب مصالحها الخاصة!!... وقد وجدت سلطات الاحتلال الفرصة مواتية لصرف مصطفى كامل عن جهاده، بعد أن تبددت الآمال التي عقدها على المؤازرة الفرنسية، وتجمعت حوله أسباب القنوط، فأوعزت إلى الخديوي أن يجود عليه برتبة الباشوية. ولكن الزعيم الشاب لم يتخاذل ولم يقنط. بل فطن إلى خفايا الصراع

الاستعماري ، وفيما تختلف الدول الرأسمالية وفيما تتفق ، فآلى على نفسه أن يمضي في جهاده ، ويبث في الشعب ثقته بنفسه ، ولا يعتمد إلا على الأصدقاء الذين تتفق مصالحهم ومصالحه . . . وقد وقف منذ يومين خطيباً على عتبة داره في حشد من الطلبة ، منددّاً بخيانة فرنسا لمبادىء الحرية والمساواة التي اشتعلت ثورتها في سبيلها ، مؤكدا أن اتفاقها الاستعماري مع انجلترا لن يزيد المصريين إلا تشبثاً بحقوقهم ، وجهاداً في سبيل تحقيقها . . . ولم تتوان الجمعية الوطنية السرية عن انتهاز تلك الفرصة لبث دعايتها ، وتحويل اليأس إلى أمل ، والضعف إلى قوة ، وتنشيط الوعي القومي ، وتهوين شأن الخونة من الزعماء ، وتحذير الشعب من أن يستسلم لخيبة أمله فيهم بعد أن أصبحوا هم والاستعمار جبهة واحدة ! . .

شعر سامي وهو يقرأ هذه العبارات بالخجل لتقصيره ، فإن أهل الاسكندرية لم يعيروا تلك الاتفاقية الاستعمارية اهتماما ، وقد جاراهم في ذلك على أساس أنها تحصيل حاصل ، وأن الوطنيين كانوا يتوقعونها ويرون أنها سترد المخدوعين في دول الغرب إلى الصواب . ولكن نبيه لفت نظره إلى الدور الذي كان جديراً به أن يلعبه ليساعد على نشر ذلك الوعي وتقويته . . . وتناولت الرسالة بعد ذلك أنباء الجمعية الوطنية ولجانها التي تألفت لدراسة الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لمختلف الطبقات والطوائف . وأشاد نبيه بتقرير عن أهل الريف قدمته اللجنة التي تولى لبيب مرقص سكرتاريتها . فقد تضمن دراسة مستفيضة لحالة الريف وخفايا السياسة التي اتبعتها انجلترا لاستمالة أهله والسيطرة عليهم .

ومما جاء فيه : « إن تطور الريف كان أبطأ من سير السلحفاة بسبب عوامل

مختلفة بعضها خاص بظروفه ، وبعضها متعلق بمصلحة من يستغلونه .
فالفلاحة في ذاتها لا تتطلب جهداً فكريا ، وهي لذلك لاتعين على نمو الفكر . . . وأصحاب الأراضي الزراعية ، والمسيطرون على زمام الحكم ، يؤثرون بقاء الفلاح على جهله حتي يضمنوا دوام رضاه بحاله وخضوعه لهم ، وبذل عرقه ودم قلبه لتهيئة أسباب رخائهم ، وتوفير وسائل ملذاتهم . وعلى ذلك ظل أهل الريف يعيشون على الفطرة ، لاينفذ إليهم بصيص من نور العلم ، ولا يتخطى حدود ربوعهم أثر من آثار الحضارة . فلم يبدلوا وسائل الفلاحة ، ولم يعرفوا الصناعات الزراعية ، وكاد يقف بهم الزمن فلم يتقدموا في سبيل تحسين معاشهم . وظل تحصيل إيجار الاراضي ، وجباية الأموال تستنزف أقواتهم إلا ما يقيم الرمق . فاستبد بهم الفقر ، قرين الجهل ، وقعد بهم العجز عن مناهضة المستغلين ، والتطلع الى خلع نير العبودية . . لم يستطيعوا إلا الخضوع للعمدة الذي كان يتحكم في مصائرهم بماله من سلطان في اختيار «خفراء الترع» الذين يسهرون سخرة على سلامة الجسور ، وفي تجنيد من يصلح للانخراط في سلك الجيش ، وإبعاد الخطرين على الامن ، أو الزج بهم في السجن . . . واستكانوا كذلك لصاحب الأرض المتحكم في أرزاقهم ، المهيمن على مصائرهم . . . أثقلتهم أعباء العوز والاستبداد ، وصرفتهم عن التفكير فيما يجرى وراء حدود قراهم ، وأطفأ فشل ثورة عرابي على الطغيان ، كل بصيص من أمل في مستقبل أفضل ، فلم يعبأوا بمن يحتلون كراسي الحكم في القاهرة ، ومن يعسكرون في القلعة أهم من الاتراك أم من العجم ! وقد استطاع الانجليز أن يسيطروا على أولئك المستضعفين بعد أن قبضوا على صمام الأمان ، أي بعد أن

هيمنوا على العمدة الذى كان يتلقى الأوامر من السلطة المحلية الخاضعة لهم، وعلى صاحب الأرض الذى ظفر فى عهدهم بالطمأنينة بعد أن هددت الثورة العرابية حقه فى التملك والسيطرة. على أن المحتلين لم يكتفوا بذلك، بل أرادوا أن يفوزوا برضا الأهلين ومودتهم حتى يضمنوا دوام احتلالهم دون أن تعكر صفاءه أية قلاقل أو اضطرابات قد يضمرها المستقبل، فأخذوا يتوددون إليهم باظهار عطفهم عليهم، والرغبة فى إنقاذهم من عسف سادتهم، ورد حريتهم إليهم. ولم يلبثوا أن استصدروا قانون مجالس المديريات الذى خول لممثلى الشعب حق الاشراف على كنس الشوارع ورشها، وحفر الترع وتطهيرها! وهكذا بر الانجليز بوعدهم، فمنحوا الشعب ذلك الدستور الفريد!!... لم ينخدع أهل الريف فى تلك الأخاديع الانجليزية. ولكن نسمات من الرخاء المزعوم هبت على القرى إبان الاحتلال، فقد اطمأن المرابون الأجانب إلى وجود الجيش المحتل، فبسطوا أكفهم بمد القبض، وأقبل الفلاحون على الاقتراض لتفريج ضيقهم، غير عابئين بالعواقب الوخيمة. وراح بعضهم يدخن ويشرب القهوة والشاى، وأدمن بعضهم الآخر على احتساء الخمر. وانتشرت حوانيت الروم فى الريف لتسد مثل هذه المطالب، عارضة سلعها لمن يعوزه النقد بثمن آجل. ولم يستطع العملاء المحرومون مقاومة الاغراء، وتهالكوا على مثل هذه المنع التى حرموها... ولكن الليالى الملاح لم تدم إلا ريثما حلت آجال الديون، فلم يرحم المرابون دائنيهم، وقاضوهم أمام المحاكم المختلطة — محاكم الامتيازات الأجنبية — مطالبين بما تراكم من أقساط الديون، وفوائدها الفاحشة، ومصاريف التقاضى الباهظة، وأتعاب المحامين الأجانب

القاصمة . . . وهكذا انقلبت رقة الحال إلى إملاق ، وضيق ذات اليد إلى إفلاس . وعادت الحال إلى أسوأ مما كانت عليه » . . . وبحث التقرير بعد ذلك في وسائل الخلاص . وقد نقل نبيه منه الفقرات التالية :

« لا وسيلة إلا أن يستيقظ هذا الشعب ، ففي يقظته نهاية المستعمر .. يجب أن نطلعه على أسباب حرمانه وشقائه ، ونسهب في ذكر التفاصيل ونجسم له الحقائق . . . يجب أن يعرف الشعب المسئولين عن محنته ، يجب أن يعرف سارقيه ، ويدرك كيف يستنزفون دماءه ، ويمتصون نخاعه . . . لقد هضم لصوص الاستعمار حقوق مختلف طوائفه . فلم يلبث حكامه وقادته أن صاروا محكومين تابعين ، والسادة مسودين ، والملاك مملوكين . . . لقد جردوا أصحاب السلطان من سلطانهم ، وأصحاب المال من مالهم ، وصاروا أصحاب الأمر والنهي في النظارات والدواوين ، ولم يتركوا للمصريين إلا الألقاب الخاوية ، واستولوا على القطن بالثمن البخس ، وفازوا بخيرات البلاد فلم يتركوا لأصحابها غير الفتات . فلو أدركت مختلف الطوائف هذه الحقائق لوقفت متحدة متساندة في وجوههم ، وعندئذ يؤذن عهدهم بالزوال » . . وانتهى التقرير الى وضع خطة للقيام بالدعاية التي تكشف تلك الحقائق ، فرأى أن تعتمد الجمعية على أعضائها من طلبة المعاهد والمدارس فتقسمهم إلى لجان يمثل كل منها إقليما من أقاليم القطر ، ويقوم أعضاء كل لجنة بدراسة أحوال إقليمهم وعقلية أهله ونفسيتهم ، والاتصال بمن يستطيعون الاتصال به من مواطنيهم ، ووضع أسس الدعاية الملائمة ، والاتفاق معهم على القيام بها كلما عادوا في الاجازات إلى بلادهم . . . وعرض نبيه بعد ذلك باختصار لتقارير اللجان الأخرى ، فلخص تقريراً عن الطلبة

جاء فيه « إنهم معقد الآمال . فهم لايزالون فى سن البراءة المنزهة عن الأطماع والغايات . وباستثناء ما بينهم من منافسات قد تدفع بعضهم من ضعاف الخلق إلى عناق المدرسين الانجليز والوقوع تحت تأثيرهم ، فإن طائفتهم المثقفة التى تؤمن بأن تأمين مستقبلها رهين بتحقيق الأهداف الوطنية قمينة أن تسير فى طليعة موكب التقدم المتطلع إلى الحرية . . .

أما تقرير لجنة الموظفين فقر بأهمية هذه الطائفة ، منوه بخطورة المهمة التى تضطلع بها . فهي تقبض على زمام الحكم والادارة ، وتستطيع إذا ما تصدت للاستعمار متماسكة متحدة أن تجعل إقامته فى البلاد مستحيلة . ومما جاء فى هذا التقرير عنها « إن أكثريتها تضيق بالمستعمر لأسباب خاصة علاوة على الأسباب العامة . فهى ترى الترقى إلى الوظائف العالية مقصوراً على الأقلية الخاضعة للاستعمار ، الدائبة على تنفيذ أغراضه ، المستخفة بحقوق بلادها ، وحقوق مواطنيها وزملائها أجمعين . على أن تلك الأقلية التى نالت رضا المستعمر ، وحققت بعض أطماعها على يديه ، غير راضية هى الأخرى عن حالها ، لأنها لا تكتفى بما حصلت عليه ، بل تحاول المضي فى التقدم ، والحصول على مزيد من السلطان . ولكنها ستدرك بعد حين أن وصولها إلى المناصب الرفيعة لن يتيح لها التمتع بالجاه المنشود ، والسلطان الحقيقى ، فهما سيظلان من نصيب سادتهم الانجليز ، أما ما يصيبونه هم فلن يعدو المظهر الكاذب . وحينذاك سيحاولون زحزحة أولئك السادة عن أكتافهم ليحلوا محلهم . إن الاستعمار ضار بأنصاره وأعدائه على السواء . ويوم تشتعل شرارة الثورة عليه سينتشر لهيبها بين مختلف طبقات الموظفين انتشار النار فى اليابس . وليس على الجمعية إلا أن تنفخ منذ اليوم فى نار سخطهم حتى تعدهم خير إعداد لليوم الموعود » . . وهناك تقارير أخرى عن طوائف

شعبية مختلفة، وطبقات اجتماعية متباينة، تدور جميعها حول إبراز الغبن الذي يصيب الكافة على يد المستعمر، وضرورة كشف الستر عنه لعملا أجمع، حتى يعم السخط، وينفجر آخر الأمر في ثورة جامحة . .

وبعد أن فرغ نبيه في رسالته المطولة من أنباء جمعيته عقب على رسالة سامي الأخيرة، وعجب كيف ينحصر جهد الاسكندريين وهم أهل جد وعمل، في النشاط الثقافي العقلي بدل الاتجاه إلى ميدان السياسة العملي. ومما قاله في هذا الصدد « إن الأعمال الثقافية تفتقد قيمتها إذا لم تنبع من معين الجهاد الواقعي في سبيل الحرية، فهي إذا اقتصرت على البحوث العقلية غير المتصلة بالواقع أصبحت زخرفا لا تحتاج إليه البلاد ».

واختتم رسالته بالعتب على سامي لتخلفه عن زيارته الموعودة للقاهرة . . .

* * *

ظل سامي منذ خروجه من مكتب رئيسه الطائش يفكر فيما وقع ويقلبه على مختلف أوجهه، وينظر في عواقبه . فقد سمع أسوأ الروايات عن كراهية ذلك الضابط المضطغن للوطنيين، وتعطشه إلى الإيقاع بهم، وقسوته في الاقتصاص منهم، مما جعله يتوقع لنفسه ولصديقه شر المكاره .

توجه إلى المدرسة بعد انصرافه من عمله، وروى لعبد اللطيف ولزملائه المدرسين ما حدث، فلم يسمع من أحدهم كلمة مطمئنة. بل لم يشاطره أحد الأمل في أن يضطر ذلك الفتى الغرير إلى التغاضي عما وقع خوفا من أن يؤدي التحقيق فيه إلى مؤاخذته هو على سوء

تصرفه وانتها كه لحرمة المراسلات الخاصة . . .

وسارع إلى القلم والورق ، ودبج خطاباً إلى نبيه يروى فيه ما حدث ، ويطلب إلى صديقه أن يأخذ للأمر أهبته ، وأن يرسل كتبه فى المستقبل بعنوان المدرسة . وعلى الرغم مما كان مستوليا عليه من خوف ، فقد علق على تقارير لجان الجمعية الوطنية ، وأشاد بدقة بحثها . ثم دافع عن أبناء الاسكندرية ، والتمس لمسلكهم الحالى الأعذار . وأكد أنهم أهل عزمة ومضاء ، وأنهم سيكونون يوم يجد الجد أشد المنافحين عن استقلال بلادهم مراساً ... وتولته الحيرة حين أخذ يتلمس عذراً لاحجامه عن زيارة القاهرة ، فلذا يقول ؟ . . إنه لم يجرؤ بعد على التحدث إلى صديقه عن مشاكله العاطفية ! .

عرج فى الصباح على مسكن عبد اللطيف ، وسار فى صحبته إلى المدرسة . . . لم يذهب فى ذلك اليوم إلى دار المحافظة ، بل لم يذهب بعد ذلك إليها فى أى يوم إلا إذا استثنينا ذهابه إليها بعد خمسة عشر عاما مصحوبا بشرطيين أمسك كل منهما باحدى ذراعيه . لقد بهت فى ذلك اليوم حين أدخل على الحكمدار للتحقيق معه فى تهمة سياسية وطنية ، فان ذلك الحكمدار الذى وخط الشيب شعره الأصفر لم يكن غير رئيسه الضابط الذى بدأ حياته فى الوظيفة « مراسلة » يقف بباب الحكمدار ! . . .

مضت الأيام بعضها فى إثر بعض دون أن يتحقق شيء من مخاوفه شاعى . . . لقد صدق حدسه ، وأحجم الانجليزى الملتوى السلوك عن أن يفضح نفسه بنفسه .

الفصل السابع عشر

كانت سنية ، قبل زواجها بعبد المنعم ، تشعر بتقلص حب سامى لها ، وفتور اهتمامه بها . وقد وضحت لها هذه الحقيقة كل الوضوح على أثر نقله إلى الاسكندرية ، فانه لم يستطع كتمان ارتياحه لهـذا النقل . وحارت المسكينة في تعليل ذاك التبدل الذى طرأ عليه ! فهى تعلم من ظروف حياته أنه لم يشغل عنها بفتاة أخرى تنافسها فى حبه . وهى كذلك لم تستثر فى يوم من الأيام حنقه أو امتعاضه ، ولم تسلك مسلكا يزهده فيها . . . فماذا دهاه ؟ ! . . لم تجد تفسيراً لفتور عاطفته إلا الخوف من عبد المنعم ، وإيثار السلامة على تعرضه لسخطه وكيده. وحز فى نفسها أن يفرّط فيها لمثـل هذا السبب ، وهى التى وثقت باخلاصه ثقة لاحد لها . على أنه لم يخذلها وحده ، فقد خذلها الجميع، وأسلموها لمصيرها المحتوم . . . خذلتها زكية فلم تبذل أى جهد لتجد لها مخرجا من ورطتها . وقد بلغ من تعللها بالأمل الكاذب أن صدقت ترّهات أحمد الذي أوهمها أن فتية الحى يأتمرون بأمره ، وأنه سيستعين بهم على إرهاب عبد المنعم ، وحمله على العدول عن فـكرة الزواج . فأين وعود أحمد ؟ . . أين أولئك الفتيان المخلصون ؟ . . . كانت وهي تتخبط فى حبائل اليأس على استعداد لتصديق كل وعد يبذل لها . . . كانت الأباطيل والأكاذيب تبدو لها شبيهة بالحقائق رغم فطنتها وحصافتها . . ولـكن الوهم لم يلبث أن أشرف على نهايته وبدا الواقع على حقيقته . فودعت آمالها ، وأحلمت قيادها لأمها ، ولم يعد يهمها ، بعد أن فقدت سامى ، ماتدّخره الأيام من شقاء .

فسواء لديها أن تتزوج بعبد المنعم أو بالشيطان نفسه. بل إنها ودت أن يصيبها من الأرزاء أنكاها، فإن أعصابها الثائرة المتشنجة أصبحت تستعذب الألم وتستزيده، ولا تجد السلوى إلا في طغيانه.

احتفل بزواجها وزواج نعمات معاً وفقاً لمشيئة عبـــد المنعم، فوجدت في ليلة العرس زميلة لها في الحزن والألم، ولكنها لم تجد في تلك الزمالة عزاء... جلست مهمومة إلى جانب عريسها الكريه، وكان وجهها الممتقع يبدو في لون ثوبها الحريري الناصع. على أن بياضها الباهت، ونظراتها المكتئبة كانت تزيدها حسناً. وقد تساءلت وهي تضيق بكل مايدور حولها: أهـــذه هي الليلة التي تتمناها كل فتاة؟! . خيل إليها أن مراسم الزواج أشبه بطقوس الحفلات الوثنية التي تساق الضحايا في نهايتها إلى المذبح...

كانت الموسيقى الصاخبة الرديئة، والأغاني التافهة الرخيصة، تزيد أعصابها اضطرابا. ولم ترتد خواطرها في تلك الليلة للماضي، ولم تتجه إلى المستقبل البعيد. ولكنها كانت تفكر فيما سيقع بعد انفضاض الحفل. كانت تفكر في خلوتها بعبد المنعم. فلم يبق غير ساعة أو ساعتين ويقع هذا المكروه. إنها لاتطيق وجوده وهي جالسة معه بين الناس، فكيف تكون حالها حين تقضي معه ليلتها في غرفة مغلقة عليهما؟ كيف تستطيع النوم إلى جانبه في فراش واحد؟ إن رباط الزوجية المقدس صار في نظرها سلاسل تدمي جسمها وروحها، فهل تقوى على احتمالها؟ هل تطيق الحياة التي فرض عليها أن تحياها...

لقد تجرعت مرارة تلك الحياة غصباً، قضت لياليها إلى جانبه تلفحها أنفاسه السامة، وتؤذيها أقواله الجارحة فتحرمها راحة البال

وراحة النوم. على أنه لم يضايقها بغزله وتشبيبه كما توقعت، وإنما عاملها بغلظة وجفوة لم تتوقعهما، فمس كرامتها، وأهان أنوثتها، وأثار في نفس الوقت حيرتها! ففيم كان تقربه الماضي إليها، وتشبثه بها؟ إنها لم تلاحظ منذ زواجه بها أي دليل على حبه لها. بل لقد قامت الأدلة على أنه يحقد عليها. فهو لا يكف عن مؤاخذتها على تصرفاتها، ويؤنبها على ما لا يستحق التأنيب، ويخالفها في كل رأي، فيحبذ ما تنفر منه، ويسفه ما تعجب به، ويمنعها عن كل ما ترغب فيه، ويحملها على ما لا تريد. وقد قالت له في أحد الأيام، وهي تكاد تنفجر غيظا:

— مادمت تبغضني إلى هذا الحد فلماذا تزوجت بي؟ . .

ولم يحاول نفي ما نسبته إليه. بل أجاب وعلى ثغره ابتسامة الارتياح:

— أردت أن أهزم عنادك وكبرياءك.

— لماذا؟! . وما دعاك إلى ذلك؟ . . لماذا لم تتركني وشأني!.

— لأنك كنت تصدين عني. ومن طبعي أني لا أرجع عن شيء يستعصى علي. لا بد لي أن أملك كل ما أراه بعيد المنال . .

هالها ما تسمع. هالها أن يقدم هذا العنيد المغرور على تحطيم حياتها وتنغيص حياته، لا لشيء إلا لارضاء نزواته العارضة فصاحت:

— أي تملك؟ .. هل ترى الزواج تملكا وسيطرة؟

فأجاب مؤكداً بصوته الأجش كل كلمة من كلماته.

— نعم ... فالرجل لا يبغي من المرأة إلا أن يتملكها، ويسيطر عليها

— أهي أمة في نظره؟ . .

— نعم . . . فهي تحتاج إلى سيد.

— لماذا؟! لم تحرم حق التمتع بالحرية والكرامة؟ . .

— إنها تحاول هذا . والرجل يحاوله كذلك . . إن الصراع ناشب بينهما على الدوام . إنه صراع بين سطوة القوى وخبث الضعيف ، ولا بد أن يقهر أحدهما الآخر . . لا محيص من أن يكون غالباً أو مغلوباً ، مالكا أو مملوكا . .

ونفثت فيها حرارة المناقشة الجرأة على القول :

— ما دمت تتوق إلى السيطرة والتملك ، فلم قبلت الخضوع للانجليز ؟. لم رضيت أن تصير مملوكا لهم ؟ . ألم تجد أحداً تتطاول عليه ، وتتحكم فيه غيري ؟ ! . . .

وتوقدت عينا عبد المنعم شرراً . وهمّ أن ينهر زوجته ويسبها . ولكن نزعته إلى التفاخر تغلبت عليه ، فكظم غيظه وقال :

— أنا أسيطر على موظفي الوزارة من صغيرهم إلى كبيرهم . . . والمفتش الانجليزي نفسه يذعن لرأيي ، ويأمر بتنفيذه .

— ليس هو الذي يرى رأيك . ولكنك أنت الذي يسير على هواه ، ويبحث عن رضاه . أنت لا تعرض عليه إلا الرأي الذي يوافقه . . . أنت عبد للانجليز يسخرونه كما يشاؤون .

كاد عبد المنعم ينفجر غيظا . ولم تكن إهانة زوجته له هي وحدها سبب ذلك الغيظ ، ولكنه كان يدرك أنها مازالت متأثرة بآراء سامي ترددها في كل مناسبة دون اهتمام بمشاعره . فصاح وهو لا يكاد يسيطر على أعصابه :

— كفى وقاحة . لقد أصبح الانجليز سادة الجميع . . سادتك ، وسادة أفراد أسرتك ، وسادة أهل الأرض كافة . . . وسأقطع لسانك إذا تطاول عليهم مرة أخرى .

وعادت مرغمة إلى الانكماش والاستسلام ، متحاشية إسرافه في التحدّي ، مبقية على البقية الباقية من كرامتها .

كانا قد اتخذا الطابق العلوي مسكنا لهما بعد أن أخلته زكية ، ووجدت سنية في كل ركن منه أشباح الماضي تستثير ذكرياتها . كانت تزجي الوقت مستغرقة في أوهامها يطالعها وجه سامي السمح ، ويملأ أذنيها صوته الحبيب . كانت لا تكاد تستعيد الماضي ، وتحيا في جوه ، وتأنس إلى صوره التي دبت فيهن الحياة حتى تفاجئها طلعة عبدالمنعم ، فتنسخ لها عالمها السعيد ، وتعيدها إلى الحاضر الممقوت .

لم تشعر بأنها في بيتها . . . كانت غريبة فيه ، مجردة من كل حول محرومة من نعمة الحرية . فقد سلبتها حقوقها الزوجية امرأة عجوز تزعم أنها قامت على تنشئة عبد المنعم الذي جاء بها إلى المنزل منذ ليلة زفافه ، وكلفها العناية بالشئون المنزلية ، وأطلق يدها فيها ، فافترس الزوجة المسكينة الاهمال والفراغ . لم يخفف مابها شاغل يشغلها ، أو هدف تسعى إلى تحقيقه . بل ضاعف الفراغ والوحدة همومها ، وشحذا خواطرها السود ، وسلطا عليها الملل والوحشة حتى صارت حياتها لا تطاق .

وكثيراً ما كانت تلتمس النجاة من هذه الحال بالنزول إلى الطابق الأرضيّ ، والالتجاء إلى أمها . كانت تهرب من دارها متوهمة أنها ستهرب من همومها ، ولكن هيهات ! . . فهي لم تكن تجد في كنف أمها الراحة والسلوان . . . وكيف تجدهما وأمها هي التي ضحت بها لتفوز برضا زوجها محمد أبو السعد ، وحرصت على كبح جماحها ، وإرغامها على احتمال ماتعانيه ؟ ! . .

على أن القطيعة فرقت مرة أخري بين طابق الدار ، وامتنعت الابنة عن النزول إلى أمها ، مثلما امتنعت الأخت من قبل . . . وقعت

مشادة بينهما استنفدت ما بقي لسنية من قدرة على الاحتمال ، وقضت عليها أن تنزوي حبيسة وحيدة في منزلها ، منقطعة الصلة بالناس .
وغني عن القول أن عبد المنعم كان السبب فيما وقع بين الاثنتين . فقد صحب زوجته عصر أحد الأيام إلى الطابق السفلي حيث وجد فاطمة جالسة مع فطين . وفاجأ الحاضرين بسيل جارف من النقد القارص أخذ يكيله لزوجته دون مراعاة لوجود ذلك الغريب . . . رماها بسوء الخلق ، والميل إلى المشاكسة ، وإهمال شئون المنزل . وسأل حماته كيف ربت ابنتها ؟! ومن أين جاءت لها بهذا القدر من ثقل الدم وسوء الخلق ؟! . ولم تستطع سنية مقاومة دموع الغيظ والغضب ، فهبت من مقعدها ، وجرت إلى غرفتها القديمة لائذة بها ، وماهمت باغلاق باب الغرفة وراءها حتى وجدت أمها تجري في أعقابها ، وتلحق بها . فصاحت بصوت متهدج :
— أيعجبك هذا ؟ . . أترضيك هذه الاهانة ؟
تصنعت فاطمة الهدوء والرزانة وهي تجيب :
— ماأسوأ خلقك ! . : ألا تقلعين عن مبالغاتك ؟ إنه لم يقل شيئا يستحق كل هذا الغضب .
واشتركت نظرات سنية وإشاراتها ولهجتها في التعبير عن امتعاضها :
— أبلغ إعجابك به هذا الحد ؟! . . ألا تضيقين حتى باهانته لك ولابنتك ؟! .
— هو لم يقل غير الحق . فأنا لم أحسن تربيتك . أنا غاليت في تدليلك حتى اجترأت علي وعلى زوجك ، ولم تعودي ترعين لنا حقا .
وصاحت سنية صياح من يكاد يفقد رشده :

— حقكما ! .. ألا تذكرين إلا حقك وحده ؟ ! . وأنا ! . . أليست لى حقـــوق ؟ ! . . أفاتك أنك امتهنت حق ، وأهملت رغبتي وأرغمتنى على ما أكره ، فحولت حياتى الهادئة إلى جحيم مروع ؟ . .

— أنا لا أسعى إلا إلى ما فيه خيرك . لقد هيأت لك حياة سعيدة ، ومهدت لك سبيل مستقبل زاهر . ولـكنك تفسدين مساعى بحماقتك .

— أية حياة سعيدة ؟ ! . وأى مستقبل زاهر ؟ ! . . أترين احتمال الاهانة سعادة ؟ . . واليأس من تبدل الحال استبشاراً بالمستقبل ؟ . .

— على الزوجة الصالحة أن تحتمل نزوات زوجها ، وتسعى إلى مرضاته .

— نعم . . . على الزوجة أن تطيع . . . عليها أن تستكين . . . أنت لا ترين إلا الطاعة والاستكانة . . . ولـكنى لن أحتمل العبودية ... لن أحتملها . . . أسمعت ؟ . .

وانقلب صياح سنية إلى صراخ وهى تستطرد :

— لن أعود إليه . . ، لن أطيعك بعد اليوم . . . أفهمت ؟ .

وأفزع فاطمة أن ترى باب الغرفة مفتوحاً ، فهرعت إليه وأغلقته ، وعادت إلى ابنتها وهى تنتفض مثلها غضباً :

— أمجنونة أنت ؟ . أتسعين إلى خراب بيتك ؟ ! . ألا تعقلين ؟ ! .

— أنت التى جرّت على الخراب . . . لقد كنت مجنونة حين خضعت لمشيئتك . ولـكنى لن أخضع بعـد الآن . . . سأعتصم بهذه الغرفة فلا أخرج منها .

وتملك فاطمة الشر ، وغاض من قلبها كل أثر للرحمـة . وتحيرت فى ردها القول الجارح :

— هذه غرفتى . . . وأنا أمنعك البقاء فيها . . أنا أرفض إقامتك

فيّ . . . لقد أنفقت عليك من مالي طوال حياتك . ثم تحملت نفقات زواجك ، ولا أقبل بعد ذلك أن أنفق عليك قرشاً . . . أنا أرفض أن تظلي عالة علي . . .

صدم هذا القول الغادة المرهفة المشاعر ، فترنحت من هول الصدمة. وأحست العجز وقلة الحيلة ، وتبدد شعورها بكرامتها وإنسانيتها وتعلقها بالحياة . . سكتت ثورتها فجأة . . . ولكن سكونها كان رهيباً إلى حد أفزع أمها . . . غارت عيناها ، وشحبت وجنتاها ، وازرقت شفتاها . وغمغمت وهي ترتجف من فرعها إلى قدمها :

— ومسكني أيضاً محرم عليك . . . لم يعد لي أم . . . لم يعد لي أم.

وعقد الذهول لسان الأم . وخرجت الابنة وهي تقاوم الانهيار الذي كاد يذهب برشدها . وصعدت في الدرج إلى مسكنها ،تمنية أن تنهار الدار عليها . وتذكرت وهي ترتمي على مقعد في مسكنها ذلك الحلم الرهيب الذي كانت قد حدثت خالتها عنه ، ورأت فيه أن التيار يجرفها بعيداً عن سامي . . ولكن . . هل يجاهد سامي الآن ليلحق بها كما حدث في الحلم ؟ ! . . ليس هناك شاهد واحد على صحة ذلك . لقد تخلى الجميع عنها حتى هو . . وشعرت وهي تسند رأسها إلى ظهر المقعد بأن الدوامة تدور بها في عنف ، وتشدها في سرعة إلى القاع .

وتعلق ذهنها بقاسم أمين . . هذا الرجل الذي وقف بمفرده يناهض الرجعية بأسرها . كانت تظن فيه القدرة على تحقيق المعجزات . كانت تتوهم أنه سيقف حائلا بين كل امرأة مصرية وجلاديها . ولكنها لا ترى اليوم دعوته إلا مجرد كلام . فلو كانت غير ذلك لما تمكن عبد المنعم وأبوه من فرض إرادتهما على أمها وعليها . كان الوهم يصور لها هذه

الرجل فى بعض الأحيان فريداً فى جرأته وقدرته، وكفؤاً لمناجزة الجلادين من الرجال جميعاً، وتحرير الاماء من النساء كافة . . ولكنه اكتفى بالكلام ! ! وأخذت تنفس عن غيظها بتحميله مسئولية ماهى فيه . ثم تحولت إلى نساء مصر فصبت عليهن سخطها . . كيف لم يتأثرن بدعوته ويعملن على تحقيقها ؟ . . لقد عملت وحدها على تحطيم سجنها ولكنها أخفقت وخليق بكل مسعى فردى يتصدى لمقاومة جماعية أن يخفق . . وإلا لاستطاع قاسم أمين أن يحرر المرأة المصرية وحده ببعض ما بذل من جهد . . لماذا لم يهب نساء مصر متحدات فى سبيل المطالبة بحقوقهن ؟ . . فالأمر لم يكن يحتاج فى مبدئه إلا إلى دعوة ترسل إلى لفيف منهن للاجتماع ثم تنفسح لهن طريق النضال . . على أن سنية أدركت فى النهاية أنها ملومة كغيرها ، فلماذا لم تسع هى إلى لم شمل معارفها ؟ لماذا لم ترسل إليهما مثل تلك الدعوة ؟ . على أن الاقرار بالتقصير لايجدى الآن ، فقد وقع المحظور ، وتحطمت حياتها ، ولم تعد ظروفها تمكنها من الاضطلاع بمثل هذه المهمة .

. وعادت إلى ذهنها على حين فجأة ذكري رحلة النيل ، ووقفتها على جسر القناطر ، وتلك القوة التى استشعرتها يومذاك وهى تنظر إلى الماء المتدفق المتوثب بعد استرداد حريته . وأرادت اليوم أن تستشعر مثلها، وتنعش نفسها المتخاذلة . . ولكن هيهات ! ! . فقد كانت وطأة الواقع أقوي من زخارف الأوهام . . أيقنت أنها ، وهى وحيدة مقطوعة الصلة بالقريب والغريب، لاتملك إلا الخضوع ، واحتمال مذلة الخضوع . .

أحنت هامتها ، وسارت في طريق الحياة متجشمة عوادى الزمن، متنكرة أخاديع الأمل ، ملتمسة الراحة فى الاستسلام لليأس . . . ثم

حدث ما كانت تتوقعه وتخشاه . أدركت أنها حامل ، فشعرت بأن القيد الذي يشدها إلى عبد المنعم يزداد توثقاً ، وأن نطاق اليأس المضروب حولها يزداد استحكاما . . . لم تحس تلك المشاعر الرقيقة التي تحسها الحامل . . . لم تشعر بذلك الحنين العذب للجنين . بل على العكس تولاها نفور منه . فقد تخيلته مولودا ذكراً على صورة عبد المنعم . . لقد سخرت لتمد وطنها التمس بعبد المنعم آخر يعيث فيه فساداً . . .

لم تخفف من متاعب الحمل وآلامه عاطفة الأمومة ، بل شعرت المسكينة باشمئزاز من نفسها ، ومما تجنه أحشاؤها . كانت كلما وقعت عينها على عبد المنعم اشتد ذلك الاشمئزاز ، وتضاعفت آلام حملها ، وتفاقم انهيارها النفسي ، وذبل روحها وجسمها على السواء .

مرت تلك الأيام السود مبطئة ، ولكنها مرت على أية حال ، وحان يوم الفصل . ولم تتلهف الأم الكسيرة القلب بعد انفصال جنينها على رؤيته . . . على أنها لم تكد تجتليه حتى خفق قلبها خفقاناً سريعاً . وشعرت لأول مرة ، بعد طول ذلك العهد الكريه ، بدبيب الغبطة يدب في عروقها . لم يكن طفلها يبكي عقب ولادته كعادة الأطفال . . . لم يكن مجعد الوجه ، مغمض العينين ، بل رأته مشرق الوجه ، ضحوك العينين ، يزيد شعره الأسود اللامع وجهه بياضاً . كان قريب الشبه إليها ، فمال قلبها إليه ، ونما هذا الميل بنمو الطفل الوسيم . واستأثر بمشاعرها حتى كادت تنسى محنتها ، وتنسى أن هذا المولود نفسه ثمرة تلك المحنة ، وأن بقاءه ضامن لبقائها أسيرة لعبد المنعم .

ولشد ما أدهشها أن ترى زوجها يهتم بابنه . فهو لم يهتم قبل اليوم إلا بنفسه ، ولم تحركه أية عاطفة إنسانية . رأته يرفعه بين يديه

في الفضاء ، ويناجيه بالالفظ العذب . . . ويناديه :

— مجدي . . . أنت مجدى أنا . . . سأدعوك « مجدى » .

ونظر إلى زوجته ، وخاطبها بصوت رقيق لأول مرة :

— سأدعوه « مجدى » أيوافقك هذا الاسم ؟ . .

وارتاحت إلى هذه المجاملة التي لم تتعودها منه ، فجزته عليها بمجاملة مثلها :

— الرأى ما ترى . .

وأخذت تسائل نفسها ، أسيقتصر تأثير مولودها على تحريك عاطفة الأبوة في قلب الأب الغليظ . أم سيحدث أثراً أبعد غوراً ؟ . .

وصعدت فاطمة لتطمئن على ابنتها ، وترى حفيدها . واستؤنفت العلاقة بين المرأتين . ولكن قلب سنية الدامى لم يتفتح لأمها . واقتصرت علاقتهما بعد استئنافها على تبادل الكلمات الفاترة .

كرت الأيام خالية من كل حدث ، حتى حملت سنية من جديد . ولكن أشهر الحمل توالت هينة في هذه المرة . فقد شغل مجدي أمه عن كل شيء عداه ، وأعانها على احتمال أوجاعها . ووضعت حين آن الأوان أنثى دعتها « نادرة » . على أن المولودة الجديدة لم تقابل بالغبطة والحفاوة اللتين قوبل بهما أخوها . كانت تشبه أباها ، فصدت عنها النفوس حتى نفس أبيها . ولم تجد من يعطف عليها غير أمها التي زادها قبح طفلتها إشفاقا عليها ، وتعلقاً بها .

ثم خيم الركود على الطابقين العلوى والسفلى فترة طويلة حتى هبت العواصف الهوج من جديد .

الفصل الثامن عشر

لم يكن الشقاء الذي عانته سنية في ذلك العهد يرجع إلى حالة خاصة ، ولكنه كان وليد الوضع السياسي الذي كابدته مصر في عهد الاحتلال. خيمت الكآبة حينذاك على كل دار ، وطرقت كل باب . .. كان عبث عبد المنعم بحق سنية ، وحق أخته نعمات ، في حياة حرة كريمة انعكاساً للنظام السائد . كان صورة من صور تحكم القوى في الضعيف تتكرر في كل مكان . وشعر الشعب بضعفه وعجزه فشقى بهما ، وكابد ألوان الألم في حياته العامة والخاصة ... اختنقت في حلقه الضحكات ، وانكمش قلبه فعجز عن أن يرف جذلا .

على أن الشعور بالضعف والعجز انطوى على جرثومة الثورة على الاستبداد . وقد صدق حكم نبيه على الحالة السياسية في ذلك العهد . فان اتفاقية سنة ١٩٠٤ الاستعمارية لم تسكن أنفاس المقاومة كما ظن الاستعماريون . ولكن اليأس الذي أحدثته في بادىء الأمر تمخض عن أمل جديد ظل يشتد ويمتد يوماً بعد يوم . ووجد أعضاء الجمعية الوطنية ظرفاً سانحاً للعمل ، فنزلوا الميـــدان ، ولم يكفوا عن النفخ في الضرام ليزيدوه اشتعالا . . . ظل التطور يزحف إلى كل ناحية من نواحي النشاط الفكرى ، وظل أعضاء الجمعيـــة الذين تكاثر عددهم يقفون وراءه ، وينفثون فيه الروح ، ويدفعونه إلى الأمام .

كانت تلك المعاهدة نقطة تحول من عهد إلى عهد ، فلم يبق بعدها مجال لحسن الظن بالانجليز . . . انتهى عهد الانتظار والترقب والأمل في قرب الجلاء الاختيارى ، ولم يعد أمام الوطنيين إلا طريق واحدة،

طريق إرغام المحتل على شد رحاله . . . وقد بدت بوادر المقاومة الشعبية أول الأمر في المدارس . . . صدم المدرسون الانجليز بانتشار التذمر بين الطلبة والتلاميذ ، والجرأة على إعلانه . كان الواحد منهم لا يدخل الفصل إلا ويجد « السبورة » حافلة بمثل هذه العبارات . « نريد الجلاء » .. « أحرار في بلادنا » . . « عودوا إلى بلادكم » .. فإذا حاول التعرف على مرتكبي هذا الاثم ! . . ذهبت جهوده أدراج الرياح ، وأحجم حتي جواسيسه من التلاميذ عن الوشاية بزملائهم الوطنيين .

كان كل شيء في النظارات والمصالح يبدو في الظاهر على حاله . وظلت الأمور في غرفة نبيه بنظارة الداخلية تسير على منوالها العادى فلم يبد عليها تغير ، إلا حلول عثمان محل عبد المنعم في المكتب الضخم بعد انتقال هذا الأخير إلى الغرفة المخصصة لرئيس القلم ، وكذلك حلول موظف جديد محل سامي . ولكن التغير كان يدب في الخفاء بين جموع الموظفين . . . كان يتناول نفسيتهم وعقليتهم . فقد أخذوا يتأثرون باليقظة العسكرية ، والحماسة الوطنية المنتشرة بين الطلبة ، وبالروح الوطنية التى كان يبثها مصطفى كامل علانية ، وأعضاء الجمعية الوطنية سراً .

وقد أحدث التغير الذى طرأ على الغرفة أثرين مختلفين في نفس كل من نبيه ولبيب . كانا يشعران بالوحشة تخيم على الغرفة بعد غياب سامى ، ولكن الجو لم يعد مقبضا بعد أن انقشع ظل عبد المنعم . كان عثمان كثير الكلام . كان يجادل ويناقش فتتخلل قوله الآراء الغريبة ، والمفارقات المضحكة . لم يكن يتقن تمثيل دور الرئيس كما أتقنه عبد المنعم . فان هذا الأخير كان يقتصد في كلامه وإشاراته . بل إنه

لم يكن يتيح فه إلا ليلقي الأوامر ، ويصر على تنفيذها بغير مناقشة .
لم يكن يرفع صوته ويصرخ ويتشنج ، بل كان يصدر أوامره في حزم ، ويدعمها بقوة نظراته ، وتجهم وجهه .

أما الموظف الجديد الذى حل محل سامي ، واسمه عطية سليمان ، فكان غريب الشكل ، تتملك الناظر إليه رغبة في الضحك ، فإذا تكلم انفجرت الضحكات المكتومة . كان بارز عظام الوجه ، غزير الشعر ، كث الحاجبين حتى لكأنهما مصبوغان ، ولكأن عينيه الواسعتين مكحولتان ! .

لم يتريث حتى تتوطد العلاقة بينه وبين رئيسه وزملائه الجدد ليكشف عن مكنون سرائره . بل راح يحدثهم وهو يهز رأسه الغائر بين كتفيه عن مأساة حياته . حدثهم عن أمه المريضة القعيدة في البيت ، وكيف بذلت وسعها لاسعاده ، وكيف بذل وسعه لاشقائها . وكان يتحمس حين يتحدث عنها ثم ينقلب تحمسه إلى تشنج حين يعترف بجرائره فيقول :
— أنا سقيتها كأس هذا المرض . ولن يكفيني هذا . فسأقتلها ... نعم سأقتلها .

حدبت أمه الشقية عليه بعد موت أبيه . واعتادت أن تجيبه إلى كل طلباته ، وتحقق له جميع رغباته . لم تكن تملك غير منزل قديم يغل ستة جنيهات شهريا ، ولكنها استطاعت أن تدبر أمرها ، وتقتطع من هذا الريع الضئيل نفقات تعليم ابنها . ولكن وحيدها لم يشب عن الطوق حتى أخذ يمد يده إلى مخبأ نقودها ، ويبتز ما تصل إليه .. ثم جمح خياله إلى أوربا . لقد سمع عن مغانيها الساحرة ، وغيدها الفاتنات ماملك عليه عقله ، فجاء ذات يوم زعم لأمه أنه يقدر لها صنيعها

ويريد أن يجزيها عليه بمثله . يريد أن يسافر إلى ألمانيا لدراسة الطب ، ثم يعود بعد قليل طبيبا مرموق المكانة ، جديرا بأن تعتمد عليه أمه وتفخر به . وهو سيرضى بشظف العيش فى سبيل تلك الغاية ، فيكتفى بنصف ربع المنزل نفقة له فى تلك البلاد الباهظة النفقات .. ولكن المسكين أصيب فى أوربا بخيبة أمل مريرة . أعرض عنه الغيد كما كن يعرضن عنه فى مصر . وأزهقت الوحدة روحه ، فلم يستمتع بمفاتن المغاني الساحرة . تنزلق إلى الحانات والمواخير . واحتاج إلى المزيد من المال ، فأمطر أمه بخطابات تحمل لها أجمل الأماني ، وتزف لها بشري نجاح تلو نجاح فى الامتحانات الدراسية الموهومة . واستدانت الأم لترسل إليه أثمان الكتب الغالية التى تحتاج اليها الدراسة ! ! وحين أنبأها أنه فى حاجة إلى مبلغ كبير ليدفع أجور كبار الأساتذة الذين يعدونه للامتحان النهائى القريب ، باعت منزلها ، وسددت ديونها ، وبعثت المتبقى من الثمن إلى ابنها منتظرة عودته القريبة الموفقة . وحين عاد متعثراً فى أذيال خيبته ، ذارفا دموع الندم . أصيبت النعسة بالفالج الذي أقعدها الفراش .

أنصت عثمان إلى هذه القصة مهتما متأثرا . فقد كان يري أن سوء الحظ لم يفارقه فى حياته ، وأنه قعد به عن إدراك المكانة التى يستحقها ، فأشفق على كل مخفق خائب . واستطاعت عينا عطية الواسعتان أن تلمحا اهتمام الرئيس وإشفاقه ، فقفز الشقى إلى جانب المكتب الكبير ، وأخرج من جيبه تذكرة طبية تتضمن أسماء بعض العقاقير ، ونشرها تحت بصر عثمان ، وزعم أن أمه التى لم تنم الليل بطوله من شدة الألم فى حاجة ماسة إلى ذلك الدواء . واستأذن فى الانصراف ليشتريه

حويسرع به إليها . وأذن له الرئيس الساذج ، مستحثا إياه أن يسارع إلى القيام بتلك المهمة .

وبينما كان عثمان يتجه إلى منزله بعد انتهائه في ذاك اليوم من عمله، وقعت عينه من حيث لا يقصد على عطية قابعاً في ركن حانة تقع في طريقه . دخل الحانة مدهوشا ، وفاجأه بسؤاله :

— ماذا تصنع هنا ؟ ماهـــذه الكأس التي تعب فيها ؟ ألم تشتر الدواء لأمك ؟

وحملق عطية فيـــه شارد الفكر كأنه لا يعي مايقال ثم صرخ بعد فترة :

— أمي ! .. أمي ! .. آه ، إنها تنتظرني ... أين أنا ؟ ... ماذا أصنع هنا ؟ ! ..

وأمسك بالكأس فصب ما بها في حلقه ، واستأنف صراخه :

— هاتوا لي دلواً .. ، أسعفوني بدلو كبير أملؤه بدموعي . لم يعد شيء يريحني غير دموعي ... أريد أن أملأ بها دلواً كبيراً ... كبيراً جداً ...

— أمجنون أنت ؟ ... أفق ... أفق ...

ورفع عطية كأسه الفارغة وصاح :

— انظر إلى ماتحويه هذه الكأس . إنها ليست خمراً ، ولكنها أمراض أمي وآلامها ... أنا أشرب تلك الآلام والأمراض فتتحول في جوفي إلى نار متوقدة ... أريد أن أملأ الدلو بدموعي ... أريد أن أذوب دموعاً حتى تنطفيء تلك النار .

وألقى على عثمان نظرة سريعة واستطرد :

— اطلب لى كأساً أخرى فقد نفدت نقودى . . . أتوسل اليك . . .

واستحوذت على عثمان مشاعر تختلف ما بين دهشة وحيرة وألم . وأمسك بذراعه وجذبه قائلا :

— قم بنا نشتر الدواء لأمك .

— أستدفع لى ثمن الدواء ؟ . . كم أنت كريم ! . . كم أنت رحيم ! لقد أنقذتنى من وخز ضميري . . . لقد أنقذتني من هلاك محقق .

وصوب إليه عينيه الواسعتين ، ومد يده ، وقال آمراً :

— أعطنى عشرين قرشاً .

ووضع عثمان يده فى جيبه بحركة تلقائية ، وأخرج المبلغ المطلوب ، ومنحه إياه وقال :

— قم الآن . . . فان أمك تنتظر الدواء .

وجفل عطية ، وارتعشت أهدابه . وسكن لحظة ، ثم قام من مقعده وقال :

— انتظرنى حتى أعود من دورة المياه :

وغاب قليلا . ثم عاد وفي أثره الساقى يحمل كأسين . فصاح عثمان :

— ماهذا ؟ . . .

— إنى أدعوك إلى شرب هذه الكأس على حسابى !. .

وأبرز القطعة النقدية التى أخذها منه فناولها للساقى ! ! . .

وخطر لعثمان حينذاك أن يستغل ذلك المنكود، ويسخره جاسوساً على الموظفين . كان الرؤساء الانجليز يشعرون بالنار المتأججة تحت الرماد، ويخشون أن يندلع لهيبها بين الموظفين كما اندلع بين الطلبة وغيرهم من المثقفين . وما أضرب التلاميذ والطلبة عن تلقى الدروس ، وتجمعوا فى

حديقة الأزبكية منددين بالاستعمار، هاتفين بسقوطه، مصممين على الخلاص من ربقته حتى بلغ خوف أولئك الرؤساء أشده . ولكن كشف النقاب عن زعماء الموظفين الأحرار المتحفزين للثورة لم يعد سهلا كما كان، فإن طريقة عبد المنعم الماكرة لم تعد تجدى . . . كان ذلك الخبيث يستخلص البيانات التى ينشدها من أفواه السذج دون أن يشعرهم بغرضه . كان يحملهم على التجسس وهم فى غفلة عما يفعلون . ولكن البطش بالأحرار أيقظ الغافلين، وأطلعهم على نيات أذناب الاستعمار، فتوخوا الحذر، واعتصموا بالكتمان . واضطر أذناب المستعمرين إلى الاستعانة بالجواسيس المحترفين .

ولم ينس عثمان شيئاً من نصائح بيكر الثمينة فى هذا الصدد . فقد أشار عليه الانجليزى أن يختار عيونه وجواسيسه من بين المنكودين المعوزين الذين لا تحوم حولهم الشكوك . فلم يجد عثمان فرداً تنطبق عليه هذه الصفات انطباقها على عطية سليمان ! . . .

تناول كأسه وصكها بكأس السكير العربيد، وقال :

— لنشرب فى صحتك وصحة والدتك .

ورفع كل منهما كأسه إلى فمه، وتناول جرعة منها . واستطرد عثمان :

— كم أنا مهموم لمرض أمك ! . . أنا مستعد لتحمل نفقات علاجها .

وتفرس عطية هنيهة فى وجهه ثم صاح :

— أجد ما تقول ؟ . هات جنيها إذن لأحضر لها طبيباً موثوقاً بكفايته .

— سأعطيك ما تريد . . . ولكن لى عندك رجاء .

وحملق عطية فيه متعجباً :

— أى رجاء ؟ ! . . وما الذى يستطيع مثلى أن يؤديه لمثلك ؟ . .

لم يكن عثمان مراوغاً واسع الحيلة كعبد المنعم ، فاندفع فى القول كاشفاً عن خبيئة نفسه :

— أنا لا أطلب منك إلا أن تأتينى بأنباء الموظفين الذين يحرضــون زملاءهم على الشغب والاخلال بالنظام .

وحملق عطية فيه من جديد . وأخذت نظراته تقسو شيئاً فشيئاً . ثم صاح فى النهاية كالممسوس :

— أنا ؟ ! . . أتعرض علىّ أنا مثل هذا العرض ؟ ! . . لست أنــكر أنى مجرم . . . لست أنــكر أنى قاتل . . أنا قاتل أمه ، وقاتل نفسه . . لقد انغمست فى الرذائل ، وترديت فى الدرك الأسفل . ولــكن المجرم القاتل الضائع يرفض عرضك باباء . . ابتعد عنى .. اغرب عنى .

وتلفت عثمان حوله فرأى الأنظار متجهة إليه . فهب واقفاً ، وغادر الحانة مسرعاً .

دخل الغرفة فى صباح اليوم التالى مقطب الجبين . ووقف عطية استعداداً لتحيته ، ولــكنه تجاهله ، وأسرع إلى مكتبه وتشــاغل بمراجعة بعض الأوراق . وجعل عطية يختلس إليه النظر بين حين وحين. ولم يلبث طويلا حتى وثب من مقعده ، وأسرع إليـــه ، ومال على أذنه هامسا :

— ناولنى الجنيه وأنا أجيبك إلى ماطلبت .

ونظر عثمان إليه شزراً . وقال بصوت مسموع :

— اذهب إلى مكتبك ياأفنــدى . وواظب على عملك .

وعاد عطية إلى مكتبــه مأخوذاً واجما . وانــكفأ على عمله ، وساد الغرفة صمت عميق طويل .

وقبيل الظهر جاء حاجب المفتش يستدعى عثمان ولم يغب هذا الأخير طويلا حتي عاد مزهوا بنفسه، وخاطب نبيه بصوته الجهورى :

— دع العمل الذى تقوم به الآن يا نبيه، وأعدّ كشفاً بأسماء موظفى النظارة جميعهم، ووظيفة كل منهم، والمرتب الذى يتقاضاه، وآخر علاوة نالها، ورأى رؤسائه فى كفايته . . . إن جناب المفتش يأمر بإعداد هذا الكشف فى بحر ٢٤ ساعة . . . كم الساعة الآن ؟ نحن لم نتجاوز الحادية عشرة من يوم الثلاثاء، ففى مثل هذه الساعة من غد الأربعاء يكون الكشف المطلوب معدّاً ... لقد أبلغتك أمر جناب المفتش... أشاهد أنت يالبيب على ما قلت ؟ . . .

وهز لبيب رأسه . وابتسم عطية ابتسامة بلهاء . . .

وبينما شارع الدواوين يزدحم بعد ظهر ذلك اليوم كالعادة بالموظفين العائدين من دور العمل إلى منازلهم، أسرعت ساقا عطية القصيرتان المقوستان فى خطواتهما لتلحقا بعثمان الطويل الساقين . وكان هذا الأخير يلحظ الجهد الذى يبذله عطية للحاق به . وحين أمن أعين الرقباء خفف من سرعة سيره حتى التقى الاثنان . وصاح عطية وهو يلهث :

— كيف تهملنى وأنا لم أعد أعتمد إلا عليك .

— علىّ أنا ؟ ! . وفيم ؟ ! . .

— لم أشتر الدواء لأمى حتى الآن .

والتفت إليه عثمان وهو يواصل السير ونهره :

— كفى تحدثا عن أمك المريضة . . لا أريد سماع هذه السيرة .

وسأله عطية ببلاهته المعهودة :

— ولمــاذا ؟ ! . . .

— لأنى لا أصدق حرفا واحدا مما تقوله عنها .

وتعلق عطية بذراعه ، وقال وهو يجذبه :

— تعال معى لتراها . . . تعال ما دمت لا تصدقنى .

— دعنى . . . فإن شئونك لا تعنينى .

وارتعشت أهدابه وهو يحملق كالمعتاد . وقال راكضاً وراءه فى ذلة ومسكنة :

— أنت غاضب علىّ . . . ولكنى مسكين . أنا لا أحتمل غضبك . أما ما قلته لك أمس فكان من وحى الكأس ، فلا تعتدّ به . . . أنا طوع أمرك . . . أنا فى أشد الحاجة إلى المال ، وسأمدك بالمعلومات التى تطلبها مادمت تعدنى به . . هل اتفقنا ؟ ! . .

وتردد عثمان قليلا ثم قال :

— لابد أن أرى أمك أولا . . لابد أن استوثق من مرضها ، ومن أنك لا تكذب علىّ . . ما عنوانك ؟ . . سأوافيك فى السادسة مساء .

وكان عثمان يزعم أنه إنجليزى فى مواعيده ، دقيق فى المواظبة عليها . فلم تحن الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم حتى كان واقفا ببابه عطية يطرقه ، وينظر إلى أعلى وينادي بصوته الرنان . .

فتح له عطية الباب ، وصعدا معاً إلى الطابق العلوي ، ودخلا غرفة وسيمة تجلس الأم المريضة فى أحد أركانها ، وما رأى عطية أثر الشفقة مرتسما على وجه الزائر حتى قال :

— انظر إلى وجهها الشاحب . . . ما أشد هزالها ! . إنها فى حاجة ماسة إلى غذاء دسم . ولكن أين النقود ؟ كيف أستطيع أن أسدد ثمن العلاج وثمن الغذاء علاوة على سائر النفقات ؟ ؟ . .

ولم ترخ الأم طرفها عن عثمان . ولم تكف يداها عن الارتعاش ، وجفناها عن الاختلاج . ولكنها ظلت جالسة فوق حشيتها لا تتحرك ، ولا تتكلم . وقال عطية وهو لا يكف عن ملاحظة زائره :

— إنها لم تنبس بكلمة واحدة منذ سددت إليها طعنتى الأخيرة . لقد عدت إليها فى ساعة متأخرة من مساء أمس ورأيتها وأنا لا أزال فى الشارع مطلة من النافذة ، محلقة فى الظلام . . كانت تنتظر عودتى . . فتحت النافذة غير مبالية بالبرد القارس . فما التقت نظراتنا حتى هرعت إليها ، صاعداً فى السلم قفزاً . ولكنى وجدتها مرتمية فى أسفل النافذة ، فاقدة النطق ..

صاح عثمان وهو يضيق بما يرى :

— لنخرج من هنا .

وتنفس الصعداء حين استنشق هواء الشارع . وسأل عطية الذى كان يحاول اللحاق به :

— كيف يطاوعك قلبك على الانغماس فى حمأة الحانات وترك أمك على هذه الحال ؟ ! .

واختلج جفنا عطية كعادته الموروثة عن أمه وقال :

— كنت أستعين بالكأس على ما أنا فيه ، كنت أنشد الهروب من الواقع . . كنت أنشد الغيبوبة . . ولم يكن لى خيار فى انتهاج تلك السبيل . فقد كنت أشعر بعجزى عن مواجهة الواقع والعمل على معالجته . ولكنى وجدتك الآن فعرفت أنك ستنتشلنى من الحضيض . وتسدد خطاى . . أريد أن أسمع صوتها ثانية . . ليتها تصرخ فى وجهى ، وترمينى بأقذع الشتائم . . لم يكن شىء يرعبنى مثل أنها الهاعلىّ بأقذع

الشتائم . ولكن نظراتها الصامتة الآن أشد فتكا بي من أنكى المهلكات . إن خرسها الحالى أهول من خرس الموت ..

وأخذ ينشج نشيجاً عالياً لفت نظر المارة . فاستوقف عثمان عربة من عربات الأجرة كانت مارة فى ذلك الحين ، وركبها ساحباً معه رفيقه . وطلب إلى السائق أن يذهب بهما إلى أقرب صيدلية .

وقال عطية وهو لايزال ينشج .

— لاتحرجنى أمام الناس . . لايجمل أن تدفع أنت عن دواء أمى أمامهم أعطنى الجنيه لأشترى أنا الدواء . . والطعام . . لماذا تردد ! ! . إنى تبت على يديك . . أتشك فى توبتى ؟ ! . أتظن أنى سأعود إلى تبديد الجنيه على موائد الشراب ؟ . . أتظن أنك أكثر شفقة عليها منى ؟ . ومع ذلك فها أنت ذا تلازمنى . فمم تخاف ؟ . .

وأخرج عثمان خمسين قرشاً فوضعها فى يد المسكين . مغمغما :

— هذا هو المبلغ المتيسر الآن .

واختطف عطية النقود وهو يحملق فيها . وما مرت فترة وجيزة حتى حدث مالم يخطر ببال عثمان . فعلى حين فجأة قفز ذلك المخبول من العربة فى لمح البصر ، وجرى فى عكس اتجاهها . واقتفى عثمان أثره .

وصاح الحوذى :

— اللصوص . . أنجدونى يا ناس اللصوص .

وأوقف عربته . وغادرها راكبا وراء الهاربين ، مواصلا الصياح ، وتبعه بعض المارة . ورأى عثمان متبوعه يدخل إحدى العمارات ، فأسرع إلى دخولها وراءه . ولمح باب إحدى مساكنها يغلق بعنف فجرى إليه يطرقه . وفتحه له أجنبي فى مثل طوله وعرضه . وحين سأل

عن زميله . أنكر ذلك الأجنبي أن أحداً دخل ذلك المكان. ولكن عثمان رأى مشجباً خلف الباب مليئاً بالمعاطف والطرابيش والقبعات، ولاحظ على الأجنبي ارتباكه. ففطن إلى حقيقة ذلك المكان، وجرؤ على اقتحامه . ودخل أول غرفة على يمينه فوجد عطيـــة جالساً بين بعض الأجانب على مائدة خضراء، وبين يديه المبلغ الذى أخذه منه. فصاح دون أن يبالى بالموجودين :

— ماذا تفعل أيها المخبول ؟ . . أتريد أن تقضي على أمك القضـــاء الأخير ؟ . . .

وارتسمت على ثغر عطية ابتسامته البلهاء . وقال فى هدوء :

— بل جئت هنا لأحييها . . وجئت أغترف الذهب . . انظر إلى هذه المائدة العشبية اللون . . إنها جنة عدن الخضراء .. الخضراء..ستمدنى هذه المائدة بالذهب . . الذهب البراق . . سأغمر أمي بالذهب . . سأعيدها إلى الشباب .

وسمع عثمان صوت الحوذي يصيح بالباب :

— هنا لصان سرقانى .. البوليس ! .. البوليس ! ..

فخرج إليه يائساً من عطية وجذبه من ذراعه فمضى به إلى العربة.

وجلس صباح اليوم التالى فى مكتبه متجهماً ينهر عطية كلما وجه إليه هـذا الأخير سؤالا . وأرسل إليه المفتش يطلبه . وما عاد من عنده حتى نظر إلى نبيه وقال :

— جناب المفتش يطلب الكشف الذى طلب إعداده .

وأجاب نبيه وقد بدت عليه الدهشة :

— إن جناب المفتش أمهلنى أربعاً وعشرين ساعة تنتهى فى تمام الحادية

عشرة . ونحن الآن لم نتجاوز التاسعة .

— ولكن المهلة بدأت أمس الأول .

— كيف هذا ؟ . . إن جناب المفتش لم يطلبك ويكلفك باعداد ذلك الكشف إلا أمس . ولبيب شاهد عليك .

— نعم . إني أعرف ذلك ولكن جناب المفتش يقول إن هذه الواقعة تمت أمس الأول ! ! .

الفصل التاسع عشر

اكتسب أعضاء الجمعية الوطنية خبرة ، وازدادوا معرفة على توالى الأيام ، وتقاربت آراؤهم بعد شدة الخلاف ، وكان ينتظمهم وعى واحد ودعوا الأمل فى قرب يوم الخلاص بعد أن ألموا بالوضع السياسى إلماماً مستمداً من فهم الواقع على حقيقته . أدركوا أن الكفاح الذى ينتظرهم مرير ، والطريق طويلة شاقة . وقد درسوا حروب أمريكا وإيطاليا التحريرية . وكفاح إيرلندا المسلح ، فتبينوا تعذر اقتفاء أثر تلك البلاد لاختلاف الظروف والملابسات ، وللأهبة التى اتخذتها انجلترا بعد الخبرة والتجربة لخنق الجهاد المسلح . واجتمع رأيهم دون معارضة على أن سبيل الخلاص الوحيد هو إيقاظ الشعب وتدريبه على بث العراقيل فى طريق الاستعمار ، وحرمانه من جنى ثمار عدوانه ، ومضايقتـــه وإقلاقه ومناوشته حتى تتزلزل الأرض تحت أقدامه ، وتصبح إقامته فى البلاد مستحيلة . وقد هداهم طول البحث والدرس لتحقيق تلك الغاية إلى خطط جديدة علاوة على الخطط التي أوصت لجانهم فى تقاريرها الأولى باتباعها . عولوا على تتبع خطوات السياسة الانجليزية ، والتدقيق

فى دراسة أساليبها ، وتفهم غاياتها القريبة والبعيدة ، وتلمس مواطن ضعفها ، والوقوف لأخطائها بالمرصاد . ووضع خطة التصدى لها ، وإفساد سياستها على أساس مهاجمتها من أضعف مواطنها ، والافادة من أخطائها ، واستغلال تلك الأخطاء وتوسيع نطاق الضرر الناشىء عنها. واستثارة الأجانب على الاستعمار ، وعدم تمكينه من ممالأتهم وجلب الخير لهم على حساب المصريين ، وإشعار أولئك الأجانب بمختلف الطرق العملية أن مصلحتهم هى فى خروج الانجليز من مصر ، لا فى بقائهم بها .

وقد عهدت الجمعية إلى بعض أقطابها القاطنين فى أنحاء مختلفة من القاهرة أن يضطلع كل منهم بتأليف فرع لها في الحي الذى يقيم فيه على أن يديره تحت إشرافها دون أن يعلم أعضاء الفرع شيئاً عن المركز الرئيسي . وتألفت الفروع ، وتكاثر عدد المنضمين إليها وجل خطرها . ولم يلبث بعض أعضائها أن أصر على ضرورة التدرب على الرماية حتى يمكن رد اعتداء الانجليز بمثله يوم يجد الجد ، وتنشب الثورة المنتظرة . ووافقت الجمعية الرئيسية على هذا الرأي بعد دراسته ، وعممت التدريب على حمل السلاح فى فروعها كافة . وراح بعض الأعضاء يدرسون كيفية صنع المفرقعات فى كتب الكيمياء . وبعد أن قطعوا شوطاً فى الدراسة النظرية أنشأوا معملا ، وأدهشهم ألا يجدوا صعوبة فى صنع ما ابتغوا ، وتقاطر الأعضاء على سفح جبل المقطم يتدربون على إطلاق المسدسات وإلقاء القنابل .

وتجلى للذين يرقبون حالة مصر السياسية أن الحركة الوطنية المصرية استفحلت وأوشكت على الانفجار ، وأن تطورها السريع

الخطير لا يمكن أن يكون قد وقع من تلقاء نفسه . ولكنهم لم يتبينوا القوة المحركة التي كانت تعمل من وراء ستار .

وقد أصيب كرومر بخيبة أمل مريرة ... كان غروره قد صور له أنه استطاع تضليل المصريين ، واستمالتهم إلى بلاده بعد تصوير الاستعمار لهم في صورة الصديق الذي يسعى إلى خيرهم ، ولا يتوخى إلا رضاهم . . طاف ذلك المعتمد البريطاني في أصقاع الريف ، ومثل أمام حكامه وأعيانه دور السيد الكبير الذي يعطف على أمانيهم . وظن أنه أفلح بدهائه في إيهام الفلاحين أن قانون المجالس البلدية الذي أمر باصداره هو الدستور الذي طالبت البلاد به منذ أيام نابليون دون أن يوافق حكامها المصريون الطغاة على أن يصدروه ! ! وكتب تقريرا رفعه إلى حكومته اللندنيةوقد حشاه مزاعم قابلها المطلعون على الحقائق بالسخرية ، وفي مقدمة ما ادعاه من أباطيل أن تعلق المصريين بالانجليز أصبح حقيقة ملموسة تتجلى شواهدها له بصبغ تلك الأباطيل بصبغة الجد كل يوم ، وأراد أن يقدم الدليل الملموس على صحتها فاقترح على حكومته إنقاص عدد جيش الاحتلال إلى النصف : ولكن صرح آماله سرعان ما تصوح كما قلنا . فقد شعر بزلزلة تحت أقدامه تنم عن غليان البركان . واضطر والهلع يأخذ بخناقه أن يسارع قبل أن يجف مداد تقريره فيلح على حكومته أن تزيد عدد الجيش المحتل ، وتعيده إلى ما كان عليه إبان الاحتلال .

ولكن اعضاء الجمعية لم يكتفوا بذلك القدر من التطور ، وإنما أرادوا أن يزيدوا سرعته ، بدا لهم أن الشطر الأكبر من أمتهم ، وهو شطر الجنس اللطيف ، مجرد من كل حول ، مقضي عليه أن ينفق

.. سجينا بين جدران المنازل، محظوراً عليه الخروج إلى ميدان الجهاد ومعاونة الرجال على حل المشكلات الوطنية . . رأوا أن تكبيل المرأة المصرية بقيود أنكى من قيود السجناء هو تكبيل لأكثر من نصف الأمة، هو معاونة للاستعمار على كبح جماح النهضة . فأرادوا أن يعملوا على تمكين المرأة من القيام بواجبها جنباً لجنب مع الرجل، فاتفقوا على أن يتصلوا بأديبة شاعرة لا يعرف أحد حقيقة اسمها ـ فقد كانت الصحف تنشر منظومها ومنثورها باسم مستعار ـ وأن يطلبوا إليها السعي لتكوين جمعية نسائية تعمل على تحطيم أغلال المرأة، وتمكينها من أداء رسالتها كاملة .

توصل بعضهم، بعد مشقة، إلى معرفة مسكنها . واستطاع بعد مبادلتها رسائل عدة تحديد موعد ليلتقي رسول من الجمعية بها ويحادثها في شأن تكاتف المرأة والرجل على تنشيط النهضة الفكرية . ووقع الاختيار على نبيه والدكتور توفيق للقيام بهذه المهمة .

وقف الرسولان يوم الموعد المضروب أمام سور عال له باب ضخم شبيه بأبواب القلاع، فلم يستطيعا تبين قصر الشاعرة المحتجب وراءه . وأمسك نبيه بحلقة سميكة من الحديد معلقة بذلك الباب فطرقه بها . ومرت فترة من الوقت قبل أن يفتح لهما الباب خصي أحدب. ولجا وهما يجتازان فناء فسيحاً، قصر الشاعرة الأنيق الذي لم يره ولم يعلم بوجوده سكان حي عابدين الذي يقع فيه . أدهشهما أن يريا القصر محصناً بباب لا يقل ضخامة عن باب السور الخارجي . . وشعرا بعسر المسعى الذي يسعيانه ... كيف السبيل إلى تحرير المرأة المصرية وهي محصنة وراء مثل هذه الأبواب ؟ ! . .

قادهما الخصي إلى غرفة الاستقبال حيث انتظرا وقتا غير قصير، ثم سمعا صوت امرأة تحييهما من وراء الباب . . لم تدخل ، بل ظلت تحادثهما طوال مدة الزيارة متوارية خلف ستار الباب . فاذا كانت الشاعرة المثقفة لاتجرؤ على مواجهة الرجال ؟ ! . . فكيف تكون حال سائر النساء ؟ ! . . وازداد نبيه اقتناعاً بأهمية المسعى فى سبيل تحرير المرأة المصرية . وبعد تبادل عبارات المجاملة المعهودة سأل الشاعرة :

— أتقرئين ما يكتبه قاسم أمين عن الحجاب والسفور ؟ . .

— نعم .

— ولماذا لاتخوضين بقلمك غمار تلك المعركة ؟ . . لماذا لاتؤازرينه ؟.

— لأنى لا أريد أن أعرض نفسي لتخرصات الألسنة البذيئة .

— ألا تستحق خدمة وطنك وبنى جنسك مثل تلك التضحية ؟ .

— خدمة الوطن متعددة الميادين . وقد اخترت الميدان الذي يلائمنى.

— أي ميدان ؟ . .

— نظم الشعر . . ألا تقرأ شعرى ؟ . .

— قرأت بعضه فرأيته يتجنب مشكلاتنا الاجتماعية والوطنية التى تحتاج إلى أقلام الشعراء والكتاب .

كان الدكتور توفيق يضيق بنقاش نبيه المجرد من الرقة الواجبة للشاعرة الموهوبة . ويرى أنه لن يؤدي إلا إلى تشبثها بموقفها . فمثل تلك الشاعرة المرهفة الحس لاتستمال إلا باللفظ الشاعرى . وظل يكد ذهنه لينظم بعبارات الاطراء التى قد تؤثر فيهـــا . ثم عقب على عبارة نبيه الأخيرة بقوله :

— إن شعر السيدة الشاعرة خدم قضية المرأة المصرية . لقد قام دليلا على أن النساء يستطعن مطاولة الرجال فى ميدان الفكر والفن ، وما

ومیهن بالقصور إلا فرية باطلة . ولكننا نطمع ياسيدتى فى مزيد من معاونتك . إن أدبك العالى هيأ لك مكانة مرموقة بين النساء . ولهذه المكانة تكاليف نرجو أن تضطلعى بها . فالنهضة النسائية تحتاج إلى زعامة ، ومكانتك الأدبية ترشحك لها دون غيرك .

وبدت الرقة فى صوت الشاعرة وهي تجيب :

— أنا لا أصلح ياسيدي للزعامة التى تتحدث عنها ، فكم من سيدة فاضلة من المصريات أجدر بها منى . أنا شاعرة لا تصلح إلا لقرض الشعر . بل إني لا أجيد من الشعر إلا ما كان وصفا للطبيعة الساحرة ، أو تصويرا للمشاعر الوجدانيـــة السامية . وأحسب أني أخدم بنات جنسى بتقديم هذا اللون من الشعر إليهن .

وسألها نبيه وقد كاد اليأس يتملكه :

— أليس الشعر تعبيرا عن خوالج النفس ؟

— نعم .

— وهل حرك بؤس شعبك الواقع فى براثن الاستعمار خوالج نفسك

— طبعاً .

— وكيف لا تعبرين عن تلك الخوالج فى شعرك ؟

— لأنى لا أجيد إلا نظم لون الشعر الذى حدثتكم عنه ، وأحسب أن مهمتى هي رفع مستوي الثقافة والذوق الفنى بين بنات جنسى . وعلى غيرى أن يضطلع بالجوانب الأخري من النشاط الفكرى والسياسى ...

وكان ردها حاسماً

* * *

ظلت انجلترا تشدد قبضتها على مصر . ولم تكتف بالسيطرة على

الجهاز الحكومى، والتفرد بادارة دفة الحكم داخل البلاد ، ولكنها نصبت نفسها وصية على مصر تتحدث بلسانها فى المؤتمرات الدولية ، وتتبرع بشرح وجهة نظرها ، متوخية المصالح الانجليزية قبل غيرها . وقد أدى ذلك إلى رد الفعل المحتوم ، فاشتدت مقاومة المصريين لهــا بمقدار تشديد ضغطها عليهم . واضطرت إزاء اضطرام المشاعر واشتداد المقاومــة إلى استمرارها فى تقوية جيش الاحتلال وزيادة عدده . وتعددت مناورات ذلك الجيش ، وتنقلت وحداته من بلد إلى بلد ، لتعرض قوتها ، وتلقى الرعب فى قلوب الأهالى المجردين من كل حول وطول .

وكان محتوما أن ينتهى الصلف والاستبداد إلى البطش بالضعفاء ، وأن يؤدى البطش بهم إلى ثورتهم فينقلب ضعفهم إلى قوة تعصف بالمستبدين . وسجل التاريخ يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ ميعاداً لاستشراء الانجليز الطغاة ، واعتدائهم الوحشى على الضعفاء المغلوبين على أمرهم . فقد بلغ نشاط الجيش الانجليزى أشده قبيل ذلك التاريخ . اتخذ من الريف المصرى ميدانا لمناوراته ، مستهدفا إلقاء الرعب فى قلوب الفلاحين الضعفاء . فلم تعــد القرى والحقول تعرف ذلك الهدوء الوادع الذى استمرأته على كر الدهور . كان ذلك الجيش لا يكاد يستريح من مناوراته ، ويكف مؤقتا عن إطلاق رصاصه وقذائفه حتى يستبيح ضباطه ارتياد المزارع ، ويقتحموا القرى ، ويمطروا أسطح المنازل وأجران القمح رصاصاً يصوبونه إلى الحمام واليمام الباحث عن قوته . وكان الفلاحون التعساء يرون الهلاك يترصدهم ، والنار تهدد دورهم ومحصولاتهم ، فلا يملكون إلا الانطواء على الهم المضنى والغيظ المكظوم .

غادرت كتيبة من ذلك الجيش المعتدى مدينة القاهرة متوجهة إلى الاسكندرية . واخترقت أراضى المنوفية سائرة على الأقدام، يطأ جنودها الحرث بنعالهم الغليظة ، ويستبد بهم الصلف فيشمخون بأنوفهم ، ويصور لهم الغرور أنهم يزلزلون الأرض بخطواتهم العسكرية . وفى يوم الثلاثاء ١٢ من يونيو سنة ١٩٠٦ نصبوا خيامهم بالقرب من منوف ، وعسكروا هنالك التماساً للراحة . وفى اليوم التالى حمل ضباطهم بنادقهم على أكتافهم وتوجهوا إلى أبراج دنشواى طلباً للصيد. ولمحوا فوق أكوام القمح فى جرن محمد عبد النبي ، مؤذن القرية ، حمامتين تلتقطان الحب ، فتجمع قادة الجيش الامبراطوري لمهاجمتهما ، وصوبوا إلى الجرن فوهات بنادقهم . وخشي شيخ طاعن فى السن ، يقارب الثمانين ، اسمه حسن محفوظ ، أن تحرق نار البنادق القمح الذى يكاد يلتهب فى حمارة القيظ ، فصاح فيهم أن ينصرفوا عما اعتزموه . ولكن طلقات البنادق هزئت باعتراضه وصياحه . وكان ما توقعه الشيخ ، إذ دبت النار في قوت مؤذن القرية وقوت أسرته. وما رأت زوجة صاحب الجرن الألسنة النارية تلتهم خبز الأسرة حتى صرخت فزعاً ، وولولت أسى. ولكن بنادق الضباط الأشرار أخرست لسانها . فسقطت المسكينة على أرض الجرن مضرجة بدمائها . وثار الأهالى الذين شاهدوا هذا الاعتداء الدنىء ، وهجموا على المعتدين ليجردوهم من سلاحهم ، ويحولوا دون تماديهم فى اعتدائهم . فهال السادة المتجبرين أن يجترىء عليهم صعاليك الفلاحين ، وانهالوا عليهم ضرباً بكعوب البنادق. وجرى بعض الفتيان إلى دورهم التماسا للسلاح . فلم يجدوا مايذودون به عن أنفسهم وأهلهم وما لهم غير العصى ، وعادوا بها فاشتبكوا مع قادة

الجيش المزودين بالبنادق في معركة غير متكافئة . وعلم الخفراء بالواقعة فهرعوا إلى مكانها ليفضوا المعارك ، فأصاب رصاص الانجليز شيخ الخفراء كما أصاب رجلين غيره . ولم يصب الغاصبون المعتدون بأذى اللهم إلا ضربه عصا أصابت ذراع قائدهم ، وأخرى رأس الكابتن « بول » الذي هرب من ميدان المعركة ، يستفزه الخوف ، فيزيد من سرعة ركضه . وما وصل إلى سور سوق « سرسنا » حتى كان الهلع ولفحة القيظ قد نالا من البطل الانجليزي المغوار ، فسقط على الأرض لاهثا ، ثم أخذ يردد أنفاسه الأخيرة . ورآه فلاح يدعى « سيد احمد سعيد » على هذه الحال فأخذته الشفقة به ، وجاءه بكوب من الماء لينقع غلته ، وجعل له من ركبته وسادة . وبينما كان يناوله الماء حانيا رحيما ، فاجأه جنود الامبراطورية الشجعان الذين علموا بالحادث ، فهرعوا إلى مكانه ، وصادفوا سيد احمد المسكين فأبت وحشيتهم إلا أن يقتصوا منه ، وانهالوا عليه ضربا ، فسقط كوب الماء من يده ، وشخص إليهم ببصره مذهولا ، وحاول أن يفهمهم أنه لم يقصد إلا مساعدة زميلهم ، غير أنهم لم يتركوه حتى هشموا جسمه ، وحطموا رأسه ، وتركوه أشلاء مبعثرة . . .

ولكن هل شفت دماء هذا المظلوم غلة الطغاة ؟ ! . . لا ، فان الشرف البريطاني لا يصان إلا إذا أريقت على جوانبه دماء الضعفاء المغلوبين على أمرهم . . . شكل المعتمد البريطاني محكمة مخصوصة برياسة بطرس غالي ناط بها محاكمة أهل قرية دنشواي لأنهم تجرءوا فرفعوا عصيهم في وجه ضباط الجيش الامبراطوري ليدفعوا بها عن أنفسهم وما لهم غائلة البنادق الفتاكة ! . ولم تمر أيام حتى أصدرت تلك المحكمة حكمها على أولئك المنكودين بالموت والجلد جزافا . وجاءت كثيبة

الانجليزية إلى بلدة دنشواي يوم تنفيذ الحكم المشئوم . واصطف جنودها وهم في حلل الميدان ، وشهروا سلاحهم بينما كان الجلاد يزهق الأرواح ، ويشوى بسوطه الضلوع والجلود . وارتسمت الشماتة على وجوههم وهم يسمعون صراخ الأرامل واليتامى تمزق صفاء الريف المصري .

روعت مصر بهذه المظالم من أقصاها إلى أقصاها . وامتلأت القلوب أسى وكمداً وغيظاً . وانطوى الناس على أحزانهم التى زادها الشعور بالعجز حزناً ولسعاً . وتردد صدى المأساة فى ربوع أوربا ، وعبر المانش إلى الجزيرة الانجليزية . ولكن أبواق الكاذبين المرائين من الانجليز كادت تغطى على الحقيقة ، وتطمس معالمها ، وتصور شهداء المصريين فى صورة المتعصبين المعتدين . لولا أن مصطفى كامل تعقب تلك الأكاذيب فى عقر دارها ، وكشف الستر عن المأساة التى حاول أعضاء الوزارة الانجليزية إخفاء أمرها على أعضاء مجلس العموم . فاستيقظت الضمائر الحرة ، وهبت لنصرة الحق ، ، ولم تهدأ ثائرتها حتى أذعنت لها الحكومة الاستعمارية ، ووافقت على طرد معتمدها البريطانى من مصر ، وإحلال غيره محله .

كان أعضاء الجمعية الوطنية قد قرروا ، كما قلنا ، أن يقفوا السياسة الاستعمار بالمرصاد ، وأن يفيدوا من أخطائها ، ويستغلوا تلك الأخطاء أنجع استغلال ، وقد وجدوا في مأساة دنشواى مجالا سانحاً للعمل المجدى ، فراحوا يبرزون ما إنطوت عليه من معنى ومغزى ، وينبهون المصريين إلى تهديد الاستعمار لأرزاقهم وأرواحهم فوق تهديده لحرياتهم وكراماتهم . وقد شعروا أنهم نجحوا فى تلك الحملة نجاحاً لم يحرزوا مثله من قبل .

وقد حضر نبيه أحد الاجتماعات الدورية لأعضاء الجمعية وهو يطفح بشراً ، وأخرج من جيبه خطاباً ورد إليه من الأديبة الشاعرة التي حاول فيما مضى أن يدفعها إلى العمل في الميدان السياسي ، وتلا منه على زملائه الفقرات الآتية :

حضرة الأستاذ . . .

كان لا بد من كتابة هذا الخطاب وإرساله إليك . . وقد بذلت كل جهد حتى اهتديت إلى عنوانك ... كان لا بد أن أعترف لك بخطئي ، وأن أعبر لك عما أشعر به من خجل كلما ذكرت الجدال الذي دار بيني وبينك . . . كشفت كارثة دنشواي غشاوة كانت مضروبة حول ناظري ، وشفتني من داء الأثرة ، وأنارت لي سبيل الحق . لقد مكنتني من فهم مرامي حديثك الثمين معي ، وحملتني على الايمان بما تؤمن به أنت وزملاؤك . إن الشاعر الذي لا ترغمه مآسي قومه على الخروج من قوقعة أنانيته ، ومشاركة المغبونين المظلومين فيما يعانون ، غير جدير أن يعد في الشعراء . بل غير جدير أن يعدّ إنساناً .

إني لا أجد مهرباً من الخواطر المفجعة التي تلاحقني صباح مساء . فالكوارث التي حلت بدنشواي المنكودة لا تنفك تتجسم لي ، فتلهب دمائي ، وتؤرّق عيني ، وتقض مضجعي . إن هدوء الليل يذكرني كل مساء بهدوء الريف المصريّ ، ثم تثور نفسي حين أذكر كيف عكّر المحتل الغاصب ذلك الهدوء ، وأعمل في أهل الريف الحديد والنار ، ونشر فيه القلق والرعب . كان الفلاحون في قرية دنشواي يحتفلون كغيرهم من قطان الريف بموسم الحصاد ، وتشاركهم في احتفالهم الطيور

والسوائم ، فطلع عليهم أولئك الشياطين حمر الأردية والوجوه ، يجيلون نظراتهم المفترسة فى المنازل الآمنة باحثين عن الضحايا . ورأوا الحمائم المسالمة تلتقط الحب راقصة فوق أكوام القمح ، فحفزهم تعطشهم للدم إلى الفتك بها . ورأت زوجة عبد النبي الخطر يتهدد الجرن وما حوى من محصول ، فدفعها الفزع إلى الصراخ . ولم يعلم المعتدون أن أكوام القمح التى خشيت عليها النارهى ثمرة كدّها وكدّ أولادها وأفراد أسرتها طوال العام ، لم يعلموا أن تلك الأكوام هى قوتها وقوت أولادها ، هى عيشها ، هي حياتها . لم يعرفوا حرص الفقير على القوت الذى يحصل عليه بشق النفس لأنهم يحصلون على قوتهم اغتصاباً . وهالهم أن تصرخ في وجوههم ، وأن تولول حين رأت النار تلتهم رزق زوجها وأولادها ، فتركوا لرصاص بنادقهم أن يتولى أمرها ، ويخرس لسانها .

كان على الفلاحين أن يقابلوا اعتداء السادة بالتسليم ، بل كان عليهم أن يقابلوه بالارتياح والشكر . ولكن الفلاحين ارتكبوا إثماً جللا . فقد هبوا يحاولون انتزاع السلاح من السادة حتى لا يستفحل الاعتداء . وطار الخوف بلب ضباط الجيش الامبراطورى ، فألقى بعضهم سلاحه وأطلق ساقيه للريح . وراح بعضهم الآخر يطلق النار على غير هدى ، فيصيب رجال الأمن قبل أن يصيب المدافعين عن أموالهم وأرواحهم .

وأصيب أحد ضباطهم وهو يعدو ، بضربة شمس ، وكلفه الخوف أن يبذل فى العدو فوق طاقته . فانقطعت أنفاسه ، وخر على الأرض بعد أن خلف دنشواى وراءه ، وصار بمأمن من غضب الفلاحين العزل من السلاح . ورآه الفلاح الشهيد سيد احمد سعيد غريباً ضعيفاً يحتاج

إلى العون ، وفهم من لسانه المدلى أنه في حاجة إلى شربة ماء ، فجاء إليه بها يحنو عليه ويبل ريقه . وفاجأه جنود الامبراطورية وهو على هذه الحال ، فلم يقدروا صنيعه . وهل يقدر للعبد صنيع ؟ وجازوه على إنسانيته بضرب هامته بكعوب بنادقهم ، ثم شفوا غليل همجيتهم بتمزيقه إرباً . . .

ولكن العدالة الانجليزية رأت في تلك الأحداث مالا يراه الناس . وارتضى ضميرها ألا يجد في اعتداء الانجليز جرماً ، وأن يعدّ المعتدى عليهم مجرمين جديرين بأقسى عقوبة ، وأقصى قصـــاص . وبينما ظل المظلومون يحومون حول الجرن المحترق والمرأة المضرجة بالدم ، ملتاعين منتظرين أن يقتص لهم ، وأن يعوضوا عما أصابهم من ضر وأذى ، أقبل رجال الأمن يغلون أيديهم ويسوقونهم إلى غيابة السجون . ولم يكد ذووهم يفيقون من هول تلك الصدمة حتى رأوا أولئك الرجال يعودون حاملين على أكتافهم خشبا لم يتبينوها من بعيد ، ثم لم يلبث أن صاح أحدهم صيحة فزع ارتعدت لها الفرائص . ورددت الألسنة التي جفت حلوقها تلك الكلمة الرهيبة . . . المشانق ! ! .

ثم نصبت المشانق في جرن عبد النبي بدنشواى قبل أن تنعقد المحكمة المخصوصة لتنكل بأولئك العبيد الذين لم يفهموا أنهم ملك لسادتهم الانجليز . لقد كان إثماً كبيراً أن يظنوا أن أرواحهم وأموالهم تخصهم دون سادة البـــلاد ! . . لقد استحقوا أن يعتدى عليهم ثم يحاكمهم المعتدون .

وياهول ماجرى بين جدران تلك المحكمة المخصوصة ! ! لقد تناول الارهاب المتهمين والشهود على السواء . لقد تجرأ أحد الشهود

فطفق يتحدث عن إحراق الجرن وإطلاق النار على المرأة المفزوعة ، فلاحقته صرخات القضاة الانجليز المدول وصيحاتهم .
— اخرس يا كاذب .
— نحن نعرفكم أيها المصريون تمام المعرفة ، فأنتم لاتحسنون غير الكذب .
— نحن لن نرحم شهود الزور .
والتهب الشر فى أعين حماة العدل وارتجفت فرائص الشهود المساكين . وجرت الشهادة على ما يشتهى الظالمون . ولكن ما قيمة ذلك التمويه الذى شهدته قاعة الجلسة مادامت الأدلة المادية القائمة بجرن عبد النبى تفصح بأجلى بيان عن بربرية أدعياء المدنية .
وعكر الطغيان الانجليزى هدوء دنشواى مرة أخرى حين أقبلت الكتيبة الانجليزية التى مات ضابطها فزعاً ، والتفت حول المشانق رافعة البنادق على الأكتاف كأنما تستعد لخوض معركة حربية خطيرة ، وجىء بالمحكوم عليهم بين قعقعة السلاح ، وصراخ النساء والأطفال . ولم يسمح للزوجات والأولاد بتوديع رجالهم الوداع الأخير قبل وضع الحبال فى رقابهم . . . آه للصرخات التى مزقت الفضـــاء حين تدلى الشهداء من المشانق ، وتأرجحوا فى الهواء ! : لقد عبرت تلك الصرخات عن اللوعة التى حرقت الأحشاء ، تعبيراً تعجز عنه الكلمات . إن دويها لا يفتأ يخترق أذنى ، ويمزق هدوء ليالى . . . إن تلك الصرخات تمزق أحشائى . . . إنى لن أهدأ حتى أصوغها شعراً يدوى فى آذان الانسانية على توالى الأجيال حتى يستيقظ الضمير العالمى فيمحق الظلم والظالمين . إنى لن أهدأ حتى أخلد ذكرى سيد احمد سعيد فلا تضيع مروءته بدداً ، ولا يطل دمه هدراً ، بل يظل لعنة على أولئك القوم الذين يتشدقون

بالعدالة وهم لا يؤمنون بغير الغدر واستنزاف الدماء . . أترى الذين أهدروا دمه ندموا على ظلمهم بعد أن تبينوا براءته ؟ لا، فهو أقل شأناً من أن يشغلوا أنفسهم به ... بل ما أهمية موته بعد أن مات ضابطهم ؟ ! لقد جاءوا إلى دنشواي بعد أن لوثوا أيديهم بدمه البريء ، ليتشفوا بقتل الضحايا الجدد ... حرام علي بعد اليوم أن أشغل بعواطفي وأحلامي دن مواطني الضعفاء الذين يحتاجون إلى بث الثقة فيهم من جديد ، وحفزهم إلى الوقوف في وجه المعتدين ، وتحطيم قوى الشر التي ذاقوا منها الأمرين .

لقد أدركت اليوم قيمة الدرس الذي جئتم إلى داري لتلقوه علي. وإني أعاهدكم اليوم أن أعمل على جمع شمل مواطناتي ، وتبصيرهن بواجبهن ، وتنظيم جهودهن ، حتى تقف الأمة كتلة واحدة في وجه المعتدي الذي أهدر كرامتها ، واغتال حقوقها ، وتذرع بكل وسيلة للحيلولة دون استمتاعها بالقوة والعزة والرفاهية ؟

المخلصة ب

أنصت أعضاء الجمعية لتلك الرسالة ذاهلين . وما انتهى نبيه من قراءتها ، وأجال بصره في الوجوه المشرئبة إليه حتى وجد العيون تأتلق ببريق العزم ، وأحس أن كلمات الأديبة الشاعرة استطاعت بإخلاصها المضطرم أن تبث في نفوس زملائه من الثقة والاطمئنان والأمل ما لم يعهد فيهم مثلها من قبل .

ووقف الدكتور توفيق وخاطبهم مقترحاً أن تسعى الجمعية إلى نشر نص ذلك الخطاب في أكبر عدد من الصحف . ثم طبعه كذلك في هيئة منشور ، وتوزيعه على الناس في أرجاء البلاد كافة ، ولاقى

اقتراحه تأييداً إجماعيا لم يحظ بمثله فيما مضي . فأثلج ذلك صـــدره ، ودفعه إلى شرح مزايا اقتراحه ، فتحدث عن اهتمام الرأى العام بنشاط المرأة الفكري . ثم تطرق إلى شرح أثر المرأة فى حضارة أوربا منذ عصر إحياء العلوم . وأخذ يعدد شهيرات نساء فرنسا اللائى يعود إليهن الفضل فى النهضة الفرنسية الأدبية والفنية والسياسية . ولـكن اهتمام زملائه بحديثه أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً . ودار الحديث بين بعضهم وبعض ، وبدأ همساً ثم أخذ يعلو حتى غمر صوت الخطيب الذى اضطر إلى قطع خطابه ، والجلوس منكمشاً فى كرسيه وقد صبغ الاحمرار وجهه.

الفصل العشرون

كان سامى أشد المتحمسين لمشروع الجمعية الثقافية ،وأول التواقين إلى توفيقها فى مهمتها . وقد اتفق مع زملائه من أعضائها على أن يقوم بوضع مؤلف عن سياسة الاستعمار التعليمية فى مصر ، يميط فيه اللثام عن أهداف تلك السياسة ، ويفضح نواياها الخبيثة . وعقد إخوانه سلسلة اجتماعات فى داره ناقشوا خلالها الموضوع . وأدلى كل منهم بمعلوماته عنه ، وآرائه فيه . وشرع فى وضع الـكتاب ، واعتاد أن يتلو عليهم فى نهاية كل أسبوع ما كتبه خلاله ، وأن يسمع تعليقاتهم عليه . وكان الأساس الذى يدور حوله المؤلف أن الانجليز الذين يشرفون على التعليم فى مصر حرصوا على أن يلقنوا التلاميذ قشوراً من العلوم والآداب لا تغني ، حتى تصبح الطبقة المتعلمة فى مصر بلا علم ، وتظل راسفة فى أغلال الجهل بلا حول ولا طول ، تخضع للمحتلين ، وتنفذ أغراضهم ، وتعينهم على تسيير دفة الأمور بغير وعي أو رأى . في حين

يتبجح هؤلاء أمام العالم المتحضر بأنهم وسعوا فى مصر دائرة التعليم، وأعانوا أهل البلاد على الاعتراف من مناهله، والخلاص مما كانوا يعانونه من ربقة الجهالة.

وخاض الكتاب فى تفاصيل مناهج التعليم، وتناول كل علم على حدة. فأبان كيف أن تلاميذنا لا يتلقنون من علم التاريخ مثلا إلا أحداثاً متفرقة لا يعرفون لها رابطا، ولا يقفون على أسبابها ونتائجها العامة، والظروف والملابسات التى وقعت خلالها، وعلاقتها بالتطور العام. وهكذا يفقد سرد تلك الأحداث أهميته التعليمية، ويتجرد من كل قيمة، فيمجه التلاميذ، لاسيما حين يرغمون على حفظ الأسماء والتواريخ عن ظهر قلب. وما يقال عن التاريخ يقال مثله عن الجغرافيا. فالتلاميذ لا يدرسون من هذا العلم إلا أسماء البحار والأنهار والخلجان والجبال والبلدان والرياح وغيرها من معالم الطبيعة وظواهرها، ويرغمون على حفظها دون أن يتمكنوا من تكوين فكرة عن أجناس الناس الذين يقطنون تلك الأصقاع، وعن نشاطهم التجارى والصناعى والزراعى، ومدى إفادتهم من موارد بلادهم الطبيعية، وجهودهم فى سبيل تذليل مايصادفهم من عقبات وصعوبات مادية، وما يتميز به كل جنس من صفات جسدية ومعنوية، وعلاقة ذلك بجغرافيا الصقع الذى يقطنونه. أما الحساب والهندسة فيقتصر مايعرفه التلاميذ منهما على مسائل ونظريات لا يعرفون صلتها بالواقع، فتتجرد فى نظرهم كذلك من كل أهميه وقيمة، وتصبح رياضه ذهنية مجردة لا يرون لها نفعاً، ولا يتذوقون لها طعماً. وما يقال عن تلك العلوم يقال عن اللغات. فالتلاميذ يرغمون على حفظ قواعد اللغة دون الالمام بخصائصها ومميزاتها

وأسرارها . أما دراسة الآداب فتقتصر على حفظ منتخبات غثة ينفر الطلبة منها ومن كل ما يمت الآداب بصلة . ولا يدرس من الفنون إلا الرسم بالقلم الرصاص . وليت هذا النوع منه يتناول ناحيته الفنية الجلية، ولكن تعليمه يقتصر على ناحية تخطيط الأشكال الهندسية الخالية من مقومات الفن الأصيل . . . والحق يقال إن الكتاب وفي هذا الموضوع الذي اقتصرنا على الاشارة هنا إلى عمومياته ، موقنين أن شيئاً من تأمل القارىء واستقصائه يغني عن ذكر التفاصيل .

ومرت على سامي فترة من الزمن لم يكن يتحدث خلالها إلا عن ذلك الكتاب ، ولا يمل الحديث عنه أبدا . وفي عصر أحد الأيام التقى بماكنيل في ردهة المدرسة بعد فراغهما من عملهما . وسار معه إلى غرفة عبد اللطيف ، وطفق يتحدث هناك عن بحثه الذي استأثر بتفكيره . وطلب عبد اللطيف إلى الارلندي ألا يضن برأيه فيما يقوله صديقه . فاتجه ماكنيل ببصره إلى سامي وقال :

— ولكنك حدثتنا عن التعليم الابتدائي والتجهيزي . ولم تحدثنا عن توجيه السياسة الاستعمارية للتعليم العالي .

وتردد لحظ سامي بين عبداللطيف وماكنيل . وحار قليلا ، ثم أجاب متسائلا :

— ألا تسير تلك السياسة على نمط واحد في مراحل تعليمنا جميعها ؟

— هي تستهدف غاية واحدة ، ولكنها لا تسير على نمط واحد . فبينما تحرص في مراحل التعليم الابتدائي والتجهيزي على تلقين التلاميذ بعض نظريات عملية بدائية تكاد تكون بديهية ، دون أن تكشف لهم عن صلتها بالواقع ، وتطلعهم على طرف من تطبيقها العملي حتى

تستثير اهتمامهم بها ، وتنمى فيهم رغبة تحصيلهـا ، وتعينهم على الافادة منها . . . تراها فى التعليم العالى تهمل النظريات العلمية ، وتقتصر على تلقين تطبيقها العملىّ دون إماطة اللثام عن آفاقها الواســعة ، فتضمن بذلك تخرج طلبة لا يصلحون إلا لاحتراف المهن دون أن يتاح لأحد منهم أن يصبح فى يوم من الأيام عالماً يستطيع النهوض بالمسـتوى العلمي فى بلده . ويؤثر تأثيراً جديا فى اتجاهه الفكرى .

وسكت ماكنيل حتى أشعل لفافة تبغ ، ثم أردف قوله :

— يحرص منهج التعليم الاستعمارىّ على فصـل النظرية عن التطبيق . وهو يلقن النظريات البدائية حيث تجمل العناية بالتطبيق . ثم لا يهتم إلا بالتطبيق فى المرحلة التى يوسع التعليم النظرى خلالها آفاق الفـكر . ويلقى أضواءه الكاشفة على خفايا المجال التطبيقى وأسراره . . إن هذا المنهج يحول بين الطلبــة وبين الثقافة العامة ، فان تجريد العـلم الذى يتلقنونه من روحه ، ومن عناصره المفيدة المشوقة يقتل فى نفوسهم الرغبة في الاستزادة من القراءة والتحصيل . ثم إن الواســع الاطلاع يفيد مما يتعلمه فائدة كاملة ، بينما يعجز العاطل من الثقافة عن الافادة من تحصيل بدائيات العلوم ! . إن مستقبل مصر يتوقف على نجاحكم فى إفساد سياسة الاستعمار التعليمية المسمومة .

وصمت ماكنيل وهو يرفع لفافته إلى فمه . فسأله سامى مصوباً إليه نظرة تنضح بالسذاجة .

— وهل ترى أن هناك أملا فى انتصارنا على الاستعمار ؟ . .

— أنا لا أنـكر أن الانجليز يملـكون زمامكم . . . لا أنـكر أنه لا قبل لـكم بالتغلب فى الظروف الحاضرة على قوتهم المادية ودهائهم

السياسي . ولكن هذا لا يجوز أن يحملكم على التسليم دون مقاومة . إنهم ينتهجون اليوم سياسة لامفر من أن تؤدي إلى النتائج المحتومة التى يتوخونها . إنهم يعلمون أنكم ستحصلون فى يوم من الأيام على استقلالكم الداخلي وسيتولى أمركم حينئذ رجال لم يغترفوا من العلم والمعرفة إلا ذلك القسط الذى لايمكنهم من حكم البلاد حكماً يرفع مستواها ويؤهلها للاستقلال التام . وسيحسب الشعب المصرى وشعوب العالم يومئذ أن المصريين غير جديرين بتولى زمام الحكم فى بلادهم . . . وهكذا يجد المستعمرون ذريعة لدوام تدخلهم فى شئونكم . ويضمنون بقاء مناهج التعليم وحالة الضعف والتواكل على ما هى عليه مادام القائمون على الحكم هم غرس أيديهم ويتصفون بالجهل والعجز اللذين أرادوهما لهم . . . إن السياسة الاستعمارية المحكمة لابد أن تنتج كما قلت نتائجها ، ولست أطالبكم بالعمل على إحباطها ، فأنتم تخوضون اليوم مع الانجليز معركة سياسية ميزان القوى فيها غير متكافىء . ولكننى أطالبكم ببذل جهد المستميت فى سبيل عرقلة تلك السياسة ، وإرباك القائمين عليها ، وكشف الستر أولا بأول عن أغراضهم . حتى تعدوا الأذهان للخطر المحدق بكم ، وتهيئوا مواطنيكم للمعركة الحامية التى ستقوم دون شك بينكم وبينهم حين تتوفر الظروف الملائمة لكم . ولا شك أن المؤلف الذى تضعه هو طعنة شديدة لتلك السياسة التى لايفسدها ويحبطها مثل افتضاح أمرها . .

واستوعب سامي آراء الارلندى ، وعرف كيف يفصلها ويوضحها فى كتابه . وكان يلاحظ ازدياد عدد الصفحات التى يسودها ، فيزداد اقتناعاً بأهمية العمل الذي يقوم به . ورسخت فى ذهنه عبارة ماكنيل

« لاشيء يحبط السياسة الاستعمارية مثل افتضاح أمرها » فصوّر له الوهم أنه يسدّد للاستعمار الانجليزيّ بكتابه هذا طعنة نجلاء .

ولكن خيبة أمله كانت شديدة الوقع على قدر ضخامة الأمل الذى شيد الوهم صرحه . . كانت فرحته يوم أتم وضع كتابه لا تعدلها فرحة. ولم يشغله عن التفكير فى عمله الجليل والتحدّث عنه إلا اضطلاعه بمهمة نشره . وقد وجد فى صديقه عباس خير معوان على تأدية تلك المهمة جاء له ذلك الصديق باسماء مطابع الاسكندرية جميعاً ، وبيان عن مختلف أسعار جمع الأحرف وطباعتها ، وعن أنواع الورق وأوزانه وأثمانه . وصحبه إلى المطبعة التى اختارها لاخراج الكتاب . وتم الاتفاق ، وبدأ العمل . ولم يقصر أى عضو من أعضاء الجمعية فى سداد نصيبه من تكاليف الطبع والنشر . وذاق سامى خلال تلك الأيام السعيدة أسمى متعة أتيحت له فى حياته . . . متعة نشر المؤلف الأول ! . . كان موقنا إيقانا لا يتطرق إليه أدنى شك أن مواطنيه سيتخطفون كتابه ، وأنهم سيتزودون منه الخبرة والمعرفة اللتين ستشـدان أزرهم فى مناهضتهم للمحتلين ، فشعر باطمئنان لم يشعر به من قبل . .

شعر بأنه لا يتشدق بالوطنية وهو مشغول عنها بذاته ، ولكنه يقوم بعمل يكسب وطنيته قوة جديدة . . . شعر بأن صلته بوطنه صارت أوثق من ذى قبل ، فقد وصل بينهما ذلك الجهاد الذى يوشك أن يؤتى ثمرته . . لم تعد الوطنية كلمة جوفاء ، ولكنها امتلأت بالمعانى البليغة العميقة . لقد صار مدلولها فى نظره إحقاق حق الملايين من مواطنيه ، وتمكينهم من دفع الحيف عنهم ، والتحرر من كيد المعتدين عليهم . . لقد تضمن مدلولها أسمى معاني العدالة ، وصار هو فى طليعة

الجنود المجالدين باسمها . . . وفى سبيلها . . .

عندما اكتست أول نسخة من كتابه غلافها . كان سامي يترقبها فى المطبعة وقد تلقفها وتصفحها مرتجف الأصابع ، فإذا الأسطر ترقص فى عينيه جذلا ، وإذا إشراق الكلمات يخطف بصره ، والأمل يلهب دمه ، ويحفزه إلى مضاعفة العمل . وكان إلى جانبه فى تلك الآونة السعيدة صديقه عباس الذى انتظر على أحر من الجمر تغليف عدد مناسب من النسخ ، وما تم ذلك حتى نقلها إلى عربة أجرة ، وطاف بها على مختلف المكتبات فأودع فى كل منها عشرين نسخة على ذمة البيع . وفى صباح اليوم التالى نقلت النسخ الباقية إلى المدرسة ، وعرضت للبيع على التلاميذ بسعر لا يتجاوز تكاليف الطبع . وجاء عباس إلى المدرسة بعد ظهر ذلك اليوم ، وأعد نصف كمية النسخ للشحن إلى القاهرة . وكتب سامى رسالة إلى صديقه نبيه يذكر له فيها طرفا من موضوع كتابه ، وينبئه بأنه أرسل له كمية من نسخه ليقوم أعضاء الوطنية على عرضها للبيع فى العاصمة .

ولكن هذا الكتاب الذي كان مصدر سعادة وأمل لسامى لم يلبث أن صار مصدر غم وخيبة أمل . فهو لم يصب الرواج المأمول. بل إنه لم يصب رواجاً على الاطلاق . فإذا استثنينا النسخ التى اقتناها تلاميذ مدرسة عبد اللطيف ، وأعضاء الجمعية الأدبية بالاسكندرية ، والجمعية الوطنية بالقاهرة ، كان عدد النسخ التي بيعت فى السوق لم يكد يتجاوز عدد أصابع اليدين . وجاد أصدقاء سامى بتبرعات جديدة لنشر دعاية عن الكتاب واسعة النطاق ، فلم يثمر هذا الجهد الجديد . وسعى عباس ليعثر على تاجر كتب يشترى نسخ الكتاب جملة ، ويتولى

أمر بيعها . فلم يجد من يقبل هذا العرض إلا رجلا يتاجر فى الأدب وهو أمي ، اسمه ابراهيم الحطاب . وبعد أن طالت بينهما المساومة المجهدة اتفقا على خمسة مليمات ثمناً لكل نسخة من الكتاب ، واضطر سامى إلى الرضا بالغبن ، وقبول الصفقة .

أثر فى نفسه هذا الاخفاق أبلغ تأثير . وتولاه يأس قاتم كاد يقضي على معنويته ، ويصرفه عن جهاده . وراح يحدث إخوانه عن عقم الجهاد ، وعدم جدوي الصياح فى جوف الصحراء . ولم ينقذه من الردى إلى قرار الهوة التى كان ينحدر فيها إلا ماكنيل الذي راح يحدثه عن حاجة النجاح إلى الصمود ومواجهة الفشل بعزم متجدد . ثم جاءته رسالة من صديقه نبيه تلتها رسائل أخرى من بعض زملاء القاهرة تضمنت إعجاب أولئك الزملاء بالسفر الجليل ، وثقتهم فى قيمة الأثر الذى سوف يحدثه على مر الأيام ، بالرغم من عدم فوزه بالرواج السريع الذى يستحقه .

وألمت بالبلاد فى هذه الأثناء ملمة دنشواى . ورأى بعض أعضاء الجمعية الثقافية أن ينشروا عنها كتابا يكشف اللثام عن وجه الاستعمار الجشع البشع ، ويجسم امتهانه لكرامة المصريين وتهديده لأمنهم ومصالحهم وقال أولئك الأعضاء إن رواج مثل هذا الكتاب مضمون لأن البلد فى يقظة عاطفية ، ولكنه لم ينضج فكريا . فاذا فشل كتاب سامى عن العلم ، فان مصير كتاب دنشواى سيختلف عن مصيره . واضطلع اسكندر نوار بوضع ذلك المؤلف ، فأصاب بعض النجاح . ولكنه لم يصب الرواج الذى قدره له المتفائلون .

ولكن الذى شفى نفس سامى ، وأعاد لها ثقتها ، وبعث ذابل

آمالها ، اندفاعه فى قراءة كتب فلسفية اقترضها من ما كنيل . كانت تلك الكتب تتناول شرح المذاهب الفلسفية السياسية ، وتطورها من عهد أفلاطون إلى العصر الحاضر . وقد أدرك من خلال قراءاته حقيقة الحقائق فى هذا الوجود وهى أن الموجودات كافة من ماديات ومعنويات فى حركة دائبة وتطور مستمر . وأن الظروف والملابسات المحيطة بها لا تنكف كذلك عن التغير والتبدل . وقد وقع فى يده أخيراً كتاب يبحث فى أهم ظاهرة عرفتها أوربا فى القرن التاسع عشر ، وهى يقظة شعوبها ، وضيقها بأساليب الاستغلال الرأسمالية . فاطمأن إلى أن التبدل لابد أن يطرأ على مصر ، واليقظة الواعية لابد أن تسري إلى ربوعها . وأخذ يترقب الأحداث كما يترقب الملاح الماهر مهب الرياح .

الفصل الحادى والعشرون

لم تطل معاملة عبد المنعم الحسنة لزوجته . وإذا كانت هذه المعاملة قد بدأت بسبب فرحته بمولد ابنه مجدي ، فقد شارفت على نهايتها بسبب ابنه المذكور كذلك . فهو لم يعرف الحب المجرد عن الغرض فى حياته ولم يعرف متعته وحلاوته ، فلما خفق قلبه بحب ولده ، وشعر بلذة خفوق القلب المتيم واختلاجه استسلم لعاطفة الأبوة ، وهام بذلك الطفل الغض الطاهر هياماً ... ولعل أنانيته كانت تلهب هذا الهيام وتؤجج ناره . لقد دعا ابنه مجدي لأنه رأى فيه استمراراً لحياته ، ودواماً لمجده الذي يبذل قصارى جهده لتوطيده ... كان يعد ولده قطعة منه ، فأحبه كما أحب نفسه ، وحرص عليه حرصه عليها ، وراقب نموه المطرد فى شغف وقلق . وعلى الرغم من شدة عناية سنية بطفلها ، فقد

كان يرميها بالتقصير فى حق الطفل ويعنفها على إهمالها لشأنه . كان لا يطيق أن يرى انصرافها عن ابنه ، ولو لحظة قصيرة ، لأى أمر من الأمور مهما كانت أهميته أو ضرورته ... ولم يعدل فرحته برؤية الطفل يقف على قدميه ، ويتنقل مترنحا بين المقاعد إلا فرحته يوم سمعه ينطق كلمة « بابا » لأول مرة . كان لهذه الكلمة فعل السحر فى نفسه . كان كل حرف من حروفها رقية من الرقى . . وحينما بدأ الطفل يحطم الأوانى ، ويلقى حذاءه الصغير من الطنف ، لم يضق بذلك وهو البخيل الحريص على كل ما يملك . بل كان يضيق بسنية إذا نهرت ابنه لتصرفه عن مثل تلك العادات . كان يقول لها متهدج الصوت غضباً :

— كيف تنهرين ابنى ؟ كيف تتطاولين عليه ! من أنت لتعتدي على ولدى أنا ؟ ! . .

وأخذت قسوة الأيام على سنية تشتد من جديد ، فان المسكينة لم يكتب عليها أن تحتمل سفاهة زوجها وحماقته فحسب ولكنها كانت تلاحظ بقلب كسير أن ابنها كان يزداد على مر الأيام إعراضاً عنها وتعلقا بأبيه . وصور لها اليأس أنه سيتعلم من أبيه احتقارها ، وسينتهى به الأمر إلى كراهيتها . .أخذ قلبها يتحول إلى ابنتها ناحية . ويقصر عطفه وحنانه عليها ، بالرغم من أن الطفلة لم تكن فى الواقع إلا نسخة مصغرة لصورة عبد المنعم ! ! . ولكن ذلك العطف والحنان لم يستطيعا أن يزاحما فى قلبها المفجوع عاطفة حبها لابنها . ذلك الحب اليائس الذى أصبح عاملا جديداً من أشد عوامل محنتها . . .

وليت سماجة عبد المنعم الأصيلة ، وقحته القديمة وقفتا عند حد . فقد حملته ظروفه على أن يطلق لها العنان . كان يشعر كغيره من

أذناب الاستعمار بأن سادته الانجليز يحتقرونه على الرغم من عدم تقتيرهم عليه في الترقية ، وعدم التعرض له في غطرسته على الموظفين . وقد حز في نفسه أن يحتقره أولئك الرؤساء ، وأطغاه السلطان الممنوح له فأراد أن يعوض على نفسه كرامتها المهدرة باستحداث عظمة مستمدة من احتقاره لمرؤوسيه والتنكيل بهم حتى يرهبوه ويكبروه ويذلوا له. ثم تمادى في غيه ، وأخذ يتطاول على رؤسائه المصريين حتى انتهى به الأمر إلى ازدراء ناظر الداخلية الذى احتمل صلفه خشية أن يدس له عند السادة أصحاب السلطان الفعلي .

واحتملت سنية المسكينة الجانب الأكبر من عنته وتعاليه . فكم كانت تطيش بعقله نشوة الزهو ، فيصرخ في وجه زوجته المسكينة :

— كيف تجرئين على مناقشتي ؟ سأحطم رأسك المتمرد إذا لم تذعني لمشيئتي . أتخرج مثلك عن طاعتي بينما يرتجف الوزير أمامي ؟ . . .

ولم تعد المسكينة تملك لاعتدائه رداً إلا أن تطلق العنان لمدامعها الغزار ، وتردد قولها في تشنج عنيف :

— لماذا تزوجت بي ؟ ! . . لماذا ؟ . . . لماذا ؟ ! . . .

وأخذ هذا التساؤل يكبر في ذهنه ، ويدوي في أذنيه . نعم، لماذا تزوجها ؟ كيف يتزوج ألمعي مثله ، بفتاة تافهة مثلها ؟ . . أكان يشك في مستقبله المشرق ؟ أكان غافلا عن صفاته وميزاته الخارقة ؟ . . . كيف دفعه العناد إلى مطاردة تلك الفتاة حتى وقع في شباكها بدل أن يوقعها في شباكه ؟ ! . . . وأخذ ازدراؤه لسنية يتشبع مع توالى الأيام بحقد متزايد ، وحرقة على ما فوتته هذه الفتاة التافهة عليه من زيجة ذات مال وجاه وسلطان .

ولم يفطن إلى مقدار ما كان يغرسه في قلب سنية من حقد عليه، وازدراء له. فقد أعماه استغراقه في ذاته عن الشعور بما يدور حوله. بل إن اهتمامه بالاستزادة من المال والسلطان صرفه عن الاهتمام بأي أمر آخر.

ازدهرت تجارة أبيه، وتضاعفت ثروته. ولكن الغنى الطارىء الذي لم يحلم به ذلك الفتى الطموح، والسلطان المتزايد الذي لم يتح لغيره من المصريين في وزارة الداخلية لم يصرفاه عن ترقب موت ذلك الشيخ الفاني الذي سعى حتى زوجه بأخته نعمات. كان لا ينقطع عن زيارته والسؤال عن صحته، فيزعجه أن يراه محتملا لأعباء الشيخوخة دون أن تبدو عليه علامات التخاذل والوهن.

ولم تكن نية عبد المنعم لتخفى على الشيخ المجرب الذي كثيرا ما كان يلقي على زائره نظرة خبيثة، وترتسم على شفتيه ابتسامة ساخرة ويقول:

— أنا أعلم شدة حرصك على حياتي، فاطمئن ياصديقي، فأنا لم أنعم بمثل الصحة والعافية اللتين أنعم بهما في هذه الأيام:

وكثيرا ما ودت نعمات أن تشارك زوجها في تهكمه. ولكن عبد المنعم أخوها على أي حال، فلم يسهل على نفسها أن تساهم في كشف مساوئه، وتزيده فضيحة أمام الرجل الأجنبي. على أنها كانت تنفس عن ضيقها بسلوكه كلما أتيحت لها فرصة الاختلاء به، فهي لم تكن تتورع حينذاك عن إظهار امتعاضها. بل إنها كانت تحاول التنغيص عليه بتكرار تهديدها له بأنها لن تمكنه من أخذ قرش واحد من ميراث زوجها فيما إذا قدر لها أن ترثه. ولكنه كان يقابل هذه

التهديد بالقهقهة وثوقا منه بعجزها عن تنفيذه . . . كان يجيل لحظه النهم فى الرياش الفاخرة ويقول لها :

— يالك من بلهاء ! اكنت تصرين على رفض هذه النعمة ، ولكنى أرغمتك عليها إرغاما .

ولم يكن يفوتها أن تجيبه :

— ولكنك لن تنال شيئا مما تطمع فيه .

وكان يتغافل عن مثل هذه الردود الخشنة على الرغم من أنها كانت تصيب منه موطن الداء . فالحقيقة أنه لم يطمع فى مال زوج أخته فحسب ، ولكنه كان يطمع كذلك فى احتلال داره والاستيلاء على رياشه بعد موته ، والخلاص من نعمات بارسالها إلى أبيها للاقامة معه . وأهم ما كان يرمى إليه من وراء ذلك أن يستطيع إقامة الولائم فى تلك الدار الفخمة لسادته الانجليز ! ! . .

ثم وقع ما كان يتوق إلى وقوعه ، وكان يقطع منه الرجاء . . . لقد حملت نعمات ! ! . وسوف تحقق مناه فتضع مولوداً ذكراً يرث مال أبيه جميعه ، ويخضع لوصاية خاله . . .

وكان النوم ينفر من عينيه المحملقتين وهو يفكر فى تلك الثروة الطائلة التى توشك أن تقع في قبضته . كان ينكمش فى فراشه ، وتدور عيناه فى الظلام كأنهما عينا وحش يتربص بفريسته . . .

وخيل إليه فى عصر يوم من أيام مايو أنه أوشك أن يصيب المغنم الذى يطمع فيه . صحا من هجعة القيلولة على قعقعة حوافر حصان تضرب فى بلاط الشارع . وحين وقف الحصان والعربة التى يجرها أمام بيته ، أدرك أن أباه جاء يزوره ولم يغب على أذنه أن الأب يسرع على خلاف

العادة فى صعود درج السلم ، ويعنف فى طرق الباب . وحين دخل الشيخ الردهة دخلها مسرعاً مكفهر الوجه ، وقال وهو يلهث إن زوج نعمات أصيب بمرض مفاجىء ، ويبدو أن حياته فى خطر .

وخفق قلب عبد المنعم وهو يتلقف النبأ ، وسأل أباه متلهفاً :

— ما مرضه ؟ أهو مرض خطير ؟ . . . أعاده طبيب ؟ . . وماذا قال الطبيب ؟

وكانت لهفته ظاهرة إلى حد أن أباه الساذج لاحظها ، فأخذ يطمئنه بقوله :

— قال لى الرسول إن نعمات قرحت عينيها بكاء ، وإن المريض يعالج سكرات الموت . . . أسرع يابنى فى ارتداء ملابسك ، فأختك فى حاجة إلى وجودنا هناك .

ولم ينصت عبد المنعم إلى كلام أبيه ، فقد كان مشغولا بخواطر ملكت عليه لبه ، وقال يحاول التخلص من شواغله :

— ولكننا فى حاجة إلى رداءين أسودين . لابد من ذهابنا إلى الحياك . . .

— بل لابد أن نعود المريض أولا . . . هلم ياولدي فان أختك فى حاجة إلينا . . .

فتحت نعمات باب بيتها بنفسها لتستقبل أباها وأخاها ولم يلحظ هذا الأخير احمرار عينيها وورمهما ، فقد كانت عيناه مصوبتين إلى باب غرفة المريض . كان يريد اقتحام ذلك الباب والاطمئنان بنفسه إلى سوء حالة الشيخ الفانى . وعند ما علم أن الدخول عليه محظور ، أخذ يمطر أخته بسيل من الأسئلة مما يتعلق بخطورة المرض ورأى

الطبيب المعالج فيـــه . ثم لحظ اصفرار لونها ، وانتفاخ جفنيها ، فصاح متعجباً :

— ماذا دهاك يامغفلة ؟ ! . . أيحزنك قرب خلاصك من هذا الرجل ؟! أما كان أجدر بك أن تغتبطى وتستبشرى ! . . إن الدنيا توشك أن تبسم لك ، وتجود عليك بالسعادة المأمولة .

وأعرضت نعمات عن أخيها ممتعضه . ثم عادت فالتفتت إليه فجأة ، وخاطبته متهدجة الصوت :

— أنا لم أنحط إلى هذا الدرك . . . اعلم أني لا أرى فى الحياة شيئاً أعز عندي من حياة زوجى .

وفغر عبد المنعم فاه دهشة لحماسة أخته وسألها :

— لـكنك كنت تنفرين منه . . . كنت تـكررين قولك إنك تفضلين الموت على الحياة إلى جانبه .

— قلت ذلك قبل أن أعرفه وأقدر خصاله . إنه رجل شريف رحيم كريم ، لم يبخل على يوماً بما ملـكت يده من مال ، وما انطوى عليه قلبه من حب وحنان . إنه الرجل الوحيد الذي يحبنى فى هذا الوجود .

وتململ عبد المنعم ، فلم تعبأ بتململه ، وواصلت حملتها عليه :

— إنى أشعر وأنا أعيش إلى جانبه بالاطمئنان ، وأخشى أن أتعرض من بعده لعوادى الزمان . أخشى ألا أنعم بما أنعم به الآن .

وحدقت فيه مليا ثم أردفت :

— لم تصرفه آلام المرض عن التفـكير فى مستقبلى . لقد طلب إلى أن أحذر بعد موته حتى ألصق الناس بى . . . لقد حملنى على أن أضع يدى على المصحف الشريف ، وأن أقسم ألاّ أدع أحداً غيري ، وغير

ولده الذي تسكنه أحشائي ينعم بماله من بعده .

ولم يثر وعيد أخته المتسكرر مخاوفه . فقد حذق أساليب الاستغلال على أساتذته الانجليز الدهاة ، فهل يخشى مثله أن تفلت مثل نعمات من يده؟

وما غادر دار المريض في صحبة أبيه حتى ذهب كلاهما إلى الحياك وطلبا إليه أن يعد لسكل منهما رداء أسود . . . ولم يلتفت وهو يتعجل نهاية صهره ماتثيره لهفته على تلك النهاية من سخرية وازدراء . لم يلتفت إلى بسمة الحياك التى حاول إخفاءها عندما وقف على السبب الذي دفع الرجلين إلى طلب حياكة الثوبين الأسودين . ولم يهتم بامتعاض سنية يوم دخل عليها الدار وهو يحمل ذلك الثوب على ذراعه . .

أما فاطمة فلم تسكتم مشاعرها كما فعل كل من الحائك وسنية . ولسكنها صرخت في وجه زوجها حين وقعت عينها على الرداء الأسود وصاحت

— ماهذا ؟ ! . . كفى الله الشر ! . . . ماذا جري ؟ . . .

وأجاب محمد أبو السعد بسذاجته المعهودة :

— يالك من غافلة ! . أليس من الطبيعى أن نلبس الحداد على صهرنا؟.

وشهقت الغافلة شهقة عالية ، وضربت صدرها بيدها وصاحت :

— أمات المسكين ؟ . . . لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأخذت تولول بصوت عال . فنهرها قائلا :

— كفى صراخاً . . إنه لم يمت بعد . ولسكننا نعد العدة للمصاب .

وارتسمت الدهشة على وجهها ممزوجة بالبلاهة :

— تعدون العدة ! ! . . حرام عليسكم . . . هذا فأل سيء . . .

— اصمتى ، فأنت لاتفقهين شيئاً . أترين أن يموت صهرنا فلا نلبس لموته السواد ؟ . . أتريدين أن تجعلينا سخرية فى أعين الناس؟ ! . .

وصعدت فاطمة فى صباح اليوم التالى إلى مسكن ابنتها لتتندر بتلك القصة ، فقادتها سنية إلى خزانة ملابس زوجها ، وأشارت بأصبعها إلى ثوبه الجديد . وقالت لأمها وفى صوتها رنة التقريع :

— هـذا هو الزوج الذى اخترته لى . . . هـذه هى الأسرة التى أصررت على أن يصل بيننا وبينها رباط النسب .

وأطرقت الأم . ولم توفق إلى جواب . . .

ولم يحالف التوفيق عبد المنعم كما حالفه من قبل . واجتاز الشيخ المتهدم مرحلة الخطر . واستطاع أن يعاند الطامعين فى ماله ، ويتغلب على المرض . وتجاوز حقد عبد المنعم عليه كل حد وهو يرقب تماثله للشفاء ، وصب غضبه على سنية ، فدأب على أن يفتعل أسباباً لإثارة الشجار معها ، والانهيال عليها بالسباب .

ولم تخف وطأة تلك الأزمة النفسية التى عاناها إلا حين وضعت أخته مولوداً ذكراً دعته يحيى . فقد أحيا هذا الزائر الجديد آماله . وألهاه بالتفكير فى المستقبل ، وتخيل اليوم الذى سيعين فيه وصيا منضما إلى أخته على ولدها ، ولكن شيئاً واحداً كان يقلق باله . فإن المولود كان شاحب اللون هزيلا ، معرضاً باستمرار للنزلات الشعبية والمعوية .

وفوجئت نعمات وزوجها فى أحد الأيام بزيارة عبدالمنعم مصطحبا رجلا غريبا . وعلما منه أنه جاء بالطبيب ليفحص ابنهما ، ويشير عليهما بالدواء والغذاء الكفيلين بتوفير الصحة والعافية للطفل المحبوب .

وسأله الأب الشيخ وهو لا يخفى امتعاضه :

— ما الذى يدعوك إلى هذا الاهتمام بولدى ؟ . . إن العناية بأمره منوطة بى أنا ولم يبال عبد المنعم بهذا الاعتراض . وقال فى بساطة .

— ولكنه ابن أختي ، فهل ألام إذا اهتممت بأمره ، وعنيت بصحته؟
وأجاب الشيخ ساخراً :
— وأنا ! . . ألست زوج أختك ؟ . . أليست صحتي أيضاً في حاجة إلى عناية ؟ فلم تخصه بالاهتمام من دوني ؟.
— هذا طفل لا يملك من أمره شيئاً . فإذا قصر أبواه في العناية به ، فمن الطبيعي أن يعنى به خاله . أما أنت فتستطيع أن تعني بنفسك .
ونظرت نعمات إلى زوجها نظرة فيها توسل ورجاء أن يكف عن مواصلة هذا النقاش ، فصمت الشيخ ، ثم لم يلبث أن قام متثاقلا وغادر الغرفة . وقامت نعمات فتبعته ، وغابت غير قليل . وفهم عبد المنعم من صوتها وصوت زوجها اللذين تراميا إلى الغرفة أن الأب يأبى عرض ابنه على الطبيب . ولكنها لم تلبث أن عادت إلى الغرفة وهي تحمل الطفل بين يديها . . .
واضطر وهو ينتظر وقوع الارث المرتقب في يديه أن يعتصم بالصبر . وخفف وطأة الانتظار انشغاله بالتمسح في رؤسائه الانجليز آملا أن يضاعف المغانم التي يحصل عليها بعونهم وتأييدهم . كان غروره يصور له أنه أدهى من هؤلاء الدهاة ، وأنه يخدعهم ويسخرهم في سبيل نيل مآربه . ولم يفطن إلى أن غفلته هي التي تجاوزت كل حد . فهو لم يكن يحصل إلا على فتات الولائم التي كان يمدها لهم ويتصيد ألوانها من خيرات بلاده ، ومن عصارة جهود أبنائها . . .
لم يدا خله شك هو وأمثاله من العبيد أن الانجليز كتب لهم البقاء في مصر ، فربط مصيره بمصيرهم ، واستمات في مناهضة كل من يعمل على زعزعة مركزهم ، أو يؤمل في زحزحتهم . وعميت عيناه عن الشواهد التي كان يقوم بعضها تلو بعض على أن ضيق الشعب بالمستعمر

يوشك أن يفور وينفجر فيقوض أركان الاستعباد والاستعمار .

أما نبيه وزملاؤه فلم تفتهم تلك الشواهد . لم يفتهم أن الشعب أخذ يتبين وجه الاستعمار الفاغر الفم ، الحاد الأسنان ، المفترس العينين . وبدأ يدرك أن ذلك الوحش النهم هو الذي يلتهم خيرات البلاد التي لا تني تغيض شيئاً فشيئاً . . . زعم عملاء الاستعمار المهيمنون على الحكومة أنهم سيعينونها على تسديد ديونها . ودرجوا على استقطاع ثلثي إيراداتها كل عام لهذا الغرض ، ولكنهم لم يحققوا ما زعموه ، بل اقتصروا على دفع فوائد الديون ، ثم منحوا المغامرين من الأجانب ما كان يتبقى من إيرادات الدولة ليقوموا بمشروعات كمالية للترفيه عن الموسرين ، وتجميل أحيائهم ، وإعانة الاستعمار على استغلال موارد البلاد وفق مايشتهى . . . وجد كل صاحب مال من الأجانب موردا خصباً لاستغلال ماله ، فتهافت نهازو الفرص على البلاد يغطونها ببضائع الترف التي تمتص أموال الأغنياء ، ويعرضون على الحكومة خدماتهم ويتعاقدون معها على القيام بأعمال لاتعود بالفائدة إلا عليهم وعلى المستعمرين الذين لم يتوانوا فى توريط البلاد فى مشاريع تستنزف مواردها وتضمن بقاءها غارقة فى الدين إلى قمة رأسها . واستطاع المرابون أن يستردوا أضعاف أموالهم بالربا الفاحش . وأفلس كثيرون من أصحاب الأرض فانتقلت ملكياتهم إلى الأجانب وأذنابهم . وظهر للمصريين أن بلادهم تنحدر إلى هاوية الافلاس ، ولم يجهلوا اليد التي تدفعها لهذا المصير .

أيقن نبيه وزملاؤه أن هذه الحال ستدفع مواطنيه إلى القيام بثورة تعصف بالاستعمار وتضع حدا لمخازيه ، ولكن عبد المنعم كان يري مثل هذا الخاطر جهلا وحماقة . كان ينكر التطور ، ويرى الحال التي عادت عليه بالخير الجزيل لابد باقية بلا تبديل .

الكتاب التالى

طلائع الأحرار

خلال ثورة عام ١٩١٩

(تنبيه) وقعت أثناء الطبع بعض أخطاء مطبعيـة لا تخفى على فطنة القارىء .

اقرأ لنفس المؤلف

ألمع ساعات الحرج

قطوف نادرة من القصص

عاصفة فى صحراء

الصحوة الأخيرة

إرميا (مترجمة عن زفايج)







